



المركز القومي للترجمة

جمال محجوب

فى ساعة العلامات

ترجمة: راشدة رجب

مراجعة: يسرى إبراهيم



2125



سلسلة الإبداع القصصي



في ساعة العلامات

(رواية)

تأليف: جمال محجوب

ترجمة: راشدة رجب

مراجعة: يسرى إبراهيم



2013

فى ساعة العلامات

(روايــة)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2125
- فى ساعة العلامات
- جمال محجوب
- راشدة رجب
- يسرى إبراهيم
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:
In the Hour of Signs
By: Jamal Mahjoub

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محجوب، جمال .
فى ساعة العلامات (رواية) /تأليف: جمال محجوب،
ترجمة: راشدة رجب، مراجعة: يسرى إبراهيم
ط١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣
٣٦٠ ص ؛ ٢٠ سم
١ - القصص العربية.
٢ - علامات الساعة.
٣ - المهدى المنتظر.
(أ) إبراهيم، يسرى (مراجع).
(ب) رجب، راشدة (مترجمة).
(جـ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١٢/٩١٩٠
الترقيم الدولى 978-977-216-100-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

الجزء الأول

العلامات

مقدمة

في المناسبات الكثيرة في السنوات التالية، عندما كان يطلب من الخليفة عبد الله التاعيشي أن يصف الظروف التي قابل فيها لأول مرة الرجل المعروف بالمهدي في المنطقة نفسها التي تم مطاردة التاعيشي وقتله بها في نهاية الأمر، كان دائما يروي القصة ذاتها. وذلك على النحو التالي:

كان الغبار يهب بقوة في السهل الجاف العَظْمَى كورقة تلتف من العالم الخفي. رجل يسير وحيدا. في المدن والقرى التي تتلوى خلفه على هيئة ذيل يمتد إلى الأراضي المنبسطة غربا حيث ولد، كانوا يظنون أنه غريب. فيحيونه بنوع من الشك والريبة التي ينظر بها لمرضى الجذام، وحاملي مرض الطاعون والرجال غليظي القلوب القادرين على قتل الأطفال الصغار. كانوا يجتنبونه، ويشتمونه ويلعنون أهله. يلقون عليه الحجارة وأي شيء يجدونه، أي شيء قد يدفعه ويساعد الريح على أن تأخذه - وتنفخه في اتجاه الأفق الترابي.

الطرق التى قادته إلى هنا، الأصوات التى أخبرته أنه سيجد يوما الإجابة التى يبحث عنها ما زالت تدور فى رأسه. كلما تقدم زاد اقتناعه أنها ليست مجرد رحلة بل هجرة من أنبل الهجرات. كان يتعقب الشوق المضىء اللامع الذى يحترق بداخله مثل لعنة. يوما ما سيأتى إلى النور؛ ليغسله من كل شىء يكرهه فى شخصيته. يوما ما سينقذ.

عندما اقترب من مجموعة المنازل المنخفضة ذات الأسطح المستوية شعر أن تعبه بدأ يختفى، شعر بأنه أصبح قريبا من غايته. يوما ما سيندمون على إلقائهم الحجارة، وعلى لعناتهم التى تسقط مثل مطر قاس؛ لتغسله من أعماقه. فالله يتجلى فقط للنخبة المختارة. هو ليس خطأهم، ولكن لا يجب أن يتلقى أى إنسان المعاملة التى تلقاها.

مات بغله. ولم يكن لديه ممتلكات تستحق الذكر. انقلبت أسرته ضده. لن يعود حتى يجد ما يبحث عنه. سيضعونه فى مكانة عالية وينحنون احتراما له فى دهشة - حتى والده. لم يجد سلواه فى الكلمات، فنظرا لأن عملية القراءة والكتابة لم تكن سهلة بالنسبة إليه فقد هجرها كما لفظته بأسلوبها.

كانت القرية تكتسى بثياب الحداد حتى الغربان ذات الصدور الرمادية كانت تنكس رءوسها فى خجل. لقد توفى الشيخ العظيم، وأخذ من محن هذا العالم إلى معجزات العالم الآخر. وقد دعت هذه الوفاة مسافرنا إلى رحلته، فقد وصلت إلى مسامعه أخبار بأنه تم اكتشاف

خليفة - رجل متميز جدا بكل المقاييس - كان الناس يتهامسون بأخبار أسفاره وخطبه فى احترام، فى كل مكان: فى الأسواق بأسماء منسية، حول جذوات الأفران، وفى بطن الوديان الجافة. سمع عن هذا الرجل من الأغراب الذين يتسلون بالحديث عن المعجزات. سمع أن هذا الرجل، الذى يعمل والده فى بناء المراكب والذى كانت تشع من عينيه التقوى والورع، كان يسير وبجانبه الملائكة. تتدفق منه الكلمات مثلما يتدفق اللبن من أطراف أصابعه.

قيل: إن هالة من الضوء تسبقه، وإنه فى العالم أجمع شوهدت نجمة جديدة تحترق فى السماء منذرة باقتراب النهاية. قالوا: إن الرسول بنفسه قد تحدث فى حلم إلى هذا الرجل المتواضع، وعندما سمع عبد الله بذلك شعر بضربات قلبه تتسارع مثلما يشعر المرء عندما يتعرف على أخ بعد غياب سنوات طويلة. بدأ رحلته باحثا عن هذا الرجل، يتلمس طريقه غير المنتظم سالكا أحيانا منعطفات خاطئة، وفى كل مكان يسأل عنه يحدق فيه الناس فى صمت. ولكن ربما يجد هنا ما كان يبحث عنه لسنوات طويلة.

كانت القرية تبدو وكأنها مستغرقة فى حلم، طبقات من الحرارة تستقر على الأرض منتصف اليوم وتجعل من الصعب على المرء أن يفكر بوضوح.

المرة الأولى التى رأى فيها الرجل كانت حقا مدهشة. كان جالسا

على الأرض فى مدخل الضريح غير المكتمل. كان يجلس هناك دون حراك لساعات طويلة. أمضى عبد الله يوما ونصف يشاهده فقط ساجدا هناك تحت الشمس الحارقة، وجهه إلى أسفل يتمتم صلواته. أى شخص يود أن يدخل إلى المبنى عليه أن يسير فوق ظهره.

فى اليوم الثانى اقترب عبد الله أكثر. كان الرجل ساجدا فى الطين. يداه متسختان، ورائحة الأرض الرطبة مثل عبير الوحى. كان الرجل ضئيلا وضعيفا، رقبته لم تكن ممتلئة وبارزة العضلات كرقبة المصارع، ولكن طرية وطويلة، أشبه برقبة امرأة. شاهد عبد الله ابن بانى المراكب يعمل، يأخذ قوالب الطوب من حيث جفت تحت الشمس ويضعها بعناية، ينظمها بيديه، بانيا بمثابرة ضريحًا من الحب والإخلاص لمعلمه الذى رحل. يا له من منظر يعكس مدى التواضع! التفانى الصادق مثل الماء البارد يسيل على جلد عبد الله بعد هذا الطريق الشاق الطويل المترب.

كان الرجل يتحرك بسهولة، دون خوف. لم يلتفت إلا مرة واحدة؛ ليبتسم. نعم لقد ابتسم بعينيه، بروحه، وظهرت العلامات: الشامة على الوجنة اليمنى والفلق بين الأسنان الأمامية. عبد الله صامت. اقترب أكثر، بأنين مكتوم لحيوان جريح. استدار الرجل ليواجهه، سقط عبد الله على ركبتيه والدموع تسيل على وجنتيه. مد الرجل يديه وأمسك بيدى عبد الله، وبقيا هكذا لبرهة، يمسك كل منهما معصم الآخر وكأنهما زوجان.

وجد نفسه يقول: "سيدى مكتوب فى أحلامى أنك المنتظر". ابتسم الرجل الآخر الابتسامة التى عـرفه بها الجميع ووثقوا به وأومأ برأسه قائلا: فى بساطة: "نعم". ثم رفع الرجل يديه وأسقط من يعملون فى الضريح أدواتهم فى الرمال واقتربوا: رجال ويتامى، والفقراء والمتفانون، والنساء اللاتى يرتدين ملابس كملابس المتسولين. أتوا من كل الاتجاهات؛ ليتجمعوا حول الرجل ذى الشامة على الوجنة. فى هذه اللحظة شعر عبد الله أنه لم يكن مخطئا، أنه أخيرا وجد مكانه الصحيح. هنا وجد الدواء لعذابه.

تحركت الشمس عابرة السماء بهدوء ودون جلبة، وغط العالم فى نوم عميق، غير مدرك ما حدث.

١- النيل الأبيض

١٢ أغسطس ١٨٨١

على سطح الباخرة المهتز، تحت مظلة شراع بلون الشمس فى ضعفها وبرائحة أوقات بعد الظهيرة الكئيبة، جلس محمد أبو السعود بك تاجر العبيد الشهير ومساعد حاكم السودان على صندوق مقلوب كان يحمل من قبل البنادق والذخيرة فيما يعكس وظيفته القيادية. هناك منضدة صغيرة تميل إلى أحد الجوانب ومقعد وثير منهار فى تعب فى أحد الأركان. يتدلى علم الخديوى الأحمر ذو الهلال الذهبى، شعار الدولة العثمانية، من مؤخرة السفينة، لا تزعجه سوى الهبات الخفيفة للريح التى تزحف نحو أسوار السفينة لتوفر لحظات خاطفة من الراحة من الحرارة الخانقة.

عينا سعود تأكلانه. الهواء ثقيل وذو رائحة كريهة وعادت ساقاه تؤلمانه. حاول أن يتجاهل أزيز الحشرات وصوت الرجال أسفل يصيحون بعضهم فى بعض. اتجه بعينيه إلى منتصف مظلة الشراع الممتدة حيث تحلق مجموعة من الحدءات فى الحرارة، تتساقط وتنقر بعضها بعضا بشراسة. صوت نعيبها المتواصل يعلو وينخفض عندما تنقض مجموعات جديدة من الأشجار عبر شاطئ النهر. مرت ثلاث ساعات الآن، والباخرة الصغيرة متوقفة وبدأت الحيوانات التى تقتات القمامة تفقد صبرها.

مال سطح الباخرة المهتز فجأة ناحية أحد الجوانب عندما رفع سعود رأسه من بين يديه وصرخ طالبا النجدة. جاء جندى طويل القامة يفتقد جسده اللياقة فى ملابسه الرسمية راكضا على السلالم الضيقة التى تصل بين السطح الرئيسى للباخرة والجسر، طربوشه المترب يميل فوق رأسه. انتزع سعود البندقية وقد نفد صبره من بين يدى الجندى المرتبك وأطلق عدة رصاصات متحملا بالكاد مشقة التصويب. رفرفت الطيور مطلقة صرخة واحدة انعكس صداها عبر الماء المتموج. هنا أسقطت الأجنحة المرفرفة ريشها الباهت فوق رأس الجندى الذى لم تطرف له عين. أخذ البندقية التى ألقاها إليه المصرى بضيق وتراجع إلى الوراء هابطا السلم بهدوء ودون أن ينبس ببنت شفة.

مئات الأشعة من ضوء بعد الظهيرة المترب سطعت من خلال ثقوب ظل الشراع المتعب. طائر جريح ما زال يكافح ليدرك لماذا لا تؤدى أجنحته وظيفتها، مما يجعل الشراع يرتعش متشنجا. تجاهل أبو السعود الأمر لاعنا. وأسرع الخطو إلى جانب المركب. مال المركب فجأة فأمسك بالسور الحديدى.

إلى أسفل، مجموعة من الجنود يشقون طريقهم فى الماء مطلقين رشاشا ويضحكون محاولين شد المركب التى غرزت فى الضفة الرملية. حينئذ انطلقت صيحة وبدأ الرجال الذين يقفون عند سور المركب إطلاق النار فى الماء. تحرك شبح مغطى بالطين تحت السطح واختفى. كان الجنود يتسلقون الأحبال ويتجهون من الخلف إلى داخل السفينة. اشتد الضحك وصيحات الرعب الزائف أثناء سقوطهم على سطح المركب وهم

يلهثون. استدار سعود وهز رأسه فى يأس. واستقرت عيناه على التربة الخصبة لضفة النهر. لماذا اختاره الله لهذه المهمة بالذات؟ الحاكم العام، بكل حكمته، لم يكن يدرك شيئا عما يدور هنا. لو كانت الأمور قد تركت لرءوف باشا، ما حدث شيء. أعلن بأسلوبه الذى يشبه أسلوب مرضى الربو متفحصا أظافر يده "متعصب واحد لا يقوم بثورة يا عزيزى". حاول سعود أن يطبع فى ذهن رئيسه خطورة الموقف. فلديه على الأقل تجربة فى التعامل مع نماذج من البشر صعبة المراس منذ أيام عمله فى الجنوب بمعسكر العبيد فى جوندكورو على سبيل المثال. وكانت أولى القواعد ألا تظهر أى علامة على الضعف. ولا يستطيع المرء أن يقسو بشدة على هؤلاء الناس. ونتيجة لهذه التجربة لم يدهشه أن يعلم أن هذه الجزيرة غير المتميزة أصبحت مأوى للمعارضين والمنشقين. فوجود رجل غريب هناك أمر معروف منذ سنوات. كان المراكبية والصيادون وحتى الجنود فى سفنهم المتعددة التى تتجه صوب الجنوب يقفون فجأة رافعين أيديهم نحو وجوههم ويدعون احتراما لرجل الدين التقى الذى يقطن الجزيرة.

ولكن وجه الحاكم العام تجعد فى نفور بينما سعود يؤكد وجهة نظره، فتنهد سعود قائلا: إنهم إذا لم يقبضوا على الرجل فى الحال ويجبرونه على الذهاب إلى الخرطوم ليبرر سلوكه لعلماء الدين، سيشجعون الآخرين بذلك على تحدى سلطة الخديوى.

"نعم، نعم ولكن ماذا فعل المغفل المسكين أكثر من الوعظ والإدلاء بالتصريحات السخيفة؟ لقد أخبرتنى بنفسك بأنه محاط بالعبيد الهاربين

واللصوص، مجموعة من أحط أنواع البشر. لا يمكنك أن تقوم بثورة بمجموعة من الشحاذين والمومسات".

في ركن الحجرة الخاصة الكبيرة، غمغم السكرتير الأرميني لنفسه ضاحكا، مستمتعا باللحظة بشكل واضح. وعندما حدقه أبو السعود بنظرة قاسية، أسقط هذا الضبع عينيه على الأوراق التى كان يتظاهر بفحصها، ولكن الحاكم كان رقيقا مع الحاضرين. "الرجل بالتأكيد مجنون، حيث يدعى أنه حاكم هذا البلد، إلا إذا كنت قد تحولت دون أن أدرى إلى شيخ يرتدى الأسمال البالية". رفع يديه بحركة مسرحية دارسا الاحتمالات قبل وضع الخطة. الأرمينى يطن فى الركن. " إذا كنت مهتما إلى هذا الحد" أكمل الحاكم العام: "أقترح أن تتولى مسئولية الأمر. خذ ما شئت من الجنود واحضر هذا المجنون إلى هنا". وبإشارة من يده أذن لسعود بالانصراف. ولهذا فإذا كان اللوم يقع على أحد فى ورطته الآن، فعلى نفسه. ومع ذلك، وهنا شعر سعود بنشوة الرضا، فإن الخديوى بنفسه قد يرقيه مكافأة له على مجهوداته، ثم يتم استدعاء رءوف باشا إلى القاهرة ذليلا. استدار سعود ليجد الرائد المساعد يقف أمامه. هذا، كما يتذكر، هو الغبى ذو الشارب. كانت هناك فصيلتان على سطح السفينة "الإسماعيلية". سعود يستطيع فقط أن يتذكر أن البمباشى الأول طويل والآخر قصير، أحدهما بطىء التفكير والآخر عنيد. سحب نفسا عميقا ببطء عندما لاحظ أن الضابط لم يعبأ أن يحييه متذكرا الغطرسة التى لمحها في عينى الجندى فى وقت سابق. لقد توقف عمله اليوم بين استياء الجنود وهذيان المجانين.

"نعم؟"

قال الضابط لسعود: "سيدى أنا قلق بشأن الرجال".

فسأله سعود دون أن يحاول إخفاء غضبه "الرجال؟ ماذا بهم؟".

فأجابه الضابط قائلا:"مع كل هذا العمل الشاق لرفع المركب الغارز. لن يكونوا فى أفضل حالاتهم للهجوم هذه الليلة" وأضاف الضابط مكفهرا: إذا" ، أضاف الضابط بكآبة، "استطعنا الوصول إلى جزيرة أبا اليوم يا سيدى".

أخذ سعود يذرع سطح الباخرة جيئة وذهابا قابضا يديه بإحكام خلف ظهره متسائلا "هل تقترح أن يحصل رجالك على فترة راحة قصيرة لاستعادة نشاطهم مثلا؟".

"حسنا" هز الضابط ذو الشارب كتفيه مستهجنا وقال: "أقصد أن ندرس تأجيل الهجوم إلى الغد".

جلس سعود بكل ثقله على صندوق الذخيرة وأمال مرفقيه على المنضدة. وقال: "أعتقد أننا اتفقنا أن الهجوم ليلا هو الأفضل. ولا أحتاج بالطبع أن أذكِّر رجلا عسكريا مثلك بالمزايا الإستراتيجية؟" رفع عينيه : كان البمباشى يحملق فى سطح السفينة، أخذ سعود نفسا عميقا، وقال: "بالطبع يسرنا أن يأخذ جنودك راحة لليلة واحدة. إنهم تحت قيادتك. ولكنى سأطلب من الآخرين أن يذهبوا إلى الشاطئ وحدهم".

حسم الأمر. بطبيعة الحال فإن الضابط لم يكن ليسمح أن تسبق الفصيلة الأخرى رجاله نحو الصدارة. ابتسم سعود لنفسه: وجود

قائدين متنافسين على سفينة واحدة يعد بأفضل النتائج. هنأ نفسه على عبقريته وعاد ليتفحص أظافره ويفكر في فتاة سورية امتلكها مؤخرا: بيضاء وصغيرة جدا. فالحياة ليست كلها عمل شاق، كان يتأمل وهو ينظر إلى يديه متذكرا ما بينهما وبين نهديها الصغيرين المفعمين بالحياة من انسجام وتوافق.

تدافعت السحب الكثيفة فى السماء عندما هبط الليل. التصقت "الإسماعيلية" بالأوراق المتدلية التى تنحنى خلف النخيل الشوكى السامق عندما تدفق النهر وأحدث خريرا وأزبد حول بدنها الواهن. سقط المطر بغزارة غامرا الجنود المتجهمين الذين يقفون فى مقدمة الباخرة قابضين على أسلحتهم ومحملقين فى سطح الجزيرة الذى تغطيه الغابات.

كل شيء ساكن وثابت ما عدا المطر: لا توجد نسمة ريح واحدة، فقط السحاب الذى يبدو وكأنه يضغط بقوة تجعل رأس المرء تؤلمه. رسوا فى قمة الشمال الغربى للجزيرة الصغيرة. نزل الرجال من السفينة إلى الضفة وعبروا إلى الشاطئ يحملون البنادق على رءوسهم. انقسموا واختفوا بعيدا عن النظر. يغطيهم الليل وستار من المطر الخفيف الدافئ.

من مقدمة "الإسماعيلية"، يراقب أبو السعود أية إشارات من الجزيرة. كان يفكر فى المرة الأخيرة التى رسى فيها هنا. صراخ البركيت(*) parakeet الموحش يبدو حزينا من بعيد.

(*) البركيت: نوع من أنواع الببغاء، صغير وهزيل (المراجع).

منذ خمسة أيام كان يشاهد هذا المنظر ذاته. وصل حينذاك مع حفنة صغيرة فقط من الرجال لحراسته. شقوا طريقهم إلى الجزيرة فى موكب منتظم، دون أن يحاولوا التخفى. وبينما كانوا يسيرون عبر الطريق المؤدى من شاطئ النهر إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ، اندهشوا عندما لاحظوا الفلاحين فى الحقول يوقفون معازقهم فى وضع مائل وينتصبون لمراقبتهم، ثم دون أن ينبسوا بكلمة يأتون مسرعين من الحقول مندفعين فى مجموعات من ثلاثة أو أربعة أفراد إلى الطريق خلفهم. علق أحد الجنود على هذا الأمر.

فأجابه سعود: "لا تلتفت إليهم إنهم مجرد مجموعة من الماعز الشغوف يريدون أن يعرفوا ماذا يحدث، هذا كل ما فى الأمر".

استطاع خبر وصولهم أن يسبقهم بطريقة ما، ولذلك كانت القرية تنتظرهم عندما وصلوا إليها. تجمع حشد من الناس حول كوخ صغير من القش، يوجد خارجه عنجريب **angareeb** منخفض سيىء الصنع. على هذا السرير السعفى كان يجلس رجل، وقف عندما رآهم يقتربون. رجل بسيط جدا ربما أطول من المعتاد رغم أنه كان منحنيا قليلا مما يجعل من الصعب الحكم عليه. لديه وجه لطيف مشرق لا يشوهه سوى شامة سوداء على وجنته اليمنى. يبدو مبتسما طوال الوقت كاشفا عن فلق بين أسنانه الأمامية. وجد سعود هذا الأمر يزيد ضيقه مع مرور الوقت.

سأله: "هل أنت محمد أحمد؟".

هز الرجل رأسه بالإيجاب وهو ما زال مبتسما.

"هل أنت الرجل الذي يدعو الناس إلى تحدى سلطة الحاكم العام؟

ابتسم الرجل مرة أخرى، وأجاب بهدوء: " لقد قلت الحقيقة فقط كما أوحيت إلي".

مسح سعود جبينه بربطة عنقه الكبيرة وألقى نظرة على الحشد، الذي يبدو الآن مجموعة من الغوغاء القذرين. ما زالوا يقبضون على معازقهم وفئوسهم وعصيان الرعاة. الفقراء الجهلاء الذين ليس لديهم ما يخسرونه: ما توقعه تماما، رغم أنه لم يتوقع أن يكون عددهم ضخما إلى هذا الحد. من أين أتوا؟ ما الذي جذبهم إلى هنا؟ هذا الرجل الذي تشبه نظرته نظرة الماعز الحزين؟ هناك الأطفال المعاقون والسيدات المكلومات والمجذومون الذين ليس لديهم أصابع وكبار السن من الرجال بشعرهم الأشيب وأيديهم المرتعشة. "كم منكم مطلوب القبض عليه من قبل السلطات؟" سألهم سعود رافعا صوته واستدار ليتفحصهم بعناية. كانت هناك بعض حركات الأرجل، ولكن لم يجب أحد.

تحدث ابن باني المراكب الآن مشيرا إلى أتباعه. "هؤلاء الناس فلاحون شرفاء، لم يقترفوا شيئا تعاقبونهم عليه: أنتم الذين تطلقون على أنفسكم اسم السلطات". أشار بيده إشارة تدل على العقل قائلا: "لا سلطة هنا أعلى من سلطة الله. ولا حتى أنتم بكل جنود العالم وأسلحته تستطيعون القضاء على كلمة الله".

تنهد سعود قائلا: "لا إله إلا الله. كلنا نؤمن بإله واحد".

ولكن محمد أحمد هز رأسه بحكمة. "هجر كثيرون المعنى الحقيقي لرسالة الإسلام كما تعلم. والناس الذين تمثلهم تخلوا عن وقارهم

وحرفوا معنى كلمة "الإسلام". أنتم تشربون الخمر وتدخنون التبغ. لقد أغوتكم الحياة الدنيا".

فتح يديه مشيرا إلى الحشد محتكما إليهم. أشار إلى بدلة سعود وطربوشه قائلا: "ترتدون ثياب الأوروبيين الملحدين. ونحن نرتدي ملابس بلادنا البسيطة".

انفجر سعود غضبا وقال: "من تظنون أنفسكم؟ عودوا إلى حقولكم وماعزكم" صاح مخاطبا الوجوه التي لا يبدو عليها انفعال. لم يتحرك أحد منهم.

اتسعت عينا الرجل المبتسم وقال:" إنهم لا يخافون تهديداتك؛ لأن الرسول تحدث إليّ ومن خلالي إليهم. إنهم يعلمون من أنا".

سأله سعود وهو يتقدم خطوة إلى الأمام: "ومن أنت؟". سحب الحشد المتفاني أنفاسه، وحرك أكتافه بقوة وهو يمر بموجة من التوتر.

بدا النبي الهادئ مدافعا، قال ببساطة: "أنا الدليل على اقتراب الساعة. "سوف أقود المتفانين في الكفاح المسلح، الحرب ضد فساد السلطة والإيمان الذي تمثله أنت وكل الأتراك. وسننتصر. لقد جاءني الرسول بنفسه في حلم".

جاء الدور على سعود ليضحك "أنت ما زلت تحلم. أنا هنا لآخذك إلى الخرطوم؛ لتقدم نفسك إلى أعضاء مجلس العلماء المثقفين. دعهم يقررون إذا كان ما تقوله جزءا من إرادة الله". أخذ خطوة أخرى إلى الأمام مشيرا إلى الجنود بالتحرك. ظل محمد أحمد ثابتا. الرجل الذي

يقف بجانبه، ضئيل وفظ وتميز وجهه ندبات مرض الجدرى، أنزل يده لتستقر على سيف فى غمده تحت ذراعه الأيسر، تلألأت الشمس فوق النصل نصف المسلول.

نظر محمد أحمد إلى الجنود بحذر، مراقبا أعينهم. وأجاب بصوت خفيض: "إن أكثر علمائكم ثقافة لا يعلمون شيئا عن الإيمان الحقيقى". "فإدراكهم يقوم على الدراسة الأكاديمية فلم يروا قط نور الله(*)، أو يسمعوا كلمات الرسول مثلما حدث لى". توقف عن الكلام ومد يده إلى رفيقه الذى ترك السيف مرة أخرى فى مكمنه. "اخبرهم أنهم لو أتوا ليعلنوا ولاءهم لى لن يخشوا العواقب. فالله رءوف رحيم. إذا كانت قلوبهم صادقة الولاء فلن يخشوا يوم الميعاد. ذكرهم أنهم سيقفون للحساب بين يدى الله مثل كل البشر".

نظر سعود حوله بإمعان. ثم استدار إلى الحاضرين قائلا: "استمعوا لى. ما يقوله هراء، والأكثر من ذلك أنه هراء خطر. سوف يقودكم، ليس إلى المجد، بل إلى السجن معه. إذا كان هو الشخص الذى يدعيه لماذا لم يعلن أى عالم دين فى البلاد مجيئه؟ لماذا يطلب الله من المسلم أن يحارب أخاه المسلم؟". لم يجد استجابة لندائه. سحب نفسا

(*) هذا الكلام يعبر عن رأى الصوفية، إذ يعتقدون أن المعرفة الحقيقية لا تأتى عن طريق الحس أو العقل، ولكنها تأتى عن طريق نور يقذفه الله فى القلب، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة القلبية أو الذوقية، ولا بد لكى تصل إليها أن تتذوقها بنفسك، فهى مثل العسل لا تستطيع معرفة حلاوته إلا إذا تذوقته بلسانك؛ أى أنها معرفة خاصة لا يمكن وصفها أو نقلها إلى الآخرين ما دام الحس والعقل غريبين عنها (المراجع).

عميقا وقال: "هناك قانون واحد فى هذا البلد وهو قانون الحاكم العام والخديوى الذى يحكم هذه البلاد". اختفت نبرة السلطة من صوته."ليس لهذا علاقة بالدين". مد يده نحوهم وابتسم قائلا: "هذه ليست نهاية العالم".

وبينما استدار ليغادر المكان تعلقت عيناه بوجه مألوف فى الحشد: رجل عجوز ضئيل زاو زائغ العينين. ناداه "واد عواد"." لقد خدمتنى جيدا فى الماضى فى الجنوب. ماذا تفعل هنا مع هذا المجنون؟ ألا تدرك ماذا سيحدث؟ ستفقدون بيوتكم، وأرضكم وحريتكم. سيأتى الجنود ولن يحاولوا إقناعكم مثلما أفعل. أنت رجل عجوز، رجل حكيم، فكر فيما تفعله".

ولكن واد عواد العجوز هز رأسه هامسا "سعود بك، إنه يتحدث حديث الرسول نفسه. إنها إرادة الله". اضطربت نظراته القلقة واستقرت على الأرض.

"فليرحمك الله، فليرحمكم جميعا". هنا ترك سعود الجزيرة ترن فى أذنيه أصوات الضحك وهتافات الانتصار.

كان المصباح يهسهس لفترة طويلة بعد منتصف الليل. هناك طلقات نارية ليست كثيرة تأتى من بعيد. تتجمع كلها مثل صوت حيوان يسعل عن بعد، ثم سكون – سكون مريب. أطل سعود بك من سور السفينة على الشاطئ. كان البعوض يهاجم الآن حيث توقف المطر، السطح يعج بالبعوض فى الرطوبة الخانقة. ذرع سعود بك المكان جيئة وذهابا لا

يطيق صبرا لمعرفة الأخبار، حتى أعادته صرخة من بعيد إلى سور السفينة. صرخة أخرى. حدثته رجفة قلبه أنها صرخة رجل. تحرك بسرعة تجاه طاقم السفينة الذين احتشدوا معا يميلون متكئين على جانب السفينة وهم ينظرون إلى الجزيرة. سألهم سعود: "هل يستطيع أحدكم الرؤية".

أجابوا: "هل نحشو الأسلحة بالذخيرة يا سيدى؟".

رد بحدة متسائلا دون أن يرفع عينيه عن شريط قصب السكر وخط الشاطئ المنبسط: "على ماذا ستطلقون الرصاص؟".

"هناك" صاح أحد الجنود مشيرا بيده. لعن سعود عينيه. انضم إلى الأمر جندى آخر قائلا: "هناك شخص واحد آخر". خمسة أو ستة وربما اثنا عشر رجلا ظهروا مندفعين من خط قصب السكر الطويل. "إنهم مصابون انظر إنهم يحملون هذا الجندى".

"اثبتوا مكانكم"، أمرهم سعود بك وهو يشاهد الأشباح الآن تشق طريقها فى المياه الضحلة محدثة رشاشا. "تمساح!" انطلقت صيحة من مقدمة السفينة. حشا الجنود بنادقهم وبدءوا يحاولون التصويب على دوامات المياه الطويلة التى تشبه السهم.

"اطلقوا النار فى الهواء!" كان كل شىء غامضا. إلى أن روى القصة صوت صرخات من الماء. نجح أحدهم فى الوصول إلى السفينة. امتدت الأيدى على جانب السفينة وجذبته إلى سطحها. رقد على السطح، يلهث ويرتجف من الرعب الذى تبعته الراحة. احتشد الرجال

حوله، فى صمت من أثر الصدمة. الجندى جراحه غائرة، يختلط الدم والماء بشكل كئيب. فى وهج مصابيح الزيت الضعيفة، هز رأسه من جانب إلى آخر باكيا بطريقة هستيرية. "كانوا يختبئون فى الحقول حول القرية، فى الخنادق، مدفونين فى الأرض كالثعابين. اندفعت الطلقات من كل اتجاه وأدركنا بعد فوات الأوان أنهم رجالنا يطلقون علينا الرصاص" هز رأسه فى ذهول. "قتل عشرة رجال وجرح آخرون. توقفنا لنسترد قوتنا ونقرر ما نفعل، عندما أخذونا على حين غرة." مرة أخرى توقف عن الكلام فجأة، وكأنه يجد من الصعب أن يفهم ما شاهده بنفسه. "لديهم فئوس، وحجارة وعصى ومناجل وهراوات. ضربوا الرجال حتى الموت وقطعوا رءوسهم وهشموا جماجمهم إلى قطع صغيرة. رأيت البمباشى يموت".

لم يترك موت الضابط ذى الشارب أثرا يذكر على سعود. استنشق الهواء. "وأنت كيف استطعت الإفلات".

رفع الرجل بصره قائلا: "هرب القليل منا. لم يكن هناك حل آخر، الباقون ماتوا هناك". والتفت خلفه قائلا: " إنه مكان سيىء".

"يجب أن أقتلك رميا بالرصاص عقابا على جريمة الفرار" رد سعود بحدة مشمئزا، واستدار ليمشى ببطء فى اتجاه الدفة طالبا من الربان تغيير اتجاه المرساة. سيعودون مع اتجاه النهر إلى الخرطوم والحاكم العام. سمع همسات الرجال وهم يتحدثون عن اللعنات والتدخل الإلهى. شم رائحة الخرافات النتنة التى غطت السفينة الصغيرة كالضباب. بينما كان يقف قابضا على سور السفينة، كان الضوء يشير إلى الفجر. عض سعود بك شفتيه "الآن" تحدث إلى نفسه، "الآن هناك مشكلة".

٢- الجزيرة

١٨٨٢

بعد مضى كل هذه السنوات، هناك قليلون تعرفوا على الشبح النحيف المنحنى الذى يهتز على البغل الهزيل ذى العمود الفقرى البارز. دخل الحيوان مثل كيس من العظام الواهنة إلى مدينة الجزيرة الصغيرة جنوبى الخرطوم والتى تقع بين منحنى النيلين الأبيض والأزرق. أرجله النحيفة كانت تصطدم بعضها ببعض حتى أصابتها ندبات الجروح وتورمت، سال الدم على جلده الرمادى وترك ذيلا رفيعا من النقاط على التراب.

لا أحد ممن كانوا يسمعونه يتحدث عندما كان فى قمة نفوذه، حينما كان اسمه يذكر بهدوء ووقار، رآه قادما. والحكماء من الرجال الذين قد يتذكرون ذهنه المتقد ولسانه الحاد لا يراهم فى أى مكان. ولن يتعرف عليه أى شخص ممن عرفوه حينئذ فى هذه الحالة الرثة. وجناته الغائرة وعيناه الغائمة لا تشبه الثقة الجذابة التى كانت يوما تقترن باسمه. لا أحد من الذين كانوا يقدمون فتياتهم للزواج به، أو السيدات المتزوجات اللاتى كن يعرضن أنفسهن عليه عن جهل، كن ليلقين بأنفسهن تحت قدمى هذا الرجل المتقشف الآن. بالإضافة إلى أنه رفضهن جميعا وهذا صنع له أعداء؛ لأنه كم رجل يدعى أنه خذل هذا

العدد الكبير من البشر، ولأى سبب فعل ذلك سوى الغرور؟ لا يعيش الرجل دون صحبة امرأة، ولا حتى أنبل الشيوخ. ونظرا لأن القانون لا يمنع ذلك، فإن مثل هذا السلوك يرجع إلى التفاخر بالنفس، إلا إذا كان الرجل مجنونا. لماذا؟ كان من الممكن أن يجادل المرء على أساس أخلاقى أن مهمته أن يأوى هؤلاء النسوة بدلا من أن يتركهم فى عرض الطريق، أليس لديه قلب ينبض بالإحسان؟ ولكن الجدل الأخلاقى ليس مجالا يمكن أن يناقش فيه هذا الرجل الذى يمكن القول: إنه كرس حياته بأكملها للمبادئ المثالية.

ومثل كثيرين اختاروا أن يشقوا طريقهم وفقا للمثل العليا بدلا من تقبل طبيعة العالم كما هى، فجأة شرد بعيدا جدا. بدأ يشك فى الأفكار ذاتها التى كان يفترض أنه يدافع عنها، أن يتحدث عن رسالة ثانية خفية فى القرآن. ولكن هذا كان فى الماضى، ومن سيشك أن هذا الشبح القذر الآن يضمر مثل تلك الأفكار المتميزة؟ إن مجرد فكرة مصافحته باليد تثير الاشمئزاز، أما فيما يتعلق بمشاركته الطعام فمن الأفضل للمرء أن يشارك بغلا على أن يشاركه.

سيندهش الفضوليون إذا علموا أن هذا الرجل الذى يبدو كالشبح الغامض كان الناس يتحدثون عنه بود واحترام فى أروقة الأزهر الأسطورية فى القاهرة على سبيل المثال. حقا لقد كان ذكر اسمه هناك يؤدى إلى الابتسامات الحماسية ويثير حكاية بعد حكاية مشعلا وهج الجدل فى البلدان عبر البحر الأحمر وفى الأراضى المقدسة فى أقصى الشمال كالقدس وطرابلس وسميرنا وحلب والمدن التى زارها جميعا فى

سنوات المنفى الاختيارى الذى فرضه على نفسه. وصلت شهرته كل مركز بعيد للعلم كالقسطنطينية. وسمعوا به فى جبال فارس وسواحل المحيط الهندى الرطبة. ويتذكر التجار فى أسواق البصرة والموصل خطبه، مثلما يتذكرها الرعاة الذين يستظلون ببساتين البرتقال فى جبال الأطلس. يعدُّه الناس فى هذه البلدان صديقا. ماذا سيقولون إذا رأوه الآن بثيابه الممزقة المتربة المنتقاة من أخشن أنواع الكتان، وقطعة من الخيش القذر تغطى رأسه الصلعاء لحمايتها من شمس منتصف النهار؟ كم منهم سيحولون أبصارهم عنه ويتفادون رؤيته؟ لم تكن هذه القرية تختلف عن غيرها. الأطفال الذين يخشون الأغراب يقذفونه بالحجارة وكرات روث الماعز. النساء يلعنه ويسحبن الأطفال من طريقه. الرجال يتمايلون من الضحك والكلاب تنبح فى أعقاب البغل المرتبك شبه الميت. تنصب اللعنات وصيحات السخرية على الرجل الذى طالما أسعد الملوك بدهائه وحكمته، مثلما كانت تتبع أثره المتعرج إلى الأمام وإلى الخلف عبر الطرقات والمسالك المتناثرة التى قادته إلى هنا، الأثر الذى إذا اقتفيناه من أعلى، فلن يدل إلا على كلمة المطارد، الذى لا يتذكر معظم السكان اسمه، بدا قادرا على أن يجد الطريق، خلال مجموعة الجدران والأكواخ الطينية والراكوبات المائلة وأكواخ القش، مارا بالدجاج الذابل والماعز الباحث عن الطعام، إلى وجهته. وصل أخيرا، تحيطه مجموعة من الحمقى والأطفال الذين يضحكون، أمام أكبر منازل القرية وأفضلها. طليت البوابة باللون الأخضر والحوائط بيضت بالطباشير. وهنا، بدلا من أى من المنازل المتواضعة التى كان يستطيع اختيارها، قرر هذا المسافر أن يتوقف. وبدافع من التعجب والشك وقف الحشد يشاهد الموقف. انزلق

من على عجز البغل وزلت قدمه، ساقاه أصابهما الحذر من طول فترة الركوب، على كومة كبيرة من التراب مثيرا ضحكات الحاضرين. أصدر صوتا يشبه زمجرة الكلب ثم وقف على قدميه متألما، نفض الغبار عن ملابسه وسار فى اتجاه الباب.

الخادم الذى أجاب الطرقة كان رجلا ضئيل الحجم نامى العضلات، تلمع عيناه بنظرة متفحصة. ينظر إلى الحشد بحذر ويتفحص الرجل الغريب بازدراء. "من أنت؟".

سأله المسافر "لقد جئت لزيارة الشيخ رحمن، يا أخى ألا يزال هذا منزله".

هز الخادم رأسه. وأجاب مؤكدا: "السيد غير موجود بالمنزل".

لا شيء على وجه الأرض يدفعه إلى أن يقدم عذرا يثير الشفقة إلى هذا الحد إلى أى إنسان.

"من فضلك استدعه". أصر الغريب: "لقد جئت من سفر طويل". كان يتحدث بأسلوب يقترب من العناد؛ وهو أسلوب كان يؤتى ثماره مع بعض معارفه القدامى، ولكن هذا الخادم كان صغيرا جدا ليتذكره.

سوف أنتظره إذا لم يكن موجودا أكمل الغريب حديثه: "اعطنى كوبا من الماء ومكانا أجلس فيه".

لوح الخادم بيده "اذهب للتسول فى السوق، الله كريم" يستطيع أيضا أن يصمم. بدأ يغلق الباب ولكن الغريب تقدم إلى الأمام؛ ليضع قدمه فى الطريق حتى يمنع بقدمه ذلك. غمغم الحشد غاضبا.

"لقد طلبت كوبا من الماء" أوضح الغريب: "هل علمك سيدك أنه فقط من يرتدون الملابس الأنيقة سيذهبون إلى الجنة".

"أيها الرجل العجوز هل أنت أصم؟ لقد أخبرتك أن الشيخ غير موجود".

مسح المسافر العرق عن جبهته. خلف ظهره، شعر بالحشد يتزايد غضبه، وكأنهم يشكون أنه جاء لإثارة المشاكل. من الصعب أن نقول كيف تطورت الأمور؛ لأنه فى هذه اللحظة صدر صوت آمر من الداخل وتنفس الحشد الصعداء. انفتح الباب الخشبى نصف المقفول قليلا ومع حفيف قماش القطن النظيف ظهر الشيخ بنفسه ودودا كريم الطلعة هادئا واثقا بنفسه. وقف الرجلان وجها لوجه، كلاهما تغير بمرور السنين حتى ليصعب التعرف عليهما.

أحدهما رفيع المنزلة مطمئن والآخر متعب كقطعة خشب أتلفها مرور الزمن. ازداد تجعد جبهة الشيخ عمقا؛ لأن شيئا نشط ذاكرته.

سأله بعد دقيقة: "هل أنت متسول؟".

ولكن حينئذ صمت فجأة. انطلق حفيف الأشجار بفعل الريح. تراجع خطوة إلى الوراء "بحق الله! هل هذا أنت؟".

هاجم التعب والملل فجأة كتفى المسافر. والشمس تضغط على رأسه كالجلمود. قدماه احترقتا من سخونة الرمال. لوهلة أخذ يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف حتى تقدم الشيخ وعانقه." حاوى، هل هذا أنت حقا؟" كرر السؤال وكأن الواقع أصابه بصدمة.

أومأ إلى الحشد بالانصراف "هيا ابتعدوا" نادى عليهم: "رأيتم ما تريدون، الآن اذهبوا لأعمالكم". أطاعوا الأمر على مضض، ولم يبق سوى شخص أبله يقفز وحيدا، رأسه تميل جانبا ولسانه يتدلى إلى أن أخذ طفل يده المترنحة وقاده بعيدا برفق.

دخل حاوى المنزل ويد الشيخ على كتفه. قال الشيخ: "من فضلك. من فضلك ادخل. بيتى هو بيتك". صفق بيديه وأصدر الأوامر لخادمه بإحضار هذا وذاك، الماء والمرطبات. أسرع الخادم الخطى ورأسه خفيض. كان الفناء هادئا، أخضر وظليلا. هز نسيم رقيق الأوراق أعلى شجرة النيم وهى الشجرة الكبيرة التى تعلو المنزل المنخفض المبنى بالطوب. قنينتا ماء من الفخار تستقران فى ظلها، جانبيهما ترشحان بالماء. تتكوم سجادة طويلة على الحائط، ودون ذلك فالفناء خال. مدخل المنزل مفتوح ومن خلاله يمكن أن يرى المرء مستطيلا من الضوء من فناء صغير فى خلفية المنزل حيث يباشر الطهاة والخدم أعمالهم. يطير الحمام عاليا من برج طينى فى جانب المنزل؛ ليستقر على السقف يهدل بعضه لبعض بطريقته المثيرة المتكررة.

أوضح رحمن بخنوع تذكره الرجل الآخر بقليل من الكراهية "الشيخ سليمان، يرحمه الله، كان يحب الحمام". العالم فى الخارج، الطريق الطويل الساخن انتهى، الآن نسى حاوى حتى لماذا قام بهذه الرحلة هنا أساسا، ولذلك عندما سأله الشيخ رحمن عرضا ماذا يفعل فى هذه المنطقة، أجاب بإشارة من يده: "أمر بها فقط". لم يسأله الشيخ عن الأمر أكثر من ذلك. وبدلا من ذلك، جلس كلاهما فى الشرفة المرتفعة تحت

الظل بينما أحضر الخادم أباريق عصير المشمش وسلطانيات البندق والتمر والعسل. أمر رحمن الخادم بإعداد الحمام المشوى لغدائهم. سال لعاب حاوى على ذكر الطعام. لأسابيع طويلة كان يعيش على فطائر الجوراسا gorassa المحلاة غير الطازجة والماء الفاتر، أو أى شىء يقدمه له الناس. كان متعبا ولديه ولع بالحمام المشوى. استبعد تحفظه وابتسم فى استسلام.

رفع الشيخ نفسه مستندا على ذراعيه."إذن يا صديقى القديم ماذا كنت تفعل طوال تلك السنوات؟. لم يرك أو يسمع أخبارك أحد منذ وقت طويل. أين كنت؟".

ابتسم حاوى، وقضم تمرة أخرى. وقال: "هذا التمر لذيذ فعلا وهو يمسك بالنواة ويلقيها خلف ظهره". كتم الشيخ غضبه بهزة من كتفيه. أدار حاوى رأسه حول الفناء بخجل. "هذا مكان جميل". هزة كتف أخرى. "الله كريم حقا. لقد ظللت مع الشيخ سليمان حتى توفى. كانت رغبته الأخيرة أن أقيم بمنزله بعد وفاته".

"فليرحمه الله".

"لقد كان رجلا صالحا". صمت رحمن دقيقة، محركا حبات السبحة فى يديه. "لم ينسك قط. أحيانا كان يقول،" لقد رأيت وجها فى السوق اليوم ذكرنى فجأة بحاوى". حملق رحمن عاليا فوق الأشجار متذكرا أستاذهم العجوز. "قال مرة: إنه رآك فى حلمه فى مدينة كبيرة حيث الشوارع من الماء. ما أثار فضوله". ضحك الشيخ رحمن. "كان الأمر

محيرا؛ لأنه كما قال من بين كل الناس الذين عرفهم كنت الطفل الوحيد الذى لم يتعلم السباحة قط".

توقف حاوى عن المضغ متذكرا الرياح وهى تعصف بالمطر فى ساحة سان مارك فى فينيسيا. وكان رحمن يراقبه عن قرب بتركيز. "منذ متى غادرت؟ أربعة عشر، خمسة عشر، ستة عشر عاما. أومأ حاوى بالموافقة. ستة عشر، شهر رجب عام ١٢٨٣ هجريا. ستة عشر عاما".

أومأ الرجل الآخر ببطء. أطل من الشرفة على جمال منزله الطبيعى. واستدار لضيفه مكررا سؤاله: "وبعد مرور كل هذا الوقت ما الذى جعلك تعود الآن؟".

وصل الخادم فى هذه اللحظة بالحمام على صينية.

طلب منه الشيخ رحمن أن يضعه على المنضدة ويذهب. أسرع الخادم مبتعدا وهو يغمغم لنفسه بكلمات عن الظلم كان رحمن ينتظر الإجابة. بدأت نبرة اللطف المصطنعة فى صوته تضعف مقارنة بسخطه المتصاعد. حاوى مشغول بفحص دقة صنع منضدة صغيرة بين الأريكتين اللتين يجلسان عليهما.

وقف الشيخ الذى لا يطيق صبرا ومشى الهوينى إلى طرف الشرفة ثم عاد. وقال: "لقد غادرت البلد فى خزى، كانت حياتك فى خطر. ولحسن حظك أنك نجوت بحياتك" هز رأسه "لم تأت هنا بعد مرور كل هذا الوقت فقط للزيارة". تنحنح حاوى ونظر عاليا وهو يقول: "كنت فى القاهرة، وسمعت أن شيئا قد حدث. لا بد أنك تعرف، هذا الرجل الذى

يطلق على نفسه...المهدى(*). أردت...". لم يكن لديه الوقت ليكمل ما كان يقوله لأن الشيخ رحمن انفجر ضاحكا من قلبه برنين خيب ظن حاوى.. ماذا؟ كرر سؤاله، ونظرة استنكار على وجهه. "أتيت من أجل هذا؟.

"أنا..". استطرد حاوى مرتبكا."أنا..." ثم أرخى كتفيه.

"حقا، عدت لتجد هذا الأحمق، المحتال، هذا السوقى النذل؟ صاح رحمن واقفا وملوحا بيده فى الهواء فوق رأسه." كل هذه السنوات كنا نجلس ونتساءل ماذا حدث لصديقنا القديم؟ إذا كان لا يزال حيا؟" ذرع عالم الدين المكان جيئة وذهابا، وهو يحرك حبات السبحة بضيق بأصابعه. "لا خبر، لا خطاب أو رسالة قصيرة، لا شىء. وشيخنا المعلم، يرحمه الله، مات وهو يأمل أن تكون لديه فرصة واحدة أخرى؛ ليتحدث إلى تلميذه المفضل، أفضل تلميذ كان لديه على الإطلاق، الأكثر اجتهادا والأكثر ذكاء، فقط فرصة واحدة. ولكن لم يكن أحد يعلم أين أنت والآن، تأتى لهذا؟".

(*) هو محمد أحمد بن عبد الله، ولد فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٨٤٤ بجزيرة "لبب" بدنقلة بالسودان، وظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدية فى الثامنة والثلاثين من عمره فغير اسمه إلى محمد المهدى.

وفكرة المهدية باختصار مؤداها أن الله يرسل آخر الزمان رجلا يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ويقيم الدين حنيفا، ثم يأتى بعده الدجال، ثم يأتى عيسى بن مريم وتنتهى الدنيا. ويؤكد فى دعواه أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمره بالهجرة إلى "ماسة" بجبل "قدير"، ويطلق على أتباعه اسم "الأنصار". وأخطر ما فى دعواه أنه ينسب إلى الرسول قوله بأن من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله، فهو إذن يجعل الإيمان بالمهدية ركنا من أركان الإيمان فى الإسلام. (المراجع)

حدق حاوى فى الفضاء مشدوها، غير قادر على التفكير فى أى شىء ليقوله. خطا رحمن نحو المنضدة ودفع بصينية الحمام بيده. "كل" قال وهو يأمره. "على الأقل تعطينا شرف أكل ما صنع خصيصاً لك".

لعق حاوى شفتيه ومد يديه. قضم اللحم الأسود. طعمه طيب. انتزع قطعة صغيرة منه بأسنانه واستمر يمضغ.

"ربما ارتكبت خطأ بالتوقف هنا لزيارتك" تجرأ بالحديث بعد مرور بعض الوقت.

"إنه أحمق. قابلته مرة، وكذلك أنت، منذ سنوات".

فاجأت هذه المعلومة حاوى. فسأل بنبرة احترام جعلت رحمن يدير عينيه فى المكان يائسا "أنا قابلته؟". "أنا متأكد" واصل رحمن حديثه."مستغرقا فى أفكاره مثلما كنت سابقا، ولكن". صمت ليفكر فيما يقول، "بدون حصافتك". تقابلت عيناهما مع هذه الملحوظة وابتعدتا مرة أخرى. "جاء من دنقلة. كان والده بانى مراكب. هم ناس بسطاء، جهلاء. ما زالوا يدفنون بناتهم أحياء؛ لأنهم يريدون أولادا".

"قالوا: إنهم هزموا الأتراك".

"مجموعة صغيرة من الجنود ضربهم الفلاحون حتى الموت بالهراوات، كما أننى سمعت أن الجنود كانوا سكارى". هز رحمن رأسه."ليس نصرا عسكريا. يدعى أن الرسول أخبره بنفسه فى حلم أنه المهدى المنتظر وطلب منه أن يكون جيشا من المخلصين ويطرد الأتراك".

"ولكن إن لم يكن هذا صحيحا، فإنه درب من دروب الخيال".

تثاءب الشيخ."سيدفع الثمن في وقته".

"إذن تعتقد أنه دجال".

"إما دجال أو مجنون. إن الأمر يتطلب أكثر من قلة من الفلاحين بهراواتهم لهزيمة جيوش الخديوى المدربة. أين سيجد ما يكفى من الرجال والأسلحة؟ لا -". هز رحمن رأسه، "سيرسل الخديوى جيشا صغيرا وسيقطعون رأسه وتعود الأمور إلى طبيعتها".

عندما لم يعد لديه أى رغبة في تناول حمامة أخرى، أومأ حاوى برأسه: " أنت لا تصدق أن لديه الحق إذن فى مقاومة الأتراك".

"كل ما أعرفه أن له تأثيرا سيئا على المدارس" نقَّر رحمن بأصابعه على صدره. "علينا جميعا".

"ولكن إذا كان ذلك صحيحا"، واصل حاوى " فسوف يبدأ عهدا جديدا من التقوى والنقاء فى الأرض يطهرها من الفساد والباطل، كما يقول فى بياناته. لا أحد يستطيع أن يقول: إن الضرائب عادلة، وإن الناس ليسوا فقراء، بالطبع؟".

لوح رحمن بيده مشجعا." من فضلك لا تعطينى محاضرة فى الظلم، إنه أمر يثير الملل. لا يمكن أن يتساوى الجميع فى العالم. سوف ترى، سوف ينتهى الأمر إلى لا شيء".

بحث حاوى فى جيبه. "وجدت واحدة من هذه البيانات. إنها موجودة فى كل الأسواق. فمريدوه يعملون بجد".

جرى الشيخ رحمن بعينيه على الورقة الصفراء المطبوعة للبيان ثم مزقها إربا. استمر حاوى فى المضغ دون أن ينبس ببنت شفة. أمسك الشيخ الورقة المقطوعة. قال رحمن: "إذا قبض عليك الجنود ومعك هذه الورقة فسوف يشنقونك". وأضاف: "سأقع فى ورطة إذا وجدوا هذه الورقة معى".

"هناك دلالات معينة، علامات، سوف يميزها المرء إذا رآه وجها لوجه" ألح حاوى.

"لا" أجاب الشيخ بحدة رافضا الفكرة: "لا أحتاج إلى رؤيته. اسمع، لن آخذ منك دروسا بينما تأتى هائما على وجهك هنا كالكلب الضال بعد كل هذه السنوات".

"ولكنهم كانوا يستهزئون بالرسول فى البداية، كانوا يسمونه الدجال أيضا".

هز الشيخ رأسه قائلا: "لقد صدمتنى. أنت حقا لا تشعر بالخزى".

"هم أيضا رفضوا الاستماع" استمر حاوى فى حديثه.

"كفى!" صاح رحمن بعنف: "أعرف ما تريده وهذه هى الإجابة: لن أذهب معك. تريد أن تعرف الحقيقة إذن اذهب وابحث عن مهديك. اذهب إلى أبا وإلى جبال النوبة حيث يقود أتباعه بدرجة من الوقاحة جعلته يسمى رحلته هجرة، ويسمى أتباعه أنفسهم بالأنصار على اسم أتباع الرسول. يجب أن يشنقوا هذا الرجل كمرتد، كافر لإقدامه على مثل هذه الادعاءات، أنت تشبهه فى هذا الأمر على الأقل.

"اذهب إليه مهما كلفك الأمر، ولكن أيا كان ما ستفعله لا تصدر حكما على قدراتى. لقد كان الشيخ سليمان، أسكنه الله فسيح جناته يعاملك أفضل من ابنه. لقد توفى وهو يأمل أن تكون لديه فرصة أخيرة؛ ليتحدث إليك، وأحبك رغم أنه لم يفهم مطلقا أسبابك لهجر تعاليم الدين سعيا وراء أوهامك. أعنى جميع أحاديثك عن المعانى الخفية فى القرآن(*).

ارتجف رحمن ولمح حاوى مرة أخرى شخصية الرجل الذى كان يعرفه فى شبابه. " لم يغفر لك ذلك".

وقف حاوى وهو يلوى يديه المتشابكتين؛ لينظفهما. "لم آت إلى هنا لأجادلك يا صديقى القديم. جئت بحثا عن الحقيقة".

وأخيرا قال رحمن: "أنت صديقى ومرحبا بك دائما فى بيتى".

فقال حاوى: "شكرا لك".

كان رحمن يتفحصه بدقة. " أين تذهب من هنا؟".

"لست متأكدا. فكرت فى عباس".

تنهد رحمن. "إذا كان ما يزال حيا. فاذهب إليه مهما كلفك الأمر".

(*) وردت الجملة فى النص الأصلى **hidden meanings in the holy scriptures** (المراجع).

وضع يده على كتف حاوى ودله على الطريق. " ولكنك سوف تقضى الليلة هنا وعندما تصبح مستعدا للرحيل سنعطيك بغلا آخر، فالله يعلم، بغلك أقل نفعا من سجادة". صمت يبتسم على المزحة التى ألقاها ثم أضاف: "ندعو الله أن يهديك". ثم هز كتفيه وكأنه يسقط شالا عنهما وأسرع يخطو خارجا مكان الراكوبة وهو يقول: "الآن حان وقت الصلاة".

٣- السهول الغربية

يوليو ١٨٨٢

شم أحدهم رائحة المطر. لقد هطل المطر بغزارة وكأنه ستار رمادى فوق الأرض. كان الهواء رطبا ودافئا. شبكة ملقاة على كل الأشجار ذات الفروع الرفيعة، نسيج عنكبوت ضخم جعل الفروع تميل إلى الداخل. وعبر أشجار السنط القزمية وأشجار الزعرور الشوكية وشجيرة المسكيت mesquite bush المنخفضة الكثيفة كانوا يأتون كخطوط أقلام تتحرك مثل الأشباح العارية. رائحة لحم ميت تسبقهم - رائحة تجعل الغزال يفر من محمياته، وتبقى الكلاب فى أماكنها وتنزل الصقور من السماء؛ لتحط على الفروع المثنية لأشجار الدردار وتنتظر.

كانت الخيل طوال الليل منكسة رءوسها. قطرات المطر الأولى نزلت على هيئة فقاعات تنتفخ وتنفجر كالقروح. هى الساعة الفريدة بين بزوغ الفجر وبداية اليوم، و"كادارو" نائم وهو واقف. عندما انطلقت صيحة التوقف، لم يكن هناك أى تقدم حقيقى على الإطلاق. إلى الأمام "جوما" و"وهاب" مستغرقان فى خلاف، بعيدا جدا لدرجة أن أيا من الرجال لا يستطيع أن يسمع ما يقال، إلا أنهم ينظرون بتجهم وهم صامتون. "حتى البهائم التى خلقها الله عجماء لا تحبه" غمغم عبد التوم يوما

عندما رفس أحد بغال التحميل ساق جوما. إذا استل الرجلان حربتيهما وهاجم أحدهما الآخر لن يتدخل الجنود لمنعهما؛ لأنه من المؤكد سينتصر وهاب.

حوافر الخيل تصلصل بعصبية على الغطاء الصخرى للهضبة. الرجال يسيرون وهم نائمون كالأشباح، فهم يمضون لأكثر من شهرين الآن دون راحة حقيقية.

جاءوا يجرون أذيالهم، يتعثرون على بغالهم وجيادهم المرهقة تصاحبهم صلصلة كصلصلة القدور والأوعية المعدنية. رجال يرتدون أسمالا بالية وثيابا حقيرة. السرية التاسعة من الباش - بوزوك، فرسان الحاكم العام غير النظاميين، مجموعة متعددة الأجناس لا تتكيف مع المجتمع، ولم ينالهم من الازدراء مثلما ينالهم الآن. سلطة الخديوى تضعف وكذلك سلطتهم. وأينما يذهبون يبصق عليهم. إنه عام المذنب. حقول التبغ الصفراء جافة لدرجة أنه يمكن رؤية خيوط من الدخان تنبعث منها فى حرارة منتصف النهار. سيقان ذابلة وهزيلة. يجمعون قرون شجر السنط ويغلونها أياما طويلة قبل أن يأكلوها. حينما يأتون، دون سابق إنذار، يحمل الناس أطفالهم ويجرون، تسحب النساء بناتهن إلى الداخل بعيدا عن مرمى البصر، يقف الرجال فى صمت يستجمعون قواهم. لقد كانوا جنودا غير نظاميين بالاسم وبالطبيعة. فى بعض السنوات يأتون متأخرين، هذا العام أتوا مبكرين. فى كل قرية يصلون إليها يتكرر الأمر نفسه. يجمعون الفلاحين؛ ليشكلوا دائرة لتسجيل الأسماء وقائمة الممتلكات، معظمهم ليس لديهم ما يقدمونه. يتقدمون ورءوسهم منكسة حيث يعرفون أن جلدة الكرباج الثقيلة تنتظرهم فهى

ليست المرة الأولى. بعض السنوات يفيض بالخير وبعضها الآخر عجاف، وهكذا خلق الله العالم.

منذ عشرة أيام توفى الرائد "حنتوب" **Hantoub** فى قرية كهذه تقع إلى الشمال منها، بين الزغاوة. احتشد مجموعة من الرجال؛ ليعلنوا أنهم سيتحدثون بالنيابة عن الآخرين. قالوا: إنه لن تدفع ضرائب لخدمة الملحدين. حاول حنتوب إقناعهم.

وهنا حدث شيء غريب: أحد الرجال المنهمكين فى الجدل استل سكينا ببساطة من تحت ملابسه وغمده فى بطن الرائد. استغرق موت الرائد العجوز ساعات طويلة. شاهد كادارو تطور الأمر. عندما جاءت نهايته، كان الرائد يئن ويبكى، تلطخت ملابسه، والدم يزبد من فمه. لم يحاول المجرم الهرب، ولكن عندما اتجهوا إليه بدأ يصيح بالكلمات الدينية دلالات الإيمان. جوما هو الذى أطلق عليه الرصاص. جعله يجثو على ركبتيه ثم وضع البندقية على رأسه وقدح الزناد. انطلقت الكلاب مسرعة؛ لتلعق الجماجم المغلفة بالتراب.

"حتى بهائم الله العجماء لا تحبه" غمغم عبد التوم، متذكرا اليوم الذى تلقى فيه السانجاك رفسة من بغل تحميل. تساءل كادارو ماذا يعنى ذلك. لقد كان فى الثانية عشرة من عمره وهذه السرية هى أسرته الوحيدة. أخذ عبد التوم نفسا عميقا ووقف. "هذه جولتى الأخيرة. لقد كانت طويلة جدا، وخلفت الكثير جدا من القتلى".

"لم يكن الأمر بهذا السوء" قال الصبى بجرأة: "إذا كان حنتوب العجوز لا يزال هنا".

لم يبال عبد التوم بالصبى وقال: "عليك أن تحترس مع من تتكلم عن أشياء كهذه أيها الصبى. فقد يفطر جوما بكليتيك".

"ولكنك تعلم أنها الحقيقة".

أقسم عبد التوم مهمهما. "أحيانا أرى أنك لم تتعلم شيئا منذ جئت إلينا!".أدهش غضبه الصبى. "إن الحقيقة ليست لها علاقة مطلقا بأى شيء". ضرب الرجل العجوز بيده على جنبه. "أين سنكون جميعا إذا مضينا فى سرد الحقائق؟ سنموت".

هز كادارو كتفيه بلا مبالاة وحاول أن يبصق، فأفسد الأمر وسال لعابه على ذقنه. نظر بعيدا ومسحه بيده. وأطلق الرجل الآخر شخرة اشمئزاز.

أينما ذهبوا يتكرر الأمر: يشعر رجال الباش - بوزوك بكراهية الشعب الذى لا يغفر. يطلق عليهم النار ويبصق. كانت الآبار محكمة الإغلاق إلا أنها فى الوقت ذاته مسممة. عندما وصلوا أخيرا إلى ملجأ حصن الطيارة العسكرى، وجدوه قد سقط فى أيدى أنصار المهدى، ورايتهم السوداء التى تغطيها الكلمات الدينية ترفرف فى الخواء. أخذوا يشتمونهم "وكأننا لا نؤمن بالدين نفسه".

"كلنا مسلمون فليلعنهم الله". ماذا حدث للعالم حتى ليضطر الجنود إلى التسلل فى الظلام مثل اللصوص؟

لم يعد لديهم أى مكان يلجأون إليه. كانوا يعيشون على أى طعام يستطيعون تسوله أو سرقته أو الوصول إليه وهو ما يبقيهم على قيد الحياة. فكروا فى خلع زيهم الرسمى والعودة لقراهم وأسرهم "إنه أمر

سيئ" يهمسون عندما يتجمعون حول النار فى المساء. "هؤلاء المتعصبون منتشرون فى كل مكان".

"القول بأنهم متعصبون يشبه الادعاء بأن أمى داعرة".

"ربما هو فعلا المهدى - هل فكرت فى ذلك؟".

أى شخص يتكلم بصراحة فى هذا الموضوع يتعرض للجلد بالكرباج أو ما هو أسوأ.

كان وهاب يدور بينهم فى المساء طالبا منهم أن يكفوا عن الكلام. رجل عريض المنكبين يميز كل وجنة من وجنتيه خطان قاطعان. وجهه عريض وجلده كالجلد المدبوغ - سميك مثل جلد فرس النهر المرن الذى يتدلى من معصمه القوى. فالأمر واضح بالنسبة له أنه يحمى جنوده. فسانجاك جوما سيطلق الرصاص على أى شخص يخالف الأوامر فورا ودون تردد.

كانوا يخططون للدوران من ناحية الجنوب الشرقى ليصلوا إلى مدينة الأبيض. ولكن منذ ثلاثة أيام التقوا بقافلة تجارية، تنقل الزوجات والبضاعة إلى الشمال، أخبرتهم أن المدينة تحت الحصار. "ما الغرض" زمجر الرجال من الذهاب إلى هناك فى الوقت الذى سيتعرضون فيه لمذبحة. واستطاع وهاب بطريقة ما إقناع سانجاك أن أفضل خطة هى الانسحاب نحو الوسط - نحو النيل.

تركت أقدام الباش - بوزوك آثارها فى الطين. بعض الفرسان سحبوا البطاطين ليضعوها على جماجمهم بينما خلع آخرون ستراتهم وربطوها حول رءوسهم. هسهس المطر فوقهم، حاملا رائحة كمكمة،

وأنفاس طيور غارقة – لف الغابة الظلام وهو يفرق الرجال ويمنع انتظام صفوفهم. ترددت البغال وسقطت العصى على جنابها . نزل الرجال بفتور؛ ليمشوا عندما أصبحت الأشجار أكثر كثافة. استمر الركب أثناء الليل لا يجرؤ على التوقف. مروا بليلة أخرى دون نوم. تلازمهم رؤية للسماء تتوهج بالضوء فى جوف الليل البهيم: الجن ذو الذيل الفضى الذى ترك أثره على شبكية عين كل فرد منهم. الجنود لا يدركون شيئا عن المذنبات. اعتقدوا أن هذه العلامة ليست لهم، ولكنهم سمعوها الآن، تهمس بها حبات الرمال التى تزحف على الصخرة. يحسونها فى كل حزام سرج مكسور وكل جواد أصبح أعرج، كل عين مياه ممتلئة طوال الطريق. كانوا متعبين وبعيدين عن بيوتهم. تغيرت الأرض، حيث ترك المذنب ندبة لم يتحدث عنها أحد، إنها ترقد الآن جرداء بين الظلمة والضوء.

كان المهاجرون فى حالة يرثى لها. يرتدون أسمالا بالية، لا يقوون على الحركة. بدا وأنهم جلسوا على الرمال فى انتظار الموت. لديهم معزاة واحدة منهكة استنزفت حلبا. سحبت السيدات أغطية رءوسهم السوداء على وجوههم بينما السرية التى يقودها سانجاك جوما تأتى عبر السهل المتوهج فى سحابة من الغبار. ترنحت الخيل وشبت. انكمش المهاجرون معا فى دائرة مغلقة بينما الفرسان يجاهدون لتنتظم صفوفهم. حزم متعلقاتهم تبعثرت على الأرض. صرخ السانجاك بصوت أعلى من جلبة الخيل والرجال "وهاب!". "اسحب الرجال إلى الخلف ليشكلوا دائرة". بدأ وهاب يتنقل وهو يتنهد يضرب الخيل على أردافها

يمسك الجنود من أذرعهم، تارة صائحا وتارة ملاطفا حتى أصبحت السرية المبعثرة تشبه الدائرة إلى حد ما، على بعد معقول. وقف جوما في ركابه وتفحص النتيجة. أومأ بالموافقة وجلس. أدار جواده وتقدم حتى وصل إلى المهاجرين. "من الأكبر هنا؟ من المسئول؟" أشار ببندقيته "أنت تعال إلى هنا". رجل في العشرين أو الثلاثين من عمره تقدم. "من أين أتيتم؟استدار الرجل ورفع ذراعه وهو يشير نحو الأفق.

نظر جوما في اتجاه الصخور والتراب وسأله "أين تذهبون؟". الرجل الذى أسقط ذراعه، رفع الآن الذراع الأخرى وأشار في الاتجاه العكسي تماما. أومأ جوما برأسه، ودفع كعبي حذائه برفق في جنبي ركوبته واقترب أكثر، ثم رفع مقبض بندقيته وضرب الرجل بعنف على رأسه. فسقط الرجل على ركبتيه، ويداه تقبضان على أذنه اليسرى، قطرات من الدماء تسيل من بين أصابعه. زمجر جوما قائلا: "ترد على عندما أحدثك".

تقدمت سيدة تغطيها الأسمال السوداء البالية، وتبرز كاحليها من تحت أطراف ثوبها "لا يستطيع إجابتك بأى طريقة فقد قطعوا لسانه" وجذبت القماش من فوق عينيها التى لمعت فى ضوء الشمس. تحرك النسيم الناتج زاحفا نحو أطراف ثيابها. نظر إليها جوما اللحظة "من؟". "الجنود، اللصوص، هل هناك فرق؟ كلكم تشبهون بعض". تقف هناك ليست أقوى من غصن جاف، للتحدث إلى ضابط من الفرسان وكأنه بائع فول سوداني في السوق، "إنها ليست خائفة" فكر كادارو متعجبا. غمد جوما مقبض بندقيته في جسد المرأة: "بما أنهم قرروا أن يبقوا لسانك، ربما تستطيعين أن تخبريني. إلى أين تذهبون".

احتفظت المرأة برباطة جأشها، وأمسكت ضفائرها وأحكمت غطاء رأسها سننضم إلى المهدى، بناء على طلبه. استدارت نصف استدارة لتشير إلى أن الأمر ينطبق على المجموعة. "ليس لدينا أى ممتلكات، كل شيء أخذ منا، لكنه يقول: إنه يمكننا أن نصبح عائلته إذا انضممنا له فى الجبل المقدس **the holy mountain** .

شخر جوما، ضاحكا "ماذا، الجبل المقدس؟ هز رأسه مؤكدا "لم أسمع بوضوح، ما هذا الجبل المقدس يا أختاه؟".

أوضحت المرأة بصبر: "لقد أطلق المهدى اسم ماسة **Massa** على الجبل، مثلما اعتاد الرسول محمد. لقد طلب منه الرسول نفسه أن يقوم بذلك" أضافت بإيماءة اقتناع تام "فى حلم".

"حسنا" قال جوما وهو يميل إلى الأمام "كل هذا جميل جدا، جبلكم المقدس وكل شيء، ولكنكم بعيدون جدا عن أى مكان وربما تلقون حتفكم هنا".

"إذا كنا سنموت فهذه إرادة الله. وإلا سيؤمن وصولنا إلى الجبل حيث نستطيع أن ننضم إلى المهدى".

هز جوما رأسه "لن تصلوا إلى أى مكان. ستموتون هنا مثل الكلاب تحت الشمس. انظروا إلى أنفسكم" ضحك متعجبا "ليس لديكم بغال أو خيل أو إبل، فقط هذا الكلب الذى يبدو ميتا أكثر منه حيا".

"هذه معزاة" صوبت المرأة الخطأ.

"يمكنكم أن تحصلوا على لبن أكثر من كلب". استدار جوما ليرى إذا كان الرجال قد أعجبتهم مزحته، ولكن أسر المهاجرون قلوب الرجال، وحط على السرية سكون الدهشة.

"الله سيهدينا ويرعانا" كررت المرأة جملتها.

اقترب جوما أكثر "هل تعلمين من نحن؟".

للوهلة الأولى عبرت نظرة اهتمام وجه المرأة المنهك. ارتعدت شفتاها وهى تلقى نظرة أخرى على الجنود بمجموعة أزيائهم وأسلحتهم الغريبة. وهمست "باش - بوزوك".

ابتسم جوما ابتسامة خفيفة. رفع صوته متحدثا إلى الآخرين فى المجموعة الصغيرة. "كم منكم سيحارب إلى جانب هذا المهدى الذى تتبعونه؟ كم منكم سينضم إلى الدراويش من أجل أن يقتل جنودا مثلنا؟" وجوه الرجال والنساء، كبار السن والأطفال، تحملق متجهمة فى وجهه.

فى هذه اللحظة حدث شئ غير متوقع. جندى شاب اسمه رازق جبان ولكن قلبه طيب، نزل من على صهوة جواده واتجه إلى المجموعة البائسة. يحمل كيسا صغيرا به كل ما لديه من طعام: بعض الخبز غير الطازج، حفنات قليلة من الدقيق، وبعض التمر الجاف. وضع الكيس أمام المهاجرين. لم يكد يتوقف ليفكر فى نتيجة ما يفعله.

إنه مجرد شىء كان يجب أن يحدث. نظر كادارو إلى وهاب وشاهد الرجل العجوز ينظر بعيدا، وهو يهمهم إلى نفسه ويتنهد. جوما يشاهد الأمر كله وهو غير مصدق.

زمجر "أيها الجندى". توقف رازق فى منتصف المسافة واستدار بنظرة دهشة حقيقية. "أيها الجندى ما الذى تظن أنك تفعله؟".

أومأ رازق بيديه الفارغتين فى اتجاه المهاجرين ثم هز كتفيه. استدار لينظر إلى صف الجنود والخيل. دفع جوما بنفسه فجأة إلى الأمام وضرب رازق فى ظهره بكل قوته؛ ليقع على الأرض ووجهه فى التراب.

كل ما حول كادارو من اليسار إلى اليمين يجعله يشعر بالتوتر المتزايد. نزل جوما على الأرض وبدأ يضرب رازق على رأسه وصدره بحزام سرج جواده. المهاجرون ينظرون فى ذهول. وهاب نزل من على صهوة جواده وهو يتحرك ببطء. "سيدى" بدأ يتحدث، أعتقد أن هذا يكفى".

دار حوله السانجاك بعينيه الحمراوين ووجهه الذى يشبه الرعد "هذا الرجل ارتكب جريمة إطعام العدو. أعد ذلك خيانة ألا توافقنى؟".

نظر وهاب بعيدا دون أن ينطق بكلمة. أشار جوما إلى أقرب رجلين منه: الأصم ورجل عجوز. "سنجعل من هؤلاء الناس مثلا لمن يتبع هذا المجنون. أيها الرقيب، ارسل رجلين لإحضار بعض الخشب".

انطلق جنديان فى اتجاه الأشجار. وقف الجميع فى وسط الغبار منتظرين، بينما ارتفعت الشمس فى السماء. عندما عادا الرجلان بالأخشاب، كونوا صليبين كبيرين، بشكل عشوائى وغير منتظم مثل شجرتين مشوهتين فى وسط السهل الرملى. ثبتوا للعجوز والأصم من

أيديهم بالمسامير وأقدامهما وخصريهما مربوطان إلى الأوتاد بالحبال؛ لتحمل جزءا من ثقلهما حتى لا تمزق المسامير جسديهما. النساء تعول وتصرخ ولكن جوما لا يلين. "دعوهم يدخلون الجنة موثقين بصلبان غير المؤمنين بالإسلام. ليصبح هذا درسا لكم جميعا. هذا المهدى الذى تتبعونه ليس سوى أحمق حقير".

فى هذه اللحظة تقدم طفل صغير تلمع عيناه البنيتان مثل برك المطر، من خلف سرب السيدات المقرفصات على الأرض يشبهن الغربان. ووقف أمام جوما. لم يكن عمره يتعد السنوات التسع. رفع إصبعه."لا إله إلا الله محمد رسول الله، محمد أحمد هو المبعوث الذى سوف ينقذنا من طغيان الأتراك وغرورهم. أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة الله لا بالبنادق ولا بأى نوع من السيوف".

كان الجنود يبتسمون - للجرأة، لنبرة الإيمان الواضحة فى صوت الولد. يعجبون بالشجاعة عندما يصادفونها. دوت طلقة وحيدة وكاملة، انطلقت فى ثانية. انهار الصبى على الأرض وسال دمه على الرمال. تقدم وهاب ومد يده يحاول اللحاق بالصبى، ولكن بعد فوات الأوان. استدار وهو غير مصدق وجوما الذى لا بد أنه قرأ المكتوب بوضوح فى عينى الرجل النبيل تراجع ورفع مسدسه مرة أخرى. لم ينطق أحد، وحتى لوهلة لم يتنفس أحد. ثم دوت طلقة بندقية وانكسرت اللحظة. جوما يرقد على الأرض وهو يركل، ويتلوى ويلعن متألما. انحنى وهاب واسترد بهدوء المسدس الذى سقط. صرخ جوما مستهجنا الفوضى وطالبا العودة إلى النظام، ولكن لم يعبأ به أحد.لقد حسم الأمر دون كلمة.

"ادفنى ابنك" قال وهاب للمرأة: "وادفنيه جيدا" استدار للجنود وهو يشير إلى الرجلين الموثقين إلى الصليبين وقال: "حرروهما من قيودهما. رازق اجمع ما تستطيع من زملائك الآخرين واعطه لهؤلاء الناس. كل ما يفيض عن حاجتنا". شق طريقه بين الرجال الذين بدءوا يتحركون الآن، وكأنهم يفيقون من إغماءة. "جهز حمالة بالبطاطين وألواح الخشب للسانجاك".

اقترب من الجندى الذى أطلق النار على جوما قائلا: "ما قمت به عمل أحمق، أيها الرجل العجوز".

لم يقل عبد التوم شيئا عندما رفع وهاب البندقية برفق من بين يديه. امتطى وهاب جواده وخاطب الجمع: "اتجهوا من هنا إلى الجنوب وإذا حالفكم الحظ ستقطعون مسافة كبيرة بحلول المساء. من هناك سيأخذكم الطريق إلى بارة حيث ستجدون ما تبحثون عنه".

لم يقل المهاجرون شيئا ولكنهم أخذوا يحملقون وكأنهم لا يصدقون ما يحدث."صحيح" قالت السيدة التى كانت تتحدث مع جوما: "هناك معجزة فى هذه الأرض. فليباركك الله ويهديك". صاحت بفرحة. أطلق العنان لجواده دون صبر. وقال: "اعطهم بغلا"، "ثم دعنا نخرج من هذا المكان الملعون".

وبجوما مربوطا إلى النقالة المؤقتة والرجال يتعقبون فى صف غير منتظم، اتجه الطابور شرقا. حاول جوما أن يرفع نفسه لوضع الجلوس ثم سقط فاقدا الوعى وهو يلعن.

٤- الخرطوم

يوليو ١٨٨٣

نفشت الطواويس ريش ذيولها مثل السيدات الجميلات يقمن بجولة فى لعبة البريدج بعد العشاء. تتبختر بريشها الأزرق والأخضر الرائع بين أقواس الشرفة الحجرية، تقوم بجولات طويلة وكأنها لا تتأثر بالتراب وطلقات البنادق.

فزعت فجأة وقفزت من الطريق وأرجلها تتزحلق على الأرض الرخامية وهى تختفى، هاربة بالكاد من تيار التبغ الكريه الرائحة الذى بثه "مدنى" طباخ القصر العجوز فى اتجاههم. أشيع عنه أنه أكثر رجل يثق به الحاكم العام. رجل عجوز نكد المزاج تميز وجهه ندبات البرابرة وشارب منتصب كالأسلاك الفولاذية.

أطلقت الطواويس العنان لغضبها بين جلبة الدجاج الذى يقطن فناء سراى الحاكم، مثيرا الريش والتراب فى الهواء، ومطلقا صيحة ذعر. ارتجفت الطواويس وواصلت تبخترها فى ضوء الشمس.

فى الظل النيلى للسور فى الجانب البعيد لفناء القصر، تثاءب جندى واستند إلى عربة بنادق. تأتى عبر السور المحيط أصوات بائعى الأرصفة

والباعة المتجولين، الصبية يسوقون قطعان أغنامهم إلى السوق، الفلاحون بسيقانهم المقوسة يعانون حاملين الأكياس الثقيلة التى يبرز منها الباذنجان، والخيار الملتوى والفلفل الأحمر اللامع، التجار يعدون نقودهم المعدنية، ويتحدثون بكسل عن المستقبل. بالنسبة لأهل المدينة فإن ذهاب الجنود وإيابهم يحمل فقط شهادة على موقفهم الآمن. يكادون لا يعيرون اهتماما للشائعات عن المناوشات أقصى الغرب.

عبر مدنى المدخل ذا الأقواس الذى يشق المبنى الطويل ويطل على منظر جميل للنيل بعد مبنى السراى البسيط هناك ضفاف منحدرة وصفٌ من النخيل والسعف الطويل مثل الحيتان الخضراء التى تحاول الوصول إلى دوامات الماء. فى مكان ما من الحقول حمار ينهق وينهق كريه الرائحة وساخط. يطن النيل بهدوء تحت الحوائط المدهونة بالطلاء والتى يخطها الآن الصدأ من الأمطار السابقة وكأنها جذوع شجرة غريبة تحاول أن تخترق الطوب والأسمنت. فى حجرة استقبال الحاكم العام، قطع قدوم مدنى لحظة صمت طويلة. كان يحمل صينية فضية ترقد عليها مجموعة مختارة من فطائره الرائعة. خلفه كوكبة من الصبية الصغار يرتدون أزياء بيضاء قطنية وقفازات، وعلى رءوسهم طرابيش خضراء اللون، يتبعونه وهم يحملون الشاى. دائما يقدم مدنى فطائره بنفسه، رغم الاشمئزاز الذى قد يثيره مظهره غير المهندم أحيانا لضيوف الحاكم العام. شهرته بالمهارة فى إعداد الفطائر رغم ذلك كانت كافية لتهدئة قلق الجميع، ما عدا الأكثر عصبية، وهم ببساطة لا يستحقون تذوقها. لماذا؟ إنه لشرف أن يقدمها الرجل بنفسه. فقد وصلت أقاويل عن

مهاراته فى الطبخ إلى القاهرة ودمشق. وصفاته السرية، لم يكن يثق أن يحملها الصبية، غير البارعين من المطبخ؛ خشية أن يجرؤ أحدهم على التهام قليل منها فى طريقهم إلى الدور العلوى.

عندما دخل مدنى الحجرة، تجاهل الضباط الجالسين تحت اللوحات المطرزة والصور الزيتية الرائعة التى تزين الحوائط واتجه إلى الحاكم العام نفسه. قدم الأطباق بانحناءة قصيرة، ووضع الصينية على منضدة منخفضة بين الكولونيل هيكس والجنرال الشركسى الذى يشبه سحلية عجوز والذى كان يتكئ على الأريكة المقابلة. الحاكم العام الذى كان فى الماضى لديه هيكل عضلى قوى ضعف الآن مع تقدم العمر وتوقف التدريب، داعب شاربه بإصبعه بينما يده الأخرى تنقر على سطح المكتب المصنوع من خشب الساج. رؤية الفطائر كانت تشبه رؤية عين ماء بالنسبة لجمل عطشان، فالحقيقة أن "علاء الدين باشا صديق" كان قد أصيب بالملل. اعتدل مدنى فى وقفته وحيا الحضور متباهيا -بنوع من السخرية لم يلاحظها أى من القادة العسكريين- ثم استدار وغادر الحجرة.

انتبه الحاكم العام إلى هذا التمرد وفكر سريعا فى حقيقة أن مهمته هنا توفر له لحظات قليلة جدا من المتعة الحقيقية. لاحظ أيضا أن هيكس ينقر بسوطه على ركبتيه بطريقة تدعو للضيق حتى يجذب انتباهه؛ لأنه لا يعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لشرب الشاى: هذا النقر يأتى عادة قبل التعليق الظريف. ويعتقد علاء الدين أنه لن يفهم الإنجليز جيدا أبدا، ولا بعد ألف عام. وقرر أنه حان الوقت ليتدخل، وقف ورسم على وجهه أكثر

الابتسامات جاذبية، فقد كان في الحقيقة قادرا على أن يصبح جذابا جدا، نبههم إلى المرطبات. "أيها السادة من فضلكم: الشاي".

أشار بطرقعة من أصابعه للصبية بالتقديم.

بدا الضباط مترددين، ولكن رنين البورسلين وخرخرة الشاي وهو يسكب أعطاهم إحساسا بالرضا. مسد كثيرون منهم شواربهم. إيفانز وفوريستير ولكر اللذان عادا للتو من التدريب العسكري كما توقع الحاكم العام أول من تقدم لتناول كوب من الشاي. لقد كان على حق.

أحد الحضور ضابط شاب نقيب حليق الشعر تماما يبدو صغيرا جدا على رتبته. صغيرا على أن يترك أمه، يفكر علاء الدين في لحظة ضعف. عيناه الخضراوان تريان ذلك الضوء المنعكس من النهر الذي يملأ الشرفة المفتوحة بطريقة رومانسية. اسمه هاميلتون إلزورث وعمله متعلق بالمخابرات، نقل من القاهرة وعين للعمل مع المقدم ستيوارت، بعيدا عن التكوين الرئيسي للحملة العسكرية رغم أنه سافر معهم. ويبدو أن هذه المهمة الخاصة تناسب ميله إلى العزلة. لم يبد قط أنه لاحظ الشاي فقد كان يحملق في النافذة بنظرة زجاجية. علاء الدين باشا يتجول في الحجرة كمضيف بارع أشعل لنفسه سيجارة وأومأ للخادم الصبي "الشاي، أيها النقيب. لا يجب أن تقلل من حاجة الجسم لمشروب منعش في هذا المناخ". وثب إلزورث وكأنه لدغ، فسقطت قبعته. كتم الحاكم ابتسامته واستدار فاحصا الحجرة، محاولا أن يعد كم سيبقى من فطائر مدني بعد أن ينتهي الضباط من الطعام. كان السوري، الشركسي العجوز، أكبر مشكلة، فلديه سلوك حصان التحميل حيث أخذ يتناول فطيرة ثالثة بالفعل. يغطي سترته الفستق وفتات الفطيرة. مسح

أصابعه اللزجة دون خجل فى الأريكة. على الأقل لقد ذاب الجليد. كان الرائد مارتن يناقش أوجه التدريب العسكرى اليوم ويتباحث مع النقيبين الآخرين حول البنادق الرشاشة نوردنفيلت التى يبدو أنها تمثل مشكلة للمجندين المصريين. نبرة أصواتهم تضغط إلى حد ما على أعصاب علاء الدين فيلعن الإهانة التى لحقت بهم لوجود الإنجليز هنا بشكل عام. لقد تسبب عرابى والشغب فى الإسكندرية فى إعطائهم العذر ليقوموا بتولى المسئولية. منذ أن نزلوا فى التل الكبير وهناك نوع من العبثية فى اتخاذ خطوات.

هيكس هذا مثلا، لم يكن يعرف شيئا عن المنطقة وليس لديه خبرة وكان على وشك تكوين جيش من الفلاحين أنفسهم الذين كانوا يقاتلون إلى جانب عرابى فى الثورة. ما الحكمة فى ذلك؟ ابتسم علاء الدين وأومأ إلى الضباط ليتناولوا بأنفسهم فطائر مدنى. من ناحية أخرى، فإن إرسال مجموعة متمردين لقمع تمرد آخر يحمل نوعا من الزهو والغرور، عليه أن يعترف بذلك. فإرسال الجنود البريطانيين بلا شك، مكلف وخطر جدا. إن الأمر كان دائما يسير على هذا النحو، أليس كذلك؟ كان لدى الكولونيل هيكس رأى. عندما يرحلون من العاصمة ويتجهون إلى الجنوب الغربى إلى كردفان أى شىء ممكن أن يحدث فى الواقع. "باستثناء وسائل النقل الإضافية والإمدادات فى الطريق، سوف يكون لدى حسب تقديرى قوة محاربة تصل إلى أقل من ثلاثة آلاف جندى. هذا المهدى الذى لديكم معه سبعة أضعاف هذا العدد من الرجال". صمت وحرك أصابعه وكأنها تزيل فتيتة من الخبز عن ذقنه."فرق لا يثير الإعجاب، ألا توافقنى؟".

أومأ الحاكم العام موافقا عندما سمع هذا التوبيخ. فهو يعرف هذه الشخصيات. كما علم أن هيكس نقل رؤاه إلى القنصل البريطانى فى القاهرة، وأن الأخبار جاءت من لندن أن لورد جرانفيل لن يجرؤ أن يطلب من دافعى الضرائب البريطانيين تمويل عملية مثل هذه. إذا حدث ونقلت أية إمدادات عسكرية سوف لا يقترب الرقم أبدا من عشرة آلاف جندى وهو ما يطلبه هيكس. وهناك مشكلة فورية تواجه كولونيل هيكس الآن، كما لاحظ علاء الدين باشا: سليمان السورى الذى كان يأكل الفطائر. توقف كولونيل ويليام هيكس عن النقر بالسوط على ساقه. والآن يجلس محملقا ويداه معقودتان عند النافذة المفتوحة ربما يحاول أن ينقل إحساسه بأن طلبه ملح. جلس الحاكم العام خلف مكتبه ينفث دخان سيجارته بعيدا. لقد خطرت له الآن خطة، ولكنها ستستغرق بعض الوقت فى الإعداد.

عقد أصابعه معا على المكتب وابتسم. "أعتقد يا كولونيل أن التدريب العسكرى يحسن قدرة الرجال".

شخر الكولونيل مندهشا "يحسن؟ بصعوبة. هذه الغوغاء لن تصنع قوة محاربة جيدة. ربما مقبولة فقط فى أفضل الأحوال، وفى حالتنا يجب أن نتأكد من ذلك". تشبث بجانبى المقعد وهو ينتف ذقنه الصغير.

"عندما نخرج إلى هذه الرقعة التى هجرها الله من الغبار، هؤلاء التافهون الصغار ربما سيشغلهم شق حناجرنا عن ملاحظة العدو. إنهم لا يعرفون البلاد أفضل من الملكة فيكتوريا. وأنا شخصيا أفضل الاعتماد على مساعدتها رغم ذلك، أكثر من الاعتماد عليهم". من الواضح

أن الأمور كانت مختلفة جدا بالنسبة للكولونيل عندما خدم فى الجيش الهندى. أعاد علاء الدين باشا النظر فى الموضوع. إن سليمان نيازى هو القائد العام الرسمى هنا، هيكس يلى نيازى كرئيس للأركان. هذا فى حد ذاته كاف ليؤدى إلى العداء بينهما. ألقى الباشا نظرة خاطفة على الشركسى العجوز الذى يشعر نحوه بدرجة من التعاطف بل الحب ليس فقط لأنه يذكره لسبب غير مبرر بجده، ولكن أيضا لأن الشيخوخة ستأتى إلينا جميعا بطريقة حتمية، إذا أسعدنا الحظ بالحياة. ولكن جواد الحرب العجوز كان يغط بهدوء فى نوم عميق، غافل عن السخط الذى يدور حوله. بعينيه نصف المغلقتين يبدو أن أم أربعة وأربعين طويلة وذات فرو أبيض تزحف على جبينه. ضرب الحاكم العام ذبابة بعنف؛ ليبعدها عن وجهه. منذ أن تولى منصبه منذ ستة أشهر، لم يعرف إلا الإحباط. مقيد اليدين لا يستطيع التصرف؛ بسبب ديون الخديوى للبريطانيين التى تضعف سلطته، ونقص المعلومات الأساسية لديه عن الأراضى فى الغرب التى يتحصن بها المهدى. يتقدم خط النيل ملتويا على الخريطة من القاهرة وينتهى فى خرطوم الفيل الذى اشتقت منه الخرطوم اسمها. خط النيل الأزرق يلف شرقا وجنوبا بينما يتدفق النيل الأبيض مستقيما إلى أسفل، أبعد من شكل جزيرة أبا الذى لا يعوق تدفقه، ليختفى فى مستنقعات نبات البردى فى السد. قام علاء الدين باشا من مقعده وعبر الحجرة. إصبعه يرسم خطا: إلى الجنوب الغربى فى منطقة كردفان، ملتفا حول جبال النوبة إلى مدينة الأبيض، مركز مشكلتهم الصغيرة. مسافة حوالى مائتى ميل مثلما يطير الغراب. تجويف الأرض شرق النهر تترك الهزائم ندباتها عليه، والتى تمتد حتى قصور دارفور. استدار

لضيوفه. "أيها السادة، لدى اقتراح، مجرد فكرة". رسم إصبعه دائرة حول المنطقة التى تقع جنوب العاصمة مباشرة: الجزيرة، أرض خصبة يحدها النيلان الأزرق والأبيض من الشرق والغرب. "ربما علينا الاهتمام بشكل أكثر جدية باقتراح لورد جرانفيل وأن نقصر جهودنا على أرض الجزيرة؟". كان موقف هيكس واضحا ضد الفكرة. "يجب أن نذهب إلى رأس الأفعى ونقطعها من دابرها. قدم الحاكم أسباب خطته: المسافة المطلوبة قطعها، صعوبة المنطقة، هناك سلسلة من التمرد فى منطقة الجزيرة فى العام الأخير. وبغض النظر عن كل ذلك، فإن الطريق الطويل إلى كردفان ليس أكثر الخطط حكمة. ولكن اقتراحه تم رفضه.

واصل هيكس حديثه قائلا: "أنا لا أشك أنه رغم أن المهدى ربما لا يجرؤ على مهاجمتنا اليوم، فذكرى الصعاب التى واجهوها فى رحلتهم عبر الصحراء من البحر الأحمر كانت لا تزال حية فى ذاكرة البريطانيين، فمن المؤكد أنه سيغير رأيه". وقف هيكس وبدأ يداعب لحيته. "منذ سقوط الأبيض ليس لدى شك فى أنه ينوى أن يواصل رحلته حتى يواجه نده. ولذلك فمن الضرورى أن نخرج ونهزمه شر هزيمة".

همهمات "عظيم عظيم" صدرت من الضباط الصغار فى نهاية الحجرة. "المتعصبون دينيا" واصل هيكس حديثه وهو يخطو، "لا يمكن مجادلتهم، ولكن الخوف من الله يسكنهم". ضحك ضحكة خفيفة. "اغفروا لى مزحتى".

تساءل الحاكم إذا غفر أى شخص للكولونيل مزحاته المبتكرة، يبدو أنه أمر بعيد الحدوث. إجابته رغم ذلك كانت غير مشجعة. مدينة

الخرطوم محصنة ويمكن الدفاع عنها لشهور طويلة، حينئذ تكون الحماسة قد زالت. سيفتقد أتباع المهدى أسرهم وبيوتهم ويملون الحرب لدرجة أن يكفوا عنها ويرحلوا. والمغامرة داخل كردفان الآن تبدو مخاطرة غير ضرورية.

كان الشركسى العجوز لا يزال يشخر. يتقلب على الأريكة محاولا أن يأخذ وضعا أكثر راحة، وهو يخشى أن يجرح نفسه أو أى شخص آخر بالسيف الذى يصر على حمله دائما. ضجت الحجرة بفرقعة ناتجة عن تسرب غاز، تبعتها رائحة تشبه رائحة مستنقع تعفن فى الحرارة بعد هطول مطر غزير. انطلقت ضحكة مكتومة من شباب الضباط. تحسر علاء الدين. انفتحت العينان ذات الجفون العجوز وتوهجتا، لحسن الحظ، عندما وقعتا على صينية الفطائر. "آه" تنفس سليمان نيازى بأسلوب مشابه لمرضى الأزمات الصدرية "الشاى". وجهه كان بلون مقبض بندقية قديمة من الخشب. تنحنح بصوت عال وبصق على الطبق النحاسى الموجود على الأرض. واستطاع أن يتجنب حذاءه ذا الرقبة العالية الخاص بالفروسية. اكتفى كولونيل هيكس بما رآه. قفز واقفا وألقى التحية على الجميع وخرج من الحجرة. لم ينزعج الشركسى العجوز وتناول الفطيرة الأخيرة وهو يرتشف من كوب الشاى بصوت مرتفع. "سيلحق بنفسه الإهانة إذا ظل يتصرف على هذا النحو".

"إنه يجد نفسه فى موقف لا يحتمل" علق علاء الدين وهو يتحرك نحو الشباك؛ ليحملق فى الأعمال الهادئة التى يقوم بها الصيادون والفلاحون فى الحقول. كان النهر سرمديا وجميلا. تعلم أن يحبه، مجرى

النهر بعيد عن هنا، حيث كان هذا المكان يبدو كالسلف البعيد، كقريب منسى، تاه فى ضباب الوقت. الذين فى القاهرة ليس لديهم فكرة عما يواجهونه هم هنا. يستغرق المرء وقتا ليعرف هذه الأرض، وليحبها، ولكن لها جمالها: السحر البكر للطبيعة نفسها، شىء نادر ولم تفسده يد إنسان. لا عجب أن ينشر الناس أجنحة خيالهم، لا عجب أن يوجد عرافون ومجانين ودراويش وأنبياء. إذا كان للمهدى أن يظهر على الأرض، لم يكن ليجد مكانا أفضل من هذا. استدار الحاكم العام نحو القائد العام "سيدى لقد أقترحت أن يتم نقلك إلى الساحل الشرقى" أخبره برقة.

"سواكن" رفع قبعته الفرو البيضاء. هز علاء الدين كتفيه مستهجنا يداه خلف ظهره. "إذا كانت هناك أية فرصة أن نكسب فى هذه الحملة العسكرية يجب أن أكسب تعاون كولونيل هيكس وثقته بشكل كامل". أوضح "إنه لا يحب أن يخدم تحت قيادتك".

تنفس المحارب الشركسى الصعداء ووضع فنجانه. "إنه حمار متغطرس. خطر على رجاله؛ لأنه يعتقد أن القيادة تعنى الحديث بصوت عال، بدلا من الاستماع". وقف يترنح على قدميه "هل تعلم أننى سمعت أنه فى الهند اعتاد البريطانيون أن يغطوا طلقات الرصاص بدهون الخنزير ليرغبوا المسلمين. اسأل كولونيل هيكس ماذا يعرف عن ذلك". رفع إصبعه بأسلوب من لا يعرف الأمر. "إذا كانت هذه هى الحرب الحديثة، استمروا أنتم فيها. أما أنا فأفضل أن أموت بشرف بين أحضان غانية عجوز". وهنا خرج من الحجرة، وهو يشير إلى الحارس

الصامت ذى الوجه الحجرى الذى يتبعه فى كل مكان. "ارسلنى إلى الساحل" استدار ملوحا بيده "أنا فى حاجة إلى هواء البحر المنعش. هذا المكان رائحته عفنة هذه الأيام".

ابتسم علاء الدين باشا صديق لنفسه. سيفتقد العجوز المتهالك. ولكن السؤال حقا هو هل سيصبح ذا نفع أو سيصبح عبئا ثقيلا على كردفان، فحقائق الوضع تحبذ وجود هيكس. سليمان مجرد رمز تم إرساله من القاهرة ليعدل الميزان. مد يده فى الصندوق المصنوع من خشب الصندل المطعم بعرق اللؤلؤ وسحب سيجارة تركية أخرى.

كانت العلامات غامضة مع ازدياد العصبيات القبلية والإيمان بالخرافات، هناك شيء مقلق فى أمر هذا المهدى ودعوته للعودة إلى العصر الذهبى للإسلام. وسواء كان صادقا أم لا، فكلماته تحمل جزءا من الحقيقة. إن بطن إمبراطورية محمد على باشا قد ترهلت. حينما دعا المهدى إلى استبدال الباطل بالتقوى لمس وترا حساسا. هناك شئ يجب أن يتغير.

حينما نظر من النافذة على هدوء النهر، إلى أبعد من العلم الأحمر الذى يرفرف على الباخرة التى ترسو أسفل، رأى مركبا صغيرا ينحرف دون هدف، حسبما يحمله التيار. رفع رجل يده ولوح لشخص، على ضفة النهر يمكنه أن يسمع صوت الريح من خلال النخيل، أصوات تتحدث فى السوق كالعادة بالألغاز والإشاعات، وأنين الساقية وهى تدور مرة أخرى وما العلامات حتى الآن؟ مذنب يعبر السماء: فلقة فى الأسنان الأمامية

وشامة على الوجنة اليمنى لرجل معسول الكلام تستسلم للابتسام. كان لدى علاء الدين إحساس أنه لن يرى أبدا هذا الرجل وجها لوجه. مع هذه الشخصية الغامضة لن يستطيع أبدا أن يحكم بنفسه إذا كان ادعاؤه صادقا أو زائفا. كان يتوق إلى أن يرى بعينيه؛ لأن هناك شيئا مثيرا في إنسان يجرؤ أن يتحدث جهرا عن أحلامه. فجأة، على النهر انتشرت أشعة من ضوء الشمس على المويجات المتكررة مثل حفنة من الرمال تبعثرت في الهواء ومنها، وكأنه بالسحر، يبدو سرب من العصافير ذات الذيول الصفراء وكأنه يطير. خدعة ضوء أو شيء أكثر روعة؟

٥- الحصن المصرى الإنجليزى
الخرطوم

الآنسة إميليا تماريند والدّن

عناية السيد إ. بى. والدن من دوفيكوت

دريشير في ريدكوت هاوس

الخرطوم ٢ أغسطس ١٨٨٢

أعز من لدى إميليا

حبيبتى، آمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت بأحسن حال. إن مجرد رؤية اسمك مكتوبا على هذه الورقة رديئة النوع لا أقوى على احتماله. أخبئ تفكيرى فيك فى أعماق قلبى؛ لأنى لا أحتمل أن أفكر متى سنلتقى. لقد كنت مغفلا عندما حضرت إلى هنا، يا ميلى، أدرك الآن أنه لم أكن أعلم ماذا أفعل. كان يجب أن أستمع باهتمام أكبر لكلماتك الحكيمة. فهذا حقا مكان بائس يؤسف لوجوده على أرض الله.

الصحراء التى عبرناها من ساحل البحر الأحمر أرض قاحلة، يسكنها همجيون من أسوأ سلالة بشرية. وكأنهم حيوانات غريبة لها

رجلين، جلدهم بلون جلد سرج الخيل وخفيفي الحركة كالقرود، وأقوياء أيضا. يحاربون وكأنهم الشيطان نفسه يحفظون كل رقعة من الأشجار الشائكة عن ظهر قلب. الأسلوب الذى يعاملون به الحيوانات مخز، هذا فضلا عن انتشار الرق خارج حدود حمايتنا. إذا استطعنا أن نمد نشاطنا إلى حماية التجار الأمناء، ستتوقف هذه الممارسة غير الإنسانية.

أشعر مثل عجوز من ليفنجستون فى رحلة تبشيرية وتجارية، ولكن هذه هى الطريقة الوحيدة التى نقدم بها أنفسنا إلى هؤلاء البؤساء. من الصعب أن أشرح، يا ميلى، ولكن عالمهم هنا مختلف جدا لا نكاد نتوقع أن نفهم أسلوب تفكيرهم.

هذا الشخص الذى يدعى المهدى يسيطر عليهم. يقول بعضهم: إنه يدعى أنه الإمام الثانى عشر الغامض الذى اختفى طويلا، وهو قديس أو شىء من هذا القبيل. ويقول آخرون: إن هذه المعتقدات تنتشر فقط بين فئة معينة وليس بشكل عام. الأمر كله محير. لا نعلم. كل ما نعرفه أن أتباعه يضحون بأرواحهم من أجله وهم سعداء. من الصعب أن نفهم هذا النوع من الإخلاص الذى يحول أناسا بسطاء ومسالمين بشكل واضح إلى حشود مسعورة متعطشة لدماء أى مسيحى. لا تنزعجى يا عزيزتى؛ لأننا مسلحون بشكل أفضل ونحن أفضل منهم من ناحية النظام والإستراتيجية العسكرية.

أرى أننى متحامل قليلا. آمل أن تسامحينى على اعترافى لك، يا قلبى، يا حبيبتى. أنا هنا، أبعد عن الحضارة آلاف الأميال وأقاتل عدوا يقوم بما كان سيقوم به أى شخص محترم، أى الدفاع عن وطنه.

لا يستطيع المرء أن يلومهم على أنهم تعرضوا للخداع أو التضليل. أى أخبار تسمعونها فى الوطن؟ الصحف تصلنا متأخرة عن موعد صدورها كيف تصف جلادستون مجهوداتنا؟ كم أحب أن أشهد ذلك وأن أسمعهم يتناقشون حول مصيرنا فى ويستمينستر.

ورغم ذلك فهذه المدينة جوهرة خضراء صغيرة فى أرض مختلفة، سمراء معتمة مملة. نقضى أوقات فراغنا فى التجول فى الحدائق الصغيرة، حيث درجات الحرارة فى الظل مع النسيم من النهر تبدأ فى الوصول إلى المستوى المحتمل. أنا متأكد أن والدك سيسعد بالحياة النباتية هنا. تحيط بى الزهور التى سميت على اسمك: قرون صغيرة رقيقة إلا أن الثمرة الصغيرة على الجانب المر، مما يجعلنى أتساءل إذا كان والدك محقا فى اختياره هذا الاسم لك. كنت سأختار الياقوتية التى لها أوراق جميلة تويجية تذكرنى رقتها بطبيعتك الرقيقة.

إلا أن المدينة تعج بالجواسيس الذين يبيعون جدتهم العجوز من أجل رغيف عيش ولذلك علينا أن نحترس جدا. يقولون: إن العدو تصله الأخبار بدقة لدرجة أنه إذا أشعل الحاكم سيجارة، يعلم بها المهدى.

بالنسبة إلى زملائى من الضباط فيستغرق تعليم الفلاحين، ذوى الدماغ بطىء الفهم، التفرقة بين طرفى البندقية معظم أوقات عملهم، ولكنهم فى الغالب طيبون ولديهم الكثير من القصص الشيقة لتمضية الأمسيات. عند ذكر زملائه الضباط وجد هاميلتون إلزورث ذهنه مشتتا. رفع بصره من على المنضدة التى يجلس عندها ليجد طائر الحباك يحط على عتبة النافذة.

بعد سور المجمع السكنى يمكنه أن يميز المبنى المنخفض لصنع الخراطيش. كانت ساعة منتصف النهار والجنود يرتاحون بعد التدريب. كالعادة، استيقظوا فى الخامسة هذا الصباح وذهبوا إلى النهر حيث حركوا البواخر على السطح ليبحروا إلى أبعد من نقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق. تلتقى البواخر فى سعادة وتشكل قمة على السطح لا تلبث أن تسعد إلزورث، رغم أنه ليس من المفروض أن يشارك فى التدريب كل يوم، كان يعرض خدماته فقط للاستمتاع بركوب البواخر. كان النهر باردا ساكنا فى هذا الوقت من اليوم ومحيى للعناكب التى تعشش فى رأسه. كان من الصعب أن يتذكر أنه وراء ضفافه المنخفضة الهادئة ونخيله الكسول أمام المرء معركة عليه أن يخوضها.

كل يوم ينزلون من البواخر فى مكان مختلف ويبدءون فى التدريب. كان من المهم أن تتم رؤيتهم وهم يحتلون أكبر جزء ممكن من المنطقة المحيطة بالمدينة ليس فقط على أمل أن يعطوا العرب انطباعا غير محدد عن قوتهم وأعدادهم، ولكن أيضا ليؤكدوا للوطن نقطة إستراتيجية وهى سهولة انتشار القوات عن طريق الباخرة. يوما بعد يوم يمارسون الروتين ببنادق نوردن فيلدز: يركبون الحامل الثلاثى القوائم ويلحقون صناديق الزناد التى تطلق منها الخراطيش. فى أحسن الأحوال يبدأ المرء فى رؤية الحبال التى تربط بها الوحدة القتالية فى أماكنها.

اليوم لا يمكن أن يعد الأمر أقل من كارثة. بدأ بوصول جنرال هيكس الذى رقى حديثا إلى المكان. كانوا على ارتفاع حصان أقل وتحولت بسرعة عجلتهم ليؤثروا فى الجنرال إلى حالة ذعر. كان

الكولونيل فركر مشغولا يحاول لوم أحد الأشخاص على المراقبة، بينما السيرجنت المحاصر يصرخ "معهلش" محاولا إقناع الكولونيل باستخدام بغل كبديل.

خلال هذه الاستعدادات، كانت مجموعة من الفلاحين تنصب أحد مدافع النوردن فيلدز. تبعثر الرجال كالذباب عندما بدأ المدفع العمل فجأة؛ لأن الرصاصات كانت تطير فى كل مكان. سقط بعض الجنود على الأرض، جرى آخرون وهم يصرخون ليقفزوا فى النهر. لحسن الحظ لم يجرح أحد - ما عدا فرس أصابتها رصاصة فى ردفها. هاج هيكس. وأخذ يثب على فرسه إلى أعلى وأسفل وهو يلعن فركر أمام الرجال، بينما استمر السيرجنت فى اعتذاراته. "معهلش لك أنت". رد الجنرال بالكلمة نفسها: "هؤلاء الرجال لا يستطيعون أن يحاربوا فرقة رقص للبنات، فما بالك بحشد صارخ من الهمج المتوحشين". ابتسم إلزورث وهو يتذكر أحداث اليوم. "سيكون هناك بالتأكيد الكثير من المزاح هذا المساء فى مسكن الضباط".

إذا أدار رأسه إلى الجانب وهو ينظر من النافذة يمكنه أن يرى المسافن (*) Dockyards غرب المدينة فى الموجران Mogran، يحيط بها الحى القذر الذى يعيش فيه العمال. على الجانب الآخر، فى مواجهة المبانى المحيطة من الطين والخوص المقر الراقى للإرسالية التبشيرية

(*) المسافن: أماكن بناء السفن (المراجع).

الرومانية والمبنى من الطوب المصمت المتين. بينما ترقد على مكتبه عدة تقارير استخباراتية عليه فحصها، لا أحد منها، وهو متأكد، سيحوى أى شىء ذى قيمة أو حتى يمكن الاعتماد عليه. عندما أنهى قراءتهم بلغته العربية الضعيفة وكافح ليفهم ترجمة أخرى غير دقيقة، لم تكد النتائج تستحق أن يرسلها إلى القاهرة. كان مذهولا من درجة تناقض المعلومات بين تقرير وآخر حتى قبل أن يجف الحبر. فالمخبرون غالبا عملاء مزدوجون أكثر من أى شىء آخر. يبدو أنهم يتذبذبون بين المعسكرات ويستبدلون الكلمات بالنقود. مثل الروائيين فى الوقت الحالى أو أعضاء الفرق الكوميدية المتنقلة. لهم قيمة طالما لديهم قصة يلفقونها. كان من الصعب جدا أن يثق المرء بالمترجمين ومنهم التجار المتملقون، والأقباط واليونانيون وتجار الخيل السوريون الذين يفضلون أن يخبروك بما تحب أن تسمعه أكثر من أن يتفوهوا بالأخبار الدقيقة أو الحقيقية.

"أرى أنك تتأمل أسرار الحياة مرة أخرى" استدار إلزورث ليجد جسد شروود لوث الممتلئ الذى يثير الضحك إلى حد ما، نوع من الابتسامة المفقودة على وجهه تظنها ابتسامة ودودة لكن إلزورث يشك أنه يرسمها لتغطى نقصا فى الذكاء. يرتدى مرة أخرى كالعادة بدلة بيج واسعة فضفاضة، يبدو أن لديه منها عددا كبيرا، طرزه خياط فى المتجر بالقاهرة، إلزورث يستطيع أن يميزهم بالطبع من خلال البقع المتعددة التى توصم الكتان الردىء.

خيط رفيع من الدخان الأزرق الرمادى ينبثق من بين أصابع لوث عبر كتلة الشعر الأشعث الملتف فى اتجاه العوارض الخشبية. نظر

بعينين نصف مغمضتين وسحب سيجارة وسأل باقتضاب: "هل توجد، أى فتات أخبار اليوم؟".

مال إلزورث إلى الخلف فى كرسيه وابتسم ابتسامة عريضة "هل كلكم يا معشر الكتاب فضوليون هكذا، أو أنها سمة شخصية؟".

لوح لوث بيده فى الهواء متحيرا وأعلن قائلاً: "لا توجد أخبار تهم قراء الكرونيكل". ثم رفع يده وهو يتثاءب ليغطى فمه. أما إلزورث فقد غير، وهو مدرك ما عليه مواجهته، ورقة نشاف حبر بشكل تلقائى.

"أعتقد أنها خطيبتك؟".

وقف إلزورث وهو يجمع أوراق عمله بضيق واضح. "على أن أقول يا لوث إنك تكون فظا عندما يسيطر عليك الغضب".

"لوث فظ، هذا أنا. أنا آسف".

استدار الصحفى بعيدا عن المنضدة؛ ليحملق حوله فى الحجرة. وقال: متأملا: "إنها عادة من عاداتى السيئة".

قال إلزورث بتردد: "كيف عرفت أن رسالتى موجهة إلى سيدة؟" هز شيروود لوث كتفيه.

"إذا كانت رسالة عمل ربما كنت ستسمح لى بإلقاء نظرة. فأنا لا أمثل خطرا على الأمن. ولكن أمور القلب ...". هز إصبعه فى الهواء ولمح عينى إلزورث وأحكم قبعته على رأسه. وقال: "ما رأيك فى جولة على النهر؟".

"لم لا؟" تنهد إلزورث. سحب سترته الحمراء والتقط خوذته البيضاء عندما كانا يتجولان فى الممر الطويل البارد.

سأل إلزورث: "أنت من شيشير أليس كذلك؟".

ثرثر لوث "لا ليس صحيحا جرافيسند. للأسف. أبى كان تاجر جملة - رغم أننى سمعت أنها جذابة".

"ما هى؟".

"شيشير" ابتسم المراسل. كما أنها ليست بعيدة عن دربشير أيضا".

ضربت الشمس بشدة على أرض المنتزه الجافة وكان عليهم أن يواجهوا ضوءها الشديد المفاجئ بأعين نصف مغمضة. جندى مشغول بتلميع ماسورة المدفع. النحاس يلمع كالذهب. استدارا بعيدا عن المناطق الغنية حول الأسوار العالية المغسولة بالماء لسراى الحاكم العام وعبروا مستودع الأسلحة وبدءوا السير فى اتجاه الحوائط المبنية من الطوب والشوارع العريضة التى تميز وسط المدينة.

رجل يسوق ثلاثة حمير محملة بالحطب يسير فى الاتجاه المعاكس ورائحة تمزج بين البراز والتراب تملأ أنوفهم.

قال شيroوod لوث وهو يمد يديه حتى كادتا أن تسقطا سلة من على رأس فتاة صغيرة تسير بجانبهما " أحب رائحة هذا المكان. إنها تشبه جوهر الحياة ذاتها. إنها رائحة أصيلة". هز إلزورث رأسه فى يأس. كان

لديه إحساس أن نصف ما يقوله له لوث مختلق والنصف الآخر كذب محض.

"أشعر بالحرية هنا" استطرد واستدار لينظر إلى إلزورث "أليس هذا غريبا؟ آلاف الأميال تبعدنى عن وطنى، وتحيط بى الطقوس الوثنية والتعصب فى مجتمع لا يتحدث اللغة الأجنبية التى يلتوى معها اللسان ومع ذلك فإننى أشعر بمثل هذا الإحساس من الحرية".

أمال إلزورث رأسه جانبا وهو غير متأكد تماما مما إذا كانت ساقه قد شبكت فى شئ ما.

وتنهد قائلا: "أنت محظوظ لا يجب عليك أن تقلق بشأن كتابة التقارير وسؤال المخبرين" ثم رفع يده ليؤدى التحية العسكرية لجندى عابر.

دار لوث على عقبيه ومشى إلى الخلف وهو يضع يديه فى جيوبه."استمع إلى، الآن، أفكر أن أكتب سلسلة من البروفيل. تعرف نوع قصة الجندى أعنى فلنأخذك كمثال. أنت شاب فى بدايتك جسديا وأنت جندى، أنت هنا على حافة أكبر مغامرة فى حياتك. فرصة أن تختبر نفسك فى مواجهة العدو". يؤكد كلماته بتلويحات قوية من ذراعه وهو يضرب الهواء يمينا ويسارا. "دع القراء يعرفون ما تشعر به فى مواجهة هؤلاء المتوحشين الهمج وخطيبتك الحلوة تنتظرك فى الوطن. أنت المرشح المثالى". كان إلزورث يهز رأسه بالرفض ويبتسم ابتسامة عريضة. وبتنهيدة اعتراض، استدار لوث وواصل السير. وقال: "على الأقل فكر فى الأمر قليلا".

كانا فى ذلك الوقت يشقان الشوارع الضيقة الملتوية إلى المنازل الأقدم حيث يعيش التجار، تلك المنازل التى تتميز بجدرانها العالية ومشربياتها البارزة ذات النقوش الدقيقة التى تشبه أى مشربية فى القاهرة أو دمشق. ثم انعطفا إلى أحد الأركان وأدرك إلزورث حينذاك أنهما يتجهان إلى منطقة سلامات الباشا سيئة السمعة والتى تنتشر بها بيوت الدعارة.

"ظننت أننا متجهون نحو النهر؟" لوح شيرورود بيده. "التفكير فى النهر جعلنى أشعر بالعطش".

توقف إلزورث ليتفحص بعض المصابيح وضحك قائلا: "انظر إلى هذا. هذا ما يفعلونه بالقواقع القديمة. يقطعونها وينحتونها ويصبح لديك هنا - نصف دستة مصابيح سحرية".

لم يخلب الأمر عقل لوث "الحاجة أم الاختراع".

ركز إلزورث على الأمر الذى يشغل باله فى المقام الأول "أعتقد أحيانا أنك تنسى الطبيعة الجادة لمهمتنا هنا".

"مهمتك هى قتل هذا الرجل الذى يدعى المهدى واستعادة النظام".

"حسنا ربما ولكن الأمر أكثر تعقيدا وأكثر خطورة مما تجعله يبدو".

انتصب الرجل الذى ينتمى إلى الكرونيكل. ثم مال تجاه إلزورث حتى كادت أنفاهما أن تتلامسا.

"لا تشعر بالتنازل وأنت تتعامل معى أيها الضابط. أعلم ما يدور هنا. بل أنا أكثر علما منك بذلك".

دهش إلزورث إلى حد ما من شدة هذه المفاجأة وانحنى قليلا. ثم أذعن قائلا: "ربما أنت كذلك". سارا في صمت لبرهة، والشمس ساحقة والغبار يثور في شرائط وكأنه أمواج كثيفة. بغل يجر عربة ثقيلة. الذبائح تتدلى في خطافات الجزارين. في الوقت الحالي يوجد طعام كاف ولكن بعد شهر، ستة أشهر أو عام. من يستطيع التنبؤ؟

كانا يسيران إلى الجنوب في اتجاه الأزقة الموحلة حيث المنازل أصغر وأقل صلابة. هنا جنود أقل وإلزورث لا يحب أن يأتي بهذه الطريقة بشكل عام. وهو يعلم أن شيروود لوث لديه معرفة أفضل بهذا الجزء من المدينة، حيث يعيش معظم السكان البالغ عددهم حوالي ثلاثين ألفا في تجمعات مرتفعة الكثافة. من الصعب أن تعرف هؤلاء الناس حلفاء لمن والضابط عليه أن يكون حذرا. وإذا نحينا الانتماء جانبا، ما زال هناك كثير من الناس مستعدين لمهاجمة ضابط أعزل لمجرد نيل شرف امتلاك مسدسه. في نهاية الشوارع البعيدة توجد أرض فضاء تؤدي إلى المقابر وبعد ذلك أرض خالية بشكل أكبر والحوائط المنخفضة للحصون إلى الجنوب. صبي يحمل صينية خبز سار بجانبهما. لوح بيده للتحية العسكرية بطريقة ساخرة، تصحبها ابتسامة عريضة.

"الأطفال حقا جذابون، ألا ترى ذلك؟ لطاف جدا".

" نعم خصوصا إذا كانوا لا يعانون من التيفود أو الجذام".

توقف إلزورث. "كيف أصبحت قاسي القلب إلى هذا الحد؟".

استمر لوث في السير. أجاب: "لست كذلك. فقط لا أستطيع أن أحتمل الشفقة". بينما يسيران، فكر إلزورث مليا أنه لا يعرف سوى

القليل عن هذا الرجل. لقد سمع شائعات على المائدة المشتركة للضباط أن لوث لا يمثل فى الحقيقة أى صحيفة، ولكنه أتى هنا متطوعا، بأموال حصل عليها من صندوق ائتمان أو بالاحتيال أو غير ذلك. قالوا: إنه سياسى راديكالى يؤمن بأن كل الممتلكات لا يمتلكها أى فرد ولكن يمتلكها كل الأفراد فى الوقت ذاته. صنفه المقدم ستيوارت كمؤيد للأشكال الراديكالية من الاشتراكية وحذر إلزورث بالفعل؛ كى يبتعد عنه.

انعطفا إلى أحد الأركان وتوقف لوث. نظر حوله وحك رأسه. هذا خطأ، كان يجب أن نأخذ المنعطف الأخير. "بينما شرعا فى الرجوع، شاهدا طفلا صغيرا يجلس خارج منزل يحشو فمه بالتراب غير لوث اتجاهه وركع بجانبه، وهو يأخذ يده ويهز رأسه"، "لا، لا هذا يؤذيك" ثم نظر إلى إلزورث متسائلا: "كيف تقول ذلك باللغة العربية؟". هز إلزورث رأسه، متذكرا فجأة أنه كان يجب أن يكون فى مكان آخر، إن لديه حصة لغة عربية هذا اليوم بعد الظهيرة. "تعالى ياشيروود، إنه لا يهتم – ربما هو يقوم بذلك طوال حياته. فقط اضربه ضربة خفيفة على يده ودعنا نذهب".

قام شيروود بذلك وبدأ الصبى فى الصياح بأعلى صوته. ظهرت امرأة عند مدخل المنزل وبدأت تصرخ فيهما وهى تسحب الصبى من على الأرض إلى مفصل فخذها فى حركة واحدة. تجمع الآخرون حول المرأة وحاولوا تهدئتها وهم ينظرون بعصبية إلى الرجلين. بدأ بعضهم فى الصياح ولوحت سيدة بضربهما بمقشة كانت تمسك بها. تراجع شيروود وإلزورث،، يحنيان رأسيهما وينكسانهما وهما يسيران. بدأ حشد من الناس فى التجمع حيث علق المارة كأوراق الشجر عند أحد

الأركان. شق الرجلان طريقهما وسط الزحام وشيروود يرفع قبعته معتذرا وإلزورث يأمرهم بقدر ما يستطيع من صوت عال وحزم أن يخلوا الطريق. جريا نحو الميدان وانعطفا عند أحد الأركان ثم فجأة وجدا نفسيهما منقطعى النفس وهما يضحكان خارج القنصلية الإيطالية. مسح شيروود جبينه بمنديل من المفترض فى وقت ما أنه كان أبيض ونظيفا. أمسك إلزورث من ذراعه. "تعالى يا كابتن أعتقد أنه حان وقت تناول مشروب مرطب" وافق إلزورث. وقاد لوث الطريق إلى البار -- كافيتريا متواضعة فى الركن الظليل من الميدان مقاعدها ومناضدها يشغلها موظفون غير نظاميين يشربون كوبا من الشاى، أو تجار يناقشون أعمالهم.

رمى لوث قبعته على أقرب منضدة والمالك اليمنى جاء مسرعا إلى المنضدة يضربها بمنشفة ليزيل التراب. كانت القبعة شيئا له علاقة بجلد الماعز صنعها لوث لنفسه لتحميه من الشمس. لسبب غامض كان يرى الأمر علامة على التميز الفردى ويدافع عنه بحماسة.

وضع اليمنى كوبين من الزجاج الرقيق وزجاجة أمامهما "هينيسى كونياك ٣ نجوم" قرأ شيروود وهو يلف سيجارة بين أصابعه. "شىء جيد ألا يستطيع مستر هينيسى رؤيتنا. ربما كان سيصاب الشاب بأزمة قلبية حين يدرك التقليد المضحك الذى يرتكب باسمه". كان البراندى مصنفا محليا وليس تحت أى رخصة معروفة. وكان من الواضح أنه المشروب الوحيد بين المشروبات الروحية المعروض خلف البار وليس بكميات صغيرة. رشف إلزورث من كوبه بحذر. لم يكن رجلا يعشق الشراب حقا، إذا كان هناك شىء واحد يخلق مشكلات فى علاقاته مع

زملائه الضباط فهو تحفظه أثناء جلساتهم المسائية فى شرفة نادى الضباط. خلال ساعات قليلة، ابتسم لنفسه، سوف يرقد لوث فى سريره فى الفندق يحاول التعلق ببقايا الزجاجة، بينما هو سيكون مرة أخرى فى مكتبه ليضرب برأسه حائط الجهل الصلب. دق قلبه وهو يتذكر إميليا والرسالة التى لم يستطع أن يكملها وباندفاع مفاجئ تجرع كأسه."

"اثبت أيها الرجل العجوز، إنك تخجلنى".

تنهد إلزورث وفك الزر الأعلى لسترته الحمراء. "لا أعتقد أن الأمر يهمك يا لوث ولكنى أفتخر بأداء واجبى".

"مرة أخرى تفكر بذلك. لم أشك للحظة".

"ماذا تعنى؟".

مال لوث بمرفقيه على المنضدة. "تمتطى جوادك العالى". سكب شرابا آخر وأشار بإصبعه إلى إلزورث. "اصغ إلى كلماتى أيها الشاب. استمر هكذا وسوف تتحول إلى ماسورة بندقية متميزة".

سحب إلزورث قطعة قماش من سترته وربت على جبهته. "آسف ولكن الأمر مخيف جدا عندما لا يحدث أى تطور من جانبنا".

لم يوافق لوث. "بالتخلص من سليمان العجوز سمعت أن هيكس سيتحرك قريبا جدا".

حملق إلزورث "كيف يحدث أن كاتب عمود لعين يعرف أكثر من ضابط فى قسم المخابرات؟ هز رأسه رافضا عرض بشراب آخر وفرقع أصابعه ليستدعى اليمنى. "أعتقد أنه من الأفضل أن أتناول قهوة".

"نعم يا سيدى، قهوة سيدى" أومأ المالك وابتعد وهو يخفض رأسه.

هز لوث رأسه رافضا موقف إلزورث. "هل تعرف أن عليك أن تسترخي. بمجرد أن تذهب إلى هناك بين الهمج الصارخين سوف تسعد بكل قطرة تستطيع أن تضع يدك عليها من هذا".

مال إلزورث إلى الأمام وخفض صوته "لقد هزمنا الماكشيف **Makskif**، مما يعنى أن الطريق مفتوح أمامنا حتى سنار **Sennar.** وهى نصف المسافة إلى الأبيض".

"لقد كانت هذه انتفاضة محلية صغيرة، وليس أكثر. ليس من المضمون أن يستطيع هيكس تحقيق البراعة نفسها هناك. سيستعد المهدى فى الأبيض وما حولها، ليس لدينا عدد كاف من الرجال، والعدد الذى لدينا درب بشكل سيىء.

"أنت وأنا نعلم ذلك ولكن المهدى لا يعلم. سيعتقد أن العقاب الإلهى هبط على رأسه عندما يبدأ رجالنا إطلاق النار من بنادق كراسب على حريمه" لمح إلزورث أقرب منضدة، تلك الملتصقة بشجرة تين صغيرة، حيث يتحدث رجلان. ربما هذا ليس أفضل مكان للتحدث بهذه الصراحة فى هذه الموضوعات".

راقب لوث الأمر بشغف "لا توجد أسرار هنا. إذا كنت أعرف، فكل امرئ من هنا وحتى الأبيض يعرف. إنها بلدهم".

نظر إلزورث بحدة ثم خفض عينيه نحو المنضدة. "فى كلتا الحالتين ستكون معركة كبيرة تماما فلديه أكثر من عشرة آلاف رجل كما علمت".

"غير مدربين، والأهم أنهم غير مسلحين إلا ببنادق المسكيت القديمة والسيوف العتيقة ولا مثيل لبنادق ريمنجتون كما ثبت مع ماكشيف".

حك إلزورث ذقنه "سيكون من المفيد الخروج إلى ميدان القتال".

ضحك الصحفى ممتلئ الجسم بصوت عال فاستدار الميدان بأكمله فى اتجاههم "اللعنة على بلد يصعب فيه التريض يوم الأحد".

"ليس لديك كثير من الإيمان، أليس كذلك؟".

هز شيروود كتفيه. "تلك هى الحقائق. الناس هناك يخشون النخاسين أكثر مما يخشون جنودك الذين تحركهم كالدمى. إنهم معتادون على المنطقة وأهلها بشكل أكبر مما يعرفه ضباطك".

قاموا ليغادروا المكان وبينما كانوا يسيرون فى ضوء الشمس احمر وجه لوث، يعرق بسبب الكونياك حتى إن بقعة مستديرة أخرى ظهرت تحت إبطى سترته المجعدين بالفعل فى الأيام شديدة الحرارة.

أصر إلزورث على التفكير بشكل إيجابى "دعنا نرى ماذا يمكن أن تقوم به هذه الحمْلة. فهيكس رجل جيد. سوف نوقف الرجل الذى يدعى المهدى".

"إذا استطعتم أن تجدوه، فذلك..." همهم لوث، حينئذ ضرب إلزورث على ظهره برفق. "ورغم ذلك وأقولها كجندى حقيقى. أتمنى فقط لأجلنا جميعا أن تكون على حق". وهنا رفع يديه بالتحية ومشى يترنح فى اتجاه الفندق والزجاجة نصف الفارغة بارزة من جيبه.

٦ - محافظة كردفان

١٨٨٣

وفى كل مكان يذهب إليه حاوى، كان يسمع القصة نفسها. الناس يتحدثون عن هذا المهدى وكأنهم يعرفونه جيدا. وكأن حضوره يمر بحاوى كالشبح فى الرياح المحملة بالغبار. إنه يجلب الراحة للوجوه الحزينة، ويمسح دموع البائسين، ويجذب النظرات الجادة على وجوه أصحاب القلوب الخالية من الهموم الذين ينكتون فى الأسواق. يذكر الناس اسم النبى ويدعون الله أن يبارك فيه كلما ذكروا اسمه. يشيرون إلى مواضع فى الرمل كان قد وقف عليها. يخرجون ملاعق خشبية كان قد تناول بها طعامه عندما مر بهذا المكان، وأكواب رفعها لشفتيه ليشرب منها. كل شئ محفوظ فى ذاكرته المقدسة، لقد دخل إلى عالم الأساطير، كان فى كل مكان وليس فى أى مكان فى آن واحد.

إن قدرا من الحماس للمهدى ربما يرجع إلى سوء سمعته، فقد أسس اسما لنفسه بوصفه رجلا مطلوبا وخارجا على القانون تجرأ على تحدى الأتراك المكروهين. وبهذه الصفات يمكنه أن يدعى أنه يمثل الفقراء والمطاردين. لقد أذهلهم بحكايات الموظفين البسطاء الذين عاشوا فى القصور التى تقع على الأنهار المتلألئة، والخدم رهن إشارتهم، وحيث

الطعـام الذى يكفى لإطعـام قـرية يمكن أن يقـدم فى حـفلة بإحـدى السـهرات. لقد حصل على تأييـد الأغنيـاء أيضـا: الجـلابة Jellaba من الجزيرة، والتجـار فى المدن الكبيـرة. كـانوا على اسـتـعـداد لتـأييـد أى شخص يدعو للتغيير لضجرهم من الضرائب والإتاوات.

وكلاء المهدى مشغولون بالسفر بعيدا لنشر نشاطهم فى كل أنحاء البلاد. والقصص التى سمعها حاوى كانت كثيرة، ولكن كل واحدة تروى بإيمـان راسخ لدرجـة أنه أصـبح من الواضـح له فـورا أن هؤلاء الناس ليسوا فقط معجبين لكنهم جميعا أنصار مؤيدون. هذه ظاهرة مثيرة فى حد ذاتها. بالتـأكيـد لا يمكن أن يسـمح رجل، يدعى أنه يمـثل الله وأنه خليفـة النبى محـمـد، لهذا الإعجاب الذى يقارب العبادة أن ينمو حول شخصيته.

مهما كانت الحقيقة، ففى هذه المناطق الجنوبية الغربية كان حاوى يحرص على أن يتنقل فى ملابس المهاجر لأن ذكر اسم المهدى للفلاحين أو التجار فى أى قرية يؤدى فورا إلى مظاهر الكرم: تقديم أماكن للنوم وطعام. يتجمع الناس حول المهدى بشغف، حتى فى تلك المدن التى ما زالت تحتلها قوات الخديوى. وبدا حينذاك أن المهدى ليس رجلا واحدا ولكنه رجـال كثـيرون يسـتطيعـون أن ينتشـروا فى أماكن عـديدة فى آن واحد. "أتى ليقوم بدوره هنا. منذ عام وربما أكثر، كان المهدى يمشى هنا على قدميه خفيفا مثل ريشة، مرتديا أسمـالا بالية وكأنه أفقر رجل فى العالم، وممتلكاته أقل من ممتلكات كلب. فلا يمتلك سوى مدوناته الدينية ومحبرته، وهكذا يمكنك أن تعرف أنه كان عالما ، ورجلاً شديد الثقافة".

يقاطعه رجل آخر قائلا: "كل واحد كان يشفق عليه وكانت سلطانيته تملأ عدة مرات يوميا". "لم تكن فارغة قط ولو للحظة. وحينما كان يبدأ الحديث كان الناس يتوقفون ليستمعوا إليه. وكأنهم يأتون إليه ويلتفون حوله بسحر يعجزون عن الشفاء منه. إنه مشهد يدهش المشاهد".

"هنا بالضبط. بالضبط حيث تقف، وقف وتحدث عن الكلمات المقدسة التى تحدث بها محمد وعن الأسلوب الذى سمح به الوقت بإفساد رسالته. بالطبع كان يقول: الحقيقة، كلنا نعلم ذلك. علينا فقط أن ننظر تجاه المكان الذى يعيش فيه الحاكم لنعرف أى نوع من العدل فى هذا العالم اليوم".

"كان يقول: الحقيقة" تدخل آخر قائلا: "لم يقل أبدا أشياء غير حقيقية".

أحيانا يختلف الناس حول التفاصيل. يقول أحدهم: كان رجلا قليل الحجم". "قصيرا" ويستطرد آخر: "لا تعرف ما القصر لأن رقبتك أطول من رقبة الزرافة". لقد كان طويلا ونحيفا أيضا، ولكنه كان رقيق المشاعر يعكس ذلك ابتسامته وعيناه التى كانت ذات لون غامق ولكنها تحمل نورا أقوى من نور الشمس. كان مجيئه بالصدفة عبر الرمال ووقفنا جميعا نحملق فى دهشة. "مثل ضوء نجمة لامعة جدا، مثل الذهب". أحيانا ينفجر الضحك عندما يحكى أحد الأفراد بتأثر شديد محاولا وصف الأحداث. "كثير جدا من الشعراء حولنا هذه الأيام. لقد كان نحيفا، لا يكاد اللحم يغطى عظامه، ولكن ليس نحيفا كالسحلية. وعيناه كانت

تشع بالدفء ولكنها ليست متوهجة كالشمس أو أى من هذا الهراء وكان يتحدث بوضوح".

"كان يتحدث شعرا. شعرا حقيقيا نابعا من الروح. يتدفق من خلاله لدرجة أنك تشعر أن حديثه صادق مثل كلمات الرسول نفسه".

" لقد كان يتحدث بالألغاز. ومعظم الناس فى هذه المناطق لا يستطيعون فهم كلمة مما يقول: - كانوا فقط يومئون برءوسهم ويبتسمون وكأنهم قطيع من الماعز".

كانت المعارك تنشب لأن الأمر شخصى مثله مثل الإيمان.

"كان يتحدث بكلمات واضحة، يستطيع أن يفهمها الجميع حتى الأطفال. لماذا؟ قالها بنفسه. "إن الحقيقة أوضح من أكثر ساعة تسطع فيها الشمس"، إن كلماته هى التى أشرقت مثل الشمس وليست عينيه".

وبالتدريج تحولت الأيام إلى أسابيع وكبر القمر وابتلع الشهور، بزغت صورة معينة لرجل يأتى هادئا، دون جلبة، لا يطلب سوى الفتات لسلطانيته، ومكان يحميه من المطر أثناء قضاء الليل. كان يرتدى أسمالا بالية، جوبا بسيطة تغطيها البقع وخفا رفيعا. على رأسه غطاء مصنوع من وبر الإبل. تثرثر النساء ويعدلن أطفالهن على أردافهن، وهن يلوحن بأيديهن محركات أصابعهن فى الهواء. كان يحيطه سرب من اليمام الأبيض. يشكل دائرة من الظل تحت قدميه أينما سار. ربما كان هذا مجرد إدراك متأخر، ولكن بدا أن هناك إحساسا منتشرا بأن الناس غالبا ما يتعرفون عليه فورا وكأنهم ينتظرون مجيئه. فى جبل شيكيدا

قابل حاوى تاجرا أخبره بالقصة التالية وحدثه بوصفه خبيرا فى الموضوع وقد بدأ حديثه قائلا: "تعرض لموقف مخزٍ مع الشيخ محمد شريف. لقد كان المهدى تلميذه. ولكن المهدى نقد شيخه لتفاهته فى الاحتفال بطهور ابنه". كان التاجر يجلس القرفصاء ويمد يده من حين إلى آخر ليهش الذباب عن كومة من البلح بمروحة منسوجة من الخوص. "أطلق الشيخ عليه اسم الخائن وطرده من الطريقة. حاول المهدى الرجوع بكل الطرق ورأسه يغطيه الرماد. ارتدى نيرا خشبيا، شوبا، حول رقبته كالعبد. لم يلبس أية ملابس سوى جلد الماعز حول خصره. أين يذهب؟ ماذا يفعل إذا طرده أستاذه؟ لم يندم الشيخ، ولم يوافق أن يسمعه. ذهب محمد أحمد إلى الشيخ قرشى الذى كان يسكن قريبا. وعندما سمع شريف أن تلميذه ذهب إلى منزل منافسه. بعث برسالة يسامحه فيها". ابتسم التاجر وهز إصبعه النحيف وقال:" لكنه الآن، لا يحتاج إلى شريف، لذلك أعاد إليه الرسالة قائلا: "لا أحتاج إلى عفوك؛ لأننى لم أخطئ". وهكذا بدأت القصة فى الانتشار، أن هذا الرجل رفض العفو من رجل عظيم كالشيخ شريف. "اتسعت عيناه وتمايلت رأسه من جانب إلى آخر. "قالوا: إنه الزاهد، الناسك الذى يعتزل العالم. إنه يتحدث بالحقيقة وإن الشيوخ كلهم يعيشون حياة مرفهة جدا. حينذاك بدأ يطلق على نفسه اسم المهدى المنتظر".

"كيف فعل ذلك؟ كيف كشف عن رسالته الدينية".

لم يكن بحاجة إلى ذلك. ألم ترها؟ جديدة فى السماء، لامعة جدا. ألم ترها؟ إنها علامة".

نظر حاوى إلى الأرض حيث يزحف النمل. وقال: "هناك قصص كثيرة فى العالم".

ولكن التاجر ثابت على رأيه لا يهتز، هز كتفيه مستهجنا بسرعة وواصل قصته. "كان معروفا هنا منذ زمن طويل قبل ذلك. يقول بعضهم: إنه وصل فى أسفاره بعيدا جدا حتى جبل مارا. فى كل مكان كان يذهب إليه تمتلئ سلطانيته المستجدية. كانوا يستمعون إليه وهو يتحدث عن الظلم والمعنى الحقيقى للإيمان. كان متحدثا لبقا ورغم أنه لم يفصح أبدا عن غرضه الحقيقى، كانوا ينتظرون. ثم جاءت النجمة"، حرك يده فوق رأسه "تتوهج عبر السماء، تملأ الظلام بالضوء، ولذلك عرفوا أنه جاء إلى العالم. كنا ننتظر منذ وقت طويل".

خيم الصمت على الرجلين ثم قال حاوى وهو يفكر: وصلنا إلى حيث بدأنا. شعر بذلك حتى النخاع، شعر بروح الرجل الذى كان يسعى إليه فى خشخشة الشجيرات الشائكة مثل خيط الحشرات الصغيرة التى تزحف عبر حبات الرمال، شئ عكر صفو الأمور هنا، أزعج السطح الهادئ للعالم. ولأول مرة فى مهنته كعالم دين، للمرة الأولى منذ أن أحنى رأسه على ثنيات الكلمات وخربشاتها تلك الكلمات التى حفظت فى قلبه. فيما بعد، شعر بما كان عليه الأمر فى البداية، فى لحظة الانتقال عندما ولد الدين، عندما ظهرت كلمات الله للإنسان. شعر بالرعب. على مدار كل هذه السنوات، لم يشعر بشئ حقيقى كهذا. أغمض عينيه بإحكام وسحب نفسا عميقا. هذا اختبار له. ولهذا عاد.

الجزء الثانى

شايكان

٧- حصن دويم، النيل الأبيض

سبتمبر ١٨٨٣

سبب إطلاق النار فى المساء رائحة دخان وأومض داخل أقواس الحصن. رائحة الروث المحترق وطقطقة الخشب الجاف تخللت الأحاديث الهامسة بين الرجال المنتشرين فى المكاتب والثكنات وحولها. بوابات الحصن مفتوحة، تمددت القوة الاستكشافية عبر أرض الاستعراض العسكرى، إلى السهل المنثور بالنجوم خارج المدينة. بعد ثلاثة أيام هنا، هناك إحساس ضعيف بالنظام، بالنسبة لحشد الجنود، والتجار والعديد من الممولين والتابعين للمعسكر. يصحب نقيب إلزورث فى جولاته مساعده، سبراتلنج وهو شخص قصير ممتلئ رغم أنه أصبح متيبس العضلات، بينما كان فى الماضى طيع ورشيق. فى شبابه كان سبراتلنج ملاكما فى بطولات القوى وسبقته سمعته إلى الجيش. "العجوز الضئيل" كان يطلق عليه ذلك بطريقة عاطفية رغم أن الأسباب - وبعضها يعود إلى مهارات الملاكم، يفوت إلزورث فهمها.

لا يشترك الرجلان إلا فى القليل، فليس لديهما التجارب نفسها والخبرات السابقة والاهتمامات. سبراتلنج كان نائب عريف بحرى محترم وحازم. الضباط بالنسبة له ينتمون إلى صنف آخر. تعيينه فى المهمة غير المقنعة وهى رعاية ضابط من قسم المخابرات ليس لديه خبرة خارج أرض الاستعراض العسكرى كان أحد أنواع الظلم الذى تعرض لها سبراتلنج. وبينما الرجلان يسيران جنبا إلى جنب تحت النجوم، لم يبذل أى محاولة للاستجابة لحديث إلزورث القلق باستمرار. سبراتلنج يومئ وينجز بهدوء قدر المستطاع وهو ينتهز كل فرصة ليصب جام غضبه على المجندين. "ارفع هذا الشئ عن الأرض أيها الجندى! إنه من المخزى أن تتسخ هذه القطعة من الصناعة الباهرة بهذا الشكل ولا ترد بكلمة "معهلش" اللعينة يا بنى".

قال أحد الفلاحين شيئا بصوت عال وضحك الآخرون. لوهلة رأى إلزورث الأمر مرة أخرى: الإحساس بأن ما يجمع هذا السيرك كله معا خيط رفيع من عدم التفاهم المتبادل. هز سبراتلنج رأسه. "مجموعة من القرود اللعينة".

"إنهم أملنا الوحيد يا سبراتلنج فدعنا نصلى من أجل أن يحاربوا".

"نحتاج إلى ثلاثة شهور. ثلاثة شهور من التدريب ويمكننا أن نذهب إلى هناك". سدد سبراتلنج لكمة بقبض يد لراحة اليد الأخرى. كلام فارغ، صدم إلزورث رغم أن هذا التفكير لم يكن ليمر بخاطره منذ شهرين فقط بالخرطوم. كان سبراتلنج درس تاريخ يمشى على الأرض، كما علق شيroood لوث بسخرية: إنه يتطلع إلى المعركة.*

كان الناس يجتمعون فى الموضع الملائم حول ضوء النيران يغنون ويقرعون علب الطعام المحفوظ الفارغة. الخيام تمتد بيضاء ومنتفخة محاطة بالظلام، حيث لا شئ سوى الأرض الواسعة ذات الأشجار الخفيضة والأدغال الشوكية التى يمكنها أن تقتلع المرء من فوق جواده وتمزقه إربا إذا تقدم. كم يتوق إلزورث إلى الوديان الخضراء، وصوت الماء العذب يسيل سعيدا عبر جدول! تحت الشرفة المبنية من الطوب المحروق ينام جندى تحت مدفع وكلب هزيل يلعق بقايا عظمة مشوهة ملقاة على التراب. عبر إلزورث وسبراتلنج الحراس عند البوابة الواسعة ذات الأعمدة ودخلوا إلى فناء أصغر بالقرب من أرض الاستعراض. كانت الأقواس الحجرية تضاء بمشاعل مزروعة فى الرمال. تجمعت مجموعة من الضباط فى الوسط بجانب خيمة بيضاء تتعارض مع ما حولها: مكتب جنرال هيكس الخاص. كان الضباط يتحدثون اثنان وثلاثة ورائحة دخان التبغ والأصوات العالية الحميمة للرجال الذين كانوا يشربون تملأ الرقعة المرصعة بالنجوم فوق رءوسهم. كان من السهل تمييز الأوروبيين؛ لأنهم يأخذون جنبا ليس بسبب أى قواعد للنظام ولكن بحكم العادة. والمصريون يقفون متجهمين على جانب، غير قادرين على فهم الذكريات البريطانية والحنين إلى الوطن.

استأذن سبراتلنج واختفى. نظر إلزورث حوله ليرى الجسد المألوف للجنرال وهو يتجول، سيجارة فى يد وكأس البراندى فى اليد الأخرى. يومئ هنا وهناك ويتبادل كلمات قليلة وحينما وصل إلى مركز الميدان رفع يده داعيا الآخرين للانتباه. "تجمعوا حولى أيها السادة من فضلكم".

سار الضباط جارين أقدامهم. عندما تأكد أنهم جميعا على مرمى السمع منه رفع كأسه التى تلألأت تحت الأضواء. أنجزنا عملنا جيدا أيها السادة بالنسبة لليوم. وباتحاد قوات الحاكم العام وقواتي أصبحت قوتنا الاستكشافية على أتم الاستعداد، "إننا ننوى أن نهاجم دون تأخير" صمت هيكس الذى لم يكن متحدثا لبقا. "تحت تصرفنا مجموع سبعة آلاف من المشاة، خمسمائة من سلاح الفرسان وأربعمائة من الفرسان غير النظاميين إلى جانب حوالى ألفين من أسلحة متنوعة" انخفض صوته تدريجيا وابتسم دون سبب، وظل محملقا للحظة فى حذائه ذى الرقبة العالية، وكأنه نسى شيئا ثم رفع بصره بحدة "سيرجنت برادلى أين أنت؟ آه نعم" كان السيرجنت كالعادة أمام عينيه "سيرجنت كم تعداد الجمال الأخير؟".

وقف برادلى مستعدا ذراعاه إلى جانبيه وقال: بصوت عال: "خمسة آلاف وأربعمائة وخمسة عشر سيدى".

ظهر على وجه الجنرال نظرة استمتاع. رفع كأسه وابتسم "هذا أيها السادة إجمالى مؤننا وذخيرتنا". بدت الوجوه المكفهرة أكثر لطفا حينما استغرقت فى الاستعدادات اللوجيستية التى تحدد مصيرها.

أخذ هيكس نفسا عميقا وحملق فى علاء الدين باشا صديق الذى وقف على جانب يدخن سيجارة بهدوء. "الحاكم وأنا" بدأ كلامه بشكل دبلوماسى "كنا نناقش أمر الطريق الذى نتقدم من هنا عبره. يبدو أن هناك مجرى مائى موسمى اسمه... شئ ما" ألمح إلى الضابط المصرى الأعلى، حسين مظهر الذى قام بواجبه بتذكيره بالاسم: "خور الهابيل"Khor al Habil.

هذا هو الاسم الذى ضاع من ذهنى "قال هيكس ساخرا": على أية حال سنتقدم عبر هذا الطريق الجنوبى الذى سيمدنا بالماء بشكل جيد كما أكد لى الحاكم العام المبجل. إنه طريق طويل حوالى مائة ميل والأرض وعرة. كما تسكنها قبائل معروفة بتعاطفها مع صديقنا المهدى. سوف يقودنا، رغم ذلك إلى الأبيض من الجنوب وهذا سيعطينا عنصر المفاجأة". نظر الجنرال بعيون يملؤها الأمل وكأنه نصف متوقع أن يسمع صوت التصفيق. كان شيروود هو الذى أسرع بالسؤال الواضح "إذا كان الطريق أطول وأصعب، ما الميزة الحقيقية لاتباعه؟ بالتأكيد إذا أسرعنا عبر الأرض الخالية إلى الشمال سوف يؤدى الأمر الأثر نفسه بالنسبة لعنصر المفاجأة؟".

ابتسم هيكس برقة وكأنه كان يتوقع هذا السؤال بالضبط واستدار لعلاء الدين باشا ليمسك يده وكأنه يسأله الدور التالى فى رقصة مسرحية غامضة: خطا الحاكم العام ليتوسط دائرة الضباط وألقى بسيجارته على الأرض. ولأنه كان سيوجه الحديث لضباطه باللغة العربية، أشار إلى مترجمه، وضع يديه خلف ظهره ووقف ورجليه بحذاء ركويه ذى رقبة عالية متباعدتان إحداهما عن الأخرى فى الرمال. "حتى لا يشيع الشك بينكم لا بد أن تعرفوا أن الاختيار ليس سهلا. ففى هذا الوقت من العام ربما تكون الآبار الخاصة بالطريق الشمالى عبر باره Bara جافة، ومن غير المحتمل، على الأقل، أن يكون فيها من الماء ما يكفى لاحتياجات مثل هذه القوة الكبيرة. أما الطريق الجنوبى فيضمن لنا فرصا أفضل للعثور على الماء. كان الحاكم يتحدث بثقة ورغم عدم

معرفته الجيدة بالبلد كان يتحدث فيما يتعلق بتضاريس الأرض مما حقق الهدف. نظر إلزورث فى اتجاه شيروود لوث، ولكن المراسل الصحفى كان يتراجع إلى الوراء، وهو يكتب بسرعة غاضباً فى مذكرته، ويخطو على أطراف أصابعه بطريقة غير متقنة. نمت بينهما جفوة منذ أن تركا الأمان النسبى للخرطوم - شئ له علاقة بحقيقة أن جزءا كبيرا من وقت إلزورث ابتلعته واجباته اليومية، ولكن أكثر من هذا بسبب أن آراءهما حول هدف البعثة وفرصها فى النجاح كانت مختلفة. إن علاء الدين الذى يتحدث بوضوح، كانت له الكلمة الأخيرة. إذ قال: "ليس هناك طريق يضمن لنا الأمان الكامل أو مصدرا للماء معروف ويمكن الاعتماد عليه. ولذلك يجب أن نسير فى حذر". حيا علاء الدين الرجال وأضاف دون أن يحمل حديثه أثرا للسخرية: "ليكن الله معكم ويرشدنا إلى الأبيض".

إن الليل بارد الآن والنيران خفتت متحولة إلى فحم متوهج. الريح المحيطة بالساحة تدفع الرماد الأبيض وجذواته نحو السماء المظلمة. تفرق حشد من الضباط وهم يتهامسون فى الخارج. الرجال ما زالوا يغنون، الأصابع التى لا تتعب ترتجل وتدق على الطبول. تبدو النجوم فى السماء وكأنها تحدق من فوق حافة الكون، وتجعل هذه الحملة من رجال الجيش تبدو فجأة تافهة وبلا معنى. كانت هذه هى الأفكار الأخيرة لعلاء الدين باشا صديق حينما تمدد على سريره النقال يحاول أن ينام.

٨- مدينة الأبيض

١٨٨٣

تستيقظ أسوار المدينة مضجرة مع الفجر. تميل الشمس إلى أعلى، تصفر الصخور المتناثرة، ويهدأ الهواء. تحلق الغربان في السماء، ترفرف أجنحتها غير المنتظمة مثل أسمال بالية بيضاء وسوداء. كل إنسان مصنوع من الأسمال البالية كما يقول: المهدى.

إلى الأسفل من ذلك بمسافة بعيدة، مجموعة صغيرة من الأكفان بدأت تتحرك. أطرافها متيبسة ومتجمدة من برودة المساء والسرير الصلب من الصخور والرمال الذى كانت تريح عليه عظامها. الأطفال، ما زالوا جوعى، يحكون أعينهم والتراب يجعل الدموع تنبثق منها. يلف المهاجرون أقمشة خفيفة حول وجوههم التى تركت عليها الرياح علاماتها ويبحثون بأصابع طويلة عن أمهاتهم، آبائهم، وأبنائهم وبناتهم ويرون إذا كان الحب ما زال حيا يتنفس أو أن الحياة قد هربت بينما هم مستلقون يحلمون.

أخيرا يرون مطلبهم أمامهم: تقف الأبيض كإجابة مخيبة للآمال بائسة وناقصة. توقفوا عن المشى بجدية بعد هطول الظلام الليلة الماضية. لأنه ليس هناك معنى للتوقف بينما ليس لديك طعام لتعده، أو شئ تتطلع إليه ولكن ساعات من الانتظار حتى يأتى الصباح مرة

أخرى. انتشروا فى الغبار مثل حفنة من الريش أسقطها غراب، متعبين لدرجة أنهم لا يقوون على التحدث، صامتين تحت شبكة النجوم لا يقدرون أن يتحدثوا عن أسوأ أفكارهم.

أتى الفجر باليوم الحادى عشر. غموض إرادة الله يزداد. الطريق طويل وهم غير مستعدين له. ليس لديهم سوى إيمانهم ليبقيهم على قيد الحياة ولا شيء سوى إيمانهم أيضا سيفقدونه. يتذكرون أن المؤمنين الأوائل أيضا قاموا برحلة عبر قفور الصحراء ولهذا يهمهمون بالشكر لكل يوم يمر عليهم وهم أحياء، لكل خطوة يخطونها. الله سيهديهم. لقد أعطاهم الله معزاة تدر لبنا حامضا، وأطفالا يسقطون على الأرض الحارقة وأعينهم تحملق إلى أعلى. كانوا يدفنون هؤلاء الأطفال بسرعة، يحفرون الأرض الصلبة بأصابعهم، بأى قطعة خشب تقع عليها أيديهم؛ لأن الله أرسل لهم مجموعات من الكلاب المسعورة التى تتبختر خلفهم وهى تنبح فى الظلام وتنبش فى أكوام الحجارة التى تركت لتكون علامة على أماكن الدفن. هناك حكمة من كل هذا لأن الله يعلم كل شئ ويرى كل شيء.

جلس حاوى منتصبا ولف رباط رأس بنى قذر حول جمجمته. إنه مهاجر يتجه إلى مدينة النور. يتحرك إلى الأمام والخلف، يثنى ذراعيه ويفردهما محاولا أن يستعيد قليلا من الدفء.

اقتربت المدينة، هيكل مطبوع فى الرمال. الأسوار الطينية التى حمت المدينة أضعفها موسم المطر. مرت تسعة أشهر منذ سقطت المدينة، أو حررت. بوابات الحصن مفتوحة وأى شخص حر فى الدخول أو الخروج. المدافع التى تم الاستيلاء عليها يعمل عليها الجنود أنفسهم

الذين صوبوها نحو الأنصار عندما هاجموا المدينة؛ لأنهم أفضل من تعود استخدام مثل هذا النوع من الأسلحة. لقد أقسموا على الولاء فمرحبا بهم.

تجمع الرجال يحملون الرماح والمدارئ حول مدخل المدينة، يتحدثون بصوت مرتفع. بعضهم تميزه الندبات التي تركتها المعركة على الجسد والروح. أحدهم فقد ذراعه. تحمل مثل هذا الجرح معجزة في حد ذاته، فكر حاوى. يرتدون جوبات مرقعة، السمق البسيط الذى يغطى ملابس التجول يضفى إحساسا بالغموض بالنسبة للرجل العادى، يرفعه بدوره إلى مرتبة النبلاء. يحملون تفانيهم بكبرياء. ودهش حاوى مرة أخرى بانحراف النظام الذى يشهده. مجتمع جديد يتكون - بدون حدود ينمو في داخل الناس أنفسهم، مجتمع إيمان، ولكن أكثر من هذا. مجتمع أمل. ما كان يوما صلبا ثابتا أصبح الآن سائلا متحركا.

الصغار يطاردون بعضهم بعضا، يضحكون ويتدحرجون على الأرض وهم يقلدون المحاربين. صبية صغيرة ترعى قطيعا من الماعز في اتجاه بئر. تاجر يتهادى على قطيع من البغال التى تحمل العطور والتوابل الحريفة من التلال المليئة بالذهب نحو الجنوب. يبدو أن الحياة اليومية تسير بشكل عادى رغم التهديد الذى يحدق بها. المهاجرون الجدد يطوفون حول البوابات دون أن يعوقهم شئ. يسيرون وكأنهم في نوم عميق في اتجاه وسط الزحام. الوجوه التى أصبحت مألوفة في الأسابيع الأخيرة تذوب، تتلاشى مع غيرها الآن منسجمة في كيان كامل.

إن المدينة قد هجرها أهلها، وجردتها الحرب من كل شئ. يبدو أن

بناء العالم الجديد يتطلب هدم القديم. المبانى التى تحيط بالساحة أتلفت أثناء الحصار الذى انتهى بما يعرف الآن بمعركة يوم الجمعة. كل شئ تغطيه علامات وسواد بسبب الدخان والنار. بقرة نحيفة تقف على سلالم المقر السابق للحاكم وهى تحملق بكسل فى المارة. شمس منتصف النهار التى تتخلل الفتحة التى تحل محل السقف السابق تضىء الداخل.

ساحة السوق هى أيضا مكان عمل منفذ عقوبة الإعدام. جسد منتفخ يتدلى من المشنقة يهتز إلى الأمام وإلى الخلف بثقل الغربان رمادية اللون التى تستقر فوقه. رغم صيحات التجار والصخب اللامتناه وصرخة درويش من حين إلى آخر يدور بسرعة، معلنا تفانيه، رغم كل هذا هناك جو قاتم يحيط بالمدينة. أمسك حاوى بكتف رجل يسير وهو يحمل دجاجتين فى كل يد.

"منزل الشيخ عباس؟" سأله بصوت أجش.

ضحك الرجل "كل الشيوخ الذين أعرفهم فى المقابر" عض حاوى شفتيه. "المقابر"، أعاد الكلمة وهو يفكر. هو الآن وحيدا. وكأن المدينة عادت بالزمن حوالى مائة عام. استدار وسار عبر الأطلال المتفحمة، الدبش المتبقى من المعركة، محاولا أن يستعيد بذهنه كيف كانت قبل ذلك.

كان الوقت بعد الظهر عندما دخل الحجرة ذات السقف المنخفض تحت الأرض حيث أجساد الموتى يتم غسلها قبل الدفن. شمعة مصنوعة من الشمع الحيوانى مشتعلة، وخيوط من دخان البخور تصدر من مقبرة لتساعد على القضاء على الرائحة النتنة.

"الشيخ عباس؟ هل هو هنا؟".

زوجان من العيون التى لا يعرفها واللتان تركزان على قماش مربوط بإحكام استدارت فى اتجاهه ثم نظرت بعيدا. تمتم صاحبهما تمتمة غير مفهومة وابتعد في الحجرة الطويلة، حيث الأجساد تتمدد على أرضية من الطين الرطب يتم تبريدها بالماء. أشباح إنسانية يغمرها الظل تعبر فى الظلام الذى لا يقطعه سوى شعاع رفيع من ضوء الشمس الذى يدخل عبر فتحة ضيقة في السقف. شعر حاوى بمزيج من الفزع والاشمئزاز لقد كانت الحجرة مثل المقبرة، باردة ومثيرة لذلك الخوف الذى تثيره الأماكن المغلقة.

اقترب شبح رجل عجوز متيبس مع تقدم العمر ونافد الصبر، وربما غاضب فقط؟ لقد بدا فى عجلة لينهى عمله. من يحملون الموتى يسيرون بطريقة سيئة، يتخبطون بعضهم فى بعض ليبتعدوا عن طريقه. اقترب الرجل العجوز أكثر. رفع رأسه ليجد أن شيئا ما يسد طريقه ويعوقه، أشار إلى حاوى أن يتخذ جانبا، واندفع فى طريقه مارا به ثم توقف فجأة. استدار ببطء وبدأ وجهه يميل فى اتجاه ابتسامة. أومأ بضعف فى اتجاه الخروج وتحرك هو وحاوى نحو السلالم دون أن ينطقا بكلمة وهم يحييان أحدهما الآخر. فى هذه اللحظة حدثت فوضى: بعض الرجال الذين كانوا ينزلون فقدوا قبضتهم وانزلقت الجثة التى كانوا يحملونها على الأرض. وبينما هم يحملقون، سقط الجسد المنتفخ بالعفن على جانبه وانشقت البطن وهى تصطدم بأرض الحجرة، وملأت الحجرة بغاز خانق كريه تشبه رائحته رائحة المستنقعات.

امتدت الأيدى فى ذعر، وسحب الميت بدون طقوس ورأسه تضرب على الأرض إلى الحجرة الطويلة وسط جلبة من الأصوات المثارة. شعر حاوى بغصة فى حلقه. شق طريقه إلى الهواء الطلق ومال على الأرض، وهو يتقيأ.

عندما نظر إلى أعلى كان الرجل العجوز بجانبه. فتح الشيخ عباس ذراعيه على اتساعهما وحضن حاوى. "الآن، تأتى؟ الآن، حين ينهار مركز العالم تختار أن تعود؟" وأمسك أحدهما بالآخر بطول ذراعيهما، كانت أعين الشيخ العجوز تلمع بالدموع.

٩- بعثة هيكس
فى الطريق

الماء والتفاؤل يجفان. إلزورث يستلقى على ظهره وهو يحملق فى لوحة السماء. من مكان ما على بعد يستطيع أن يسمع الصوت الذى أزعجه على مدار أسابيع: أنين الجِمَال. ملأ رأسه فى الصباح والمساء، مع الرائحة غير المحتملة. الحرارة غير محتملة، رغم الأقمشة المرطبة الملفوفة حول جبهته التى يرش عليها ماء اللافندر من حين إلى آخر لكى ينعشه. شعر وكأنه يطفو على تيار من الهواء الخانق داخل فرن. ليس هناك أية نسمة فى هذا الوادى ذى الأسوار المنخفضة الذى حبسوا فيه. رفع الأقمشة من فوق وجهه واستدعى سبراتلنج. يغمره إحساس خانق من الذعر. إنه يموت. استولى عليه اقتناع تام بذلك. وكأن يدا تخنقه.

حلم أنه يموت. إنه مات فعلا. جسده ثقيل كالرصاص يغرق فى الطين الدافئ الطرى. كافح ليقيم نفسه واستطاع أن يقلب الغطاء على جانبه. لقد كان يتبول فى المبولة. أدرك هذا ببعض من الارتياح، إذ كان مقتنعا لوهلة أنه دم. قال لاهثا: "سبراتلنج". ثم كانت هناك أيد تمتد إليه وصوت مألوف، دافئ مثل صوت أمه، يقول: "هيا يا سيدى إنك على صواب". "هل هى الحمى، سبراتلنج أيها الرجل العجوز هل أنا أموت؟". "تماسك يا سيدى". سبراتلنج رابط الجأش مثلما هو دائما يساعد

إلزورث ليقف على قدميه، وأخذه متلطفا نحو حاشية الخيمة "لا يوجد هواء فى الخيمة اللعينة يا سيدى. سوف نخرج فى الهواء الطلق وسوف تشعر أنك معافى".

"نعم، نعم طبعا، شئ سخيف منى" كان إلزورث يتحدث بصعوبة، كل شئ يبدو غائما وبعيدا، وكأن أذناه يملؤهما الشمع. "كان هناك رنين أيقظنى، مثل الغناء. هل هناك شخص يغنى فى مكان ما يا سبراتلنج؟". "غناء يا سيدى؟".عبرت وجه المساعد الرزين نظرة قاتمة. "لا" أجاب بسرعة: "لا أحد يغنى".

وحينما خرجوا من الخيمة، بدت الحرارة فعلا أقل حدة. يستطيع أن يتنفس على الأقل. بدأ العرق يجف فى ظهره. كان سيطلب كوبا من الماء ولكن المؤن قليلة والمفترض أن يكون الضباط مثالا لغيرهم لقد كانت آخر الآبار التى وصلوا إليها فاسدة الماء حيث ألقيت بها أمعاء متعفنة، لم يجرؤا على استخدامها. الآبار السابقة المملوءة والمغطاة، والتى كلفتهم ساعات لإخراج الماء منها لم يجدوا بها سوى كمية ضئيلة من الماء، لا شئ يبدو أنه يكفى لعشرة آلاف رجل.

نفض إلزورث الغبار عن خوذته ووضعها على رأسه. تصرف سبراتلنج بتلقائية وأخرج مزادة(*) الماء. رفض إلزورث وهو يشعر بأعين الجنود المصريين الغاضبة تركز عليه. كم مر من الوقت قبل أن يفيقوا

(*) مزادة الماء: حافظة للماء وغيره من السوائل يستعملها الجنود (المراجع).

من إغماءتهم ويحاولوا التمرد؟ كانت هناك سلسلة من حوادث التمرد. لقد أطلقوا النار على رجلين منذ أسبوع لاعتدائهما على ضابط. وهذا النوع من الإجراء لن يقضى على المشكلة. بينما يعدل إلزورث سترته شعر بالجسم المطمئن لمسدسه الآدمز على وركه. يشعر المرء فعلا بما قاله جنرال هيكس بذكاء شديد وبشكل غير لائق "مثلما شعر عيسى المسيح بين اليهود". دار بعينيه عبر المعسكر. خرائب أخرى: أو ؛ يبدو أنهم أقلعوا عن فكرة سير المارش العسكرى على هيئة مربع.

الخيام والمؤن والرجال مع الإبل الباقية، متناثرون فى جيوب بين مجموعة الأشجار غير النامية والشجيرات الشائكة. هذا بلد تنتشر به الأفاعى، كما قيل له إنها تحب الأعشاب الباسقة والظل: إذا كنت بحجم الأفاعى تستطيع أن تجد بقعة ملائمة من الظل فى هذا البلد.

قال: "إننى أسير بعيدا لأرى إذا كانت هناك أى أخبار عن المستكشفين اللعناء". ولأنه ما زال مشوش الذهن قلقاً اختار طريقه عبر أرض غير مستوية. الجنود ممددون على الأرض مرهقون. زيهم ممزق وغير معتنى به وهذه هى أول علامة على انحلال النظام. التقى إلزورث بمجموعة من حوالى عشرة جنود كانوا يلعبون لعبة مثيرة يخلطون فيها الأحجار حول كومة من الرمال. نظروا إلى أعلى عندما ظهر وعلق أحدهم تعليقا لم يسمعه إلزورث. انفجر كورس من الضحك وأخذ آخر حربة ودفعها لاعنا بين قدميه حتى إنها وقفت خارج انفراج ساقيه كالمبنى. أدى هذا لدورة أخرى من الضحك. اختار إلزورث أن يتظاهر أنه لم ير أو يفهم واستمر فى طريقه. كان فى منتصف الطريق نحو شجرة

الباأوباب (*) الضخمة التى أقام حولها جنرال هيكس مركز قيادته، عندما وصلته أخبار الفوضى. نظر حوله فى حيرة أشار شخص ما إلى مجموعة الخيل. دوت طلقة. دون تفكير هبط إلزورث منحدرا صفيرا وسقط في خندق. غطى التراب حذاءه ذا الرقبة العالية، وامتدت الأشواك لملابسه. دوت طلقات أكثر: واحدة ثم اثنتين كرد فعل. عاد المعسكر للحياة من حوله. الجنود يصيحون والبنادق تحشى. طالب شخص ما بالتحرى عن الأمر وجاءت الإجابة، "اذهب وابحث بنفسك". ولكن كل شئ كان يحدث ببطء جدا وكأن الهواء الخانق تحول إلى مادة لزجة يخوضون فيها.. لم تسرج أية جياد. لم تنطلق أية رشاشات أو مدافع من حوله.

اصطدم بشجرة سنط غير نامية، فسحب إلزورث مسدسه، كان فى أرض مقطوعة الشجر حيث يرقد جنديان قتلى، مقطوعى الحلق قطعا طوليا. الدم يتدفق في الرمال قرمزيًا ناعمًا. أخذت بنادق الحارسين وأحزمة الذخيرة الخاصة بهما. ثم لمحهما: هيكلان بشريان يتحركان بسرعة عبر الأعشاب، مثل الظلال تحت الشمس، يرتديان أسمالا بالية بيضاء وأقمشة حول رأسهما ووجهيهما. اختفيا عن النظر وجرى إلزورث إلى الأمام. رآهما، ومعهما البنادق، يعتليان بسرعة صهوة الخيل التي كانت تنتظرهم مع رجل ثالث. كانت الخيل كبيرة: اثنان رماديان وفرس سوداء. فكر إلزورث كم هى خيل جيدة. كان يظن أنهم ثلاثة رجال ولديه فقط خمس طلقات فى مسدسه. يجب أن يقترب قليلا حتى لا يخطئ

(*) الباأوباب: شجر استوائى عريض الجذع. (المراجع).

المرمى. لم يكن هناك وقت ليضيعه؛ لأنهم كانوا سيذهبون فى ثانية واحدة. شق طريقه وهو يطلق رصاصة، إطلاق سريعا جدا. لمح وجوههم. راكب الفرس أدارها حتى ترنح شعر عنقها. كانت فرس قوية طويلة الأطراف. قفز الرجل بجواده إلى الأمام ليلقى بإلزورث على الأرض، وبطلقة واحدة استدار الثلاثة وانطلقوا. كافح إلزورث ليقف على قدميه وهو مذهول وأطلق رصاصة أخرى. لعن حظه. وفجأة وجد سبراتلنج بجانبه على حصان ويعطيه لجاما آخر. رأى إلزورث عينى الرجل العجوز تلمعان. "هذه المرة اللصوص فتيان يا سيدى". وتجولا عبر الأرض الوعرة حذرين من الأخاديد عبر النباتات المتناثرة ثم صعدا مائلين منخفضا على حافة الوادى حيث حوافر جياد الجنود المغيرين واضحة. أشار سبراتلنج "هناك". يمكن رؤية الركاب ثلاث ريشات تتموج من التراب الطافى. كانوا يتقدمون بسهولة. لم ينظر إلزورث خلفه فى اتجاه المعسكر، الذى اختفى الآن عن النظر؛ بسبب الطرق الملتفة التى ساروا فيها. رأى فقط الأرض الخالية إلى الأمام والركاب الثلاثة.

صاح إلزورث "لقد فروا منا".

رد سبراتلنج "لا يا سيدى لم يفروا".

تبع إلزورث الجانب المحتجب عن الريح، وجواده يأخذ خطوات واسعة عبر الرمل الرخو. الأرض إلى الشمال مهجورة وخالية لأن الشجيرات كثيفة الأغصان ضمرت، شجرة سنط واحدة أو اثنتان عن بعد ولا شىء غير ذلك.

كـانت الأرض المسـتـوية صلبـة تحت الأقـدام وزادت الخـيل من سرعتها بقوة وثقة. كان إلزورث يشعر بثقة أن الآخرين خلفهم مباشرة وأن هؤلاء اللصوص سيقودونـهم إلى صيد كبير من العدو. بعد كل هذه الأسابيع من القنص والمشاحنات والكفاح اليومى على بعد ميلين فقط، هذه المرة سوف يجعلونهم يدفعون الثمن. لم يكن ليستطيع التوقف حتى ولو أراد. شقوا طريقهم فى أرض صخرية ضيقة، بين عمودين مهشمين، تبدو كأنها وجه قد غارت وجنتاه. على هذه الأرض الأكثر صلابة يصبح الأثر أقل وضوحا وأبطئوا سرعتهم إلى درجة الخبب. فى نهاية الهضاب اختفى الأثر تماما. مضت ساعة ثم أخرى، دون أن يلاحظوهم. ثم، وللعجب، اكتشفوا طريدتهم مرة أخرى - بعيدا إلى اليسار فى منخفض غير عميق. يبدو أنهم كانوا قد توقفوا عن الحركة.

قـال إلزورث وهو منقطع الأنفـاس: "وجدناهم الآن، يا سبراتلنج". اندفعا إلى الأمام. عندما وصلا إلى حد معقول. سحب سبراتلنج بندقيته وأطلق عيارين. وتعقبه إلزورث مطلقا رصاص مسدسه ورأسه تدق وأدرك صرخة عن بعد. لقد أدهشه أنها صدرت منه بشكل عفوى ولا يمت بصلة لما تعلمه فى التدريب العسكرى ولكن صرخة بدائية كالنباح. جرت الخيل بسرعة وانتظام. رفع مسدسه ورأى هذه المرة هبوبا مفاجئا للتراب بالقرب من أحد الهياكل الإنسانية التى ترتدى الأسمال البالية. عندما أوشكا على الاقتراب منهم، قفز الركاب الثلاثة على صهوة الفرس وكأنهم مدرسة فى حركات السمكة الفضية واستداروا فى ومضة وفروا فى زاوية حادة.

"أسقطوا شيئا يا سيدى" أشار سبراتلنج على الأرض. توقفا. الجوادان، واهنان بسبب السير لمسافة طويلة. نال منهما التعب - يغطى جسديهما العرق المزبد، وأرجلهما تنتفض من الركوب القاسى. توقف، ونزل إلزورث من على صهوة جواده وسلم سير اللجام لسبراتلنج. ركع، كانت الأرض مبللة وتعلق الرمل الندى ببنطلونه القصير الخاص بركوب الخيل. شعر ببرودة الخوف تتملكه. نظر إلى الجياد المرهقة. نظر إلى السماء والشمس الغارقة وتساءل كم ساعة استغرق ركوبهم. وقف ولف فى دائرة محملقا فى الأفق الخالى وقال: لنفسه: "لقد خططوا لذلك".

رفع سبراتلنج مزادة جلد الماعز الفارغة لأعلى وقد سكب منها الماء. كانت الجياد تلعق الرمل، متلهفة على تلك القطرة الغالية وهى تتلاشى فى الرمال.

"فى أى اتجاه كانت الشمس عندما بدأنا التحرك يا سبراتلنج؟".

نظر العريف العجوز فى اتجاه سقوط طبق النحاس الذى يغطس، فتح فمه ليقول شيئا ثم أغلقه مرة أخرى. "أظن أننا اتجهنا نحو الشمال الشرقى". استدار لينظر إلى الطريق الذى أتوا منه، ولم ير سوى الصحراء الفضاء. هز العجوز رأسه بحزن وجلس فجأة على الرمال مثل دمية متحركة قطعت خيوطها وغمغم "يسوع المسيح، يا الله".

أخذ إلزورث ذراعى سبراتلنج وساعده ليقف على قدميه. "تعالى أيها الرجل العجوز. من الأفضل ألا نضيع ما بقى من ضوء النهار. بدأ يتعقبان خطواتهما. هبط الظلام سريعا. وقبل أن يمر وقت طويل كانا

يهيمان على وجهيهما بائسين. بالطبع تحت النجوم غير المألوفة بدا كل شيء مختلفا. فقدت آثار أقدامهما في التراب الذي هب على السطح. تحول الرمل تحت أقدامهما إلى شئ زجاجي بارد عندما أوغل الليل. التفا بطريقة لولبية إلى جانب جواديهما، رأسيهما تترنحان وسيقانهما تقفزان وهما نائمان. امتصهما الليل مثل الدوامة، مثل حلم كئيب عبر النجوم ودس أصابعه داخل رأسيهما بطريقة ماكرة.

١٠- شمال كردفان، وادي الميلك

أكتوبر ١٨٨٣

يقع المنزل فى نهاية منطقة غريبة فى شارع طويل، تحطم إلا أجزاء استقرت على بقايا قرية مغمورة. نفس الرجال والنساء والأطفال الذين عاشوا هنا يوما يهب عبر المداخل الخالية. تغطى آثار أقدامهم على آثار هجين البشر الذين انتقلوا إلى القرية الآن. لا أحد من السرية التاسعة أو ما تبقى منها كان مهتما بشكل خاص بفحص أحشاء هذه الخلايا المهدمة. كانوا يشعرون بالخزى والذل. لقد فصلوا الواحد تلو الآخر من المواقع العسكرية التى حاولوا العودة إليها. ورغم ذلك يبدو أن بحثهم لا ينتهى. علم الخديوى لا يمكن رؤيته فى أى مكان، على كل مدينة يصلون إليها ترفرف أعلام المهدى الرثة.

يتامى مثلما يبدون الآن بدءوا يصنعون لأنفسهم حياة جديدة. يتنقلون بكسل آملين أن ينحرفوا شمالا نحو العاصمة ويسرقوا أو يأخذوا ما يحتاجونه، أو بالأحرى ما يجدونه. كانوا يتنقلون فى دوائر دائمة الاتساع حتى يتجنبوا العدو؛ لأنه أمل ضعيف أن يتسامح المهدى تجاه الباش - بوزوك المكروهين. فى الجزء النحيل من الغابة على حافة الحقول المتفحمة، يسيرون وهم يجرون أقدامهم، الجياد تدفع بعضها بعضا فى الحر الجاف ليس لديها صبر على التوقف عن الحركة.

تبدو هادئة جدا. همهم زنزبير، رجل ضئيل. عظامه عظام عصفور وأصابعه طويلة ونحيفة. كان من أبناء بيجا بمرتفعات البحر الأحمر وشعره طويل ومجدول في ضفائر باستخدام الزبد الفاسد وقد دس في الضفائر ريش طيور ميتة. لديه خنجر طويل يتدلى من خصره، وآخر على مرفقه. يبدو أنه هجر زيه مفضلا سترة من النوع المصنوع من جلد النمر.

قال رازق بصوت يشبه صوت الخنزير:" هدوء. إنه ملىء بالثعابين. إننى أستطيع أن أشم رائحتها".

بجانبه، بصق فارس ومسح فمه بيده ."تعرف يا رازق إنك دائما تتكلم. لا تفعل شيئا سوى الكلام. أنت لا تحب هذا أنت لا تريد ذاك".

تجاهل زنزبير الاثنين واستدار إلى وهاب. "ماذا تقصد؟ هز البمباشي الكبير رأسه دون أن ينبس بكلمة. لقد اعتاد مؤخرا أن يمر بفترات من الصمت الطويل. نظر زنزبير إلى الأرض، وجهه عادة، لا يمكن قراءته، قادر على إخفاء فزعه. يتبقى منهم عشرة الآن. واصل فارس ورازق نقاشهما مثل ديكين عجوزين. تنهد فارس وقال: "يا إلهى لقد دار هنا قتال".

"أتفق معك فى هذا الأمر يا أخى. لا شىء تبقى هنا". نظر شزرا وقال: "ما ذلك؟".

"كلب" أجاب فارس ثم خطرت له فكرة: "يمكن أن نأكله". وهاب يئن، أغلق عينيه فعلا. "لقد سئمت من أكل الكلاب". سحب سير اللجام

وأدار الحصان؛ ليبدأ السير بعيدا. نظر الآخرون بعضهم إلى بعض، كان هناك ستة منهم، ليس بينهم سانجاك جوما الذى ما زال مربوطا إلى السرير النقال يسحبه جواد عبد التوم خلفه. لم يكن وهاب قد تقدم سوى عشر خطوات عندما توقف وسحب سير اللجام بشدة. توقف صامتا وهو يحملق فى زنزبير. أصغى الرجل البيجى الرشيق دقيقة ثم أومأ. الهواء يلسع، هناك صوت ضعيف مثل نقر الماء على الزجاج الرقيق. ذبابة تطن فى وجه كادارو. كل منهم يتابع الرقيب.

قال فارس بصوت يشبه فحيح الأفعى: "ما هذا؟". تجاهله الآخرون. وهاب يتجه إلى القرية، خطوة خطوة، وابتسامة على وجهه. نظر إلى زنزبير، واكتشف كادارو ابتسامة باهتة على وجه زنزبير أيضا. يتحرك الرجلان الآن فى اتجاه حافة الحقول المتفحمة. قال فارس وهو يهز رأسه فى دهشة: "ما زلت لا أسمع أى شئ لعين".

"لا تسمع أيها الأحمق، شم" مد رازق يده ليقرص أنف فارس. فدفعها فارس بعيدا بعنف. نظر كادارو إليه: ستندلع معركة فى لحظة. انتفضت الجياد تتقدم إلى الأمام وتعود إلى الخلف بعصبية. "رائحة؟"

بصق رازق على الأرض من خلال الفجوة التى كانت تشغلها أسنانه الأمامية "النساء! لقد تركتم هذا الصبى يتجول كثيرا. لقد نسيت ما هى رائحة النساء".

بدأ فارس ينتبه. كرر الكلمة "النساء؟".

هز رازق يده بعنف. وفى هذه اللحظة نفد صبر البمباشى. ركل جواده وهو يصرخ لينطلق. وبدأ يعدو فى الشارع. لعق شفتيه بعصبية ونظر إلى رازق قائلا: "لقد جن".

"استحوذ عليه الجن".

بعد ذلك أصبحوا غير قادرين على المقاومة فركلوا جيادهم وانطلقوا خلف وهاب. وتبعهم الآخرون برفقة عبد التوم الذى كان فى المؤخرة يسحب السانجاك الجريح على محفة. يتهادى كادارو بجانبهم على الفرس العجوز، يمكنه أن يرى أمامه الآخرين يجرون فى ذيل ضعيف من التراب - شعر أعناق الجياد فى الريح، وذيولهم أثناء الخبب ترفرف كالأعلام. تجرى الخيول بكامل سرعتها بعيدا. فى هذا الشارع الطينى مثل الأشباح أو مثل صفحات من التاريخ القديم عادت إلى الحياة بنوع من أنواع السحر، عبر أزقة القرية وأوصالها الممزقة نحو البيت الكبير فى النهاية البعيدة.

بناء قديم فخم من الطين المحروق والمداخل المقوسة. كان فى يوم من الأيام قصرا يمتلكه تاجر جلود مغربى. بنى مثل الحصن. وفوق الجدار الخارجى العالى طابق أعلى له ممرات ظليلة كانت تهب عليها النسمات فى يوم من الأيام من خلال ستائر حريرية على نوافذ مصنوعة من خشب الصندل تشبه المشربيات. إنه شاهد على عصر آخر، ولكنه أصبح خرابا منذ وقت طويل.

وفى موجة من الطين قفز الرجال فوق سور البيت دون أن يتوقفوا؛ ليلتقطوا أنفاسهم. الذكرى التى مرت بخواطرهم جميعا، مثل شكل من أشكال الجنون الجماعى، لم تمنعهم من التردد فقط، ولكنها أيضا دفعتهم إلى الهجوم المباشر، وكأنهم لا ينقضون على طين وقش فقط ولكن يحاولون أن يقفزوا على الزمن نفسه وأن يتجاوزوه. للحوائط الجافة

تتفتت تحت أقدام الجياد حيث يفحص بعضهم المكان وآخرون يندفعون عبر وسطه، آخذين تحت أرجلهم القش والقصب مع كتل الطين وروث الماعز، اندفعت أعشاش الطيور وبيضها تطير فى الهواء مع قطة مذهولة وعدة فئران حمراء.

أحاط ركاب الخيل بالبركة التى فى منتصف الفناء المستطيل، وهى الآن مكشوفة فأطلقوا أعيرة بنادقهم فى الهواء. امتطوا جيادهم عبر الشرفات، وهم يسحبون معهم حبال الغسيل والأثاث البالى. قدور الماء الفخارية تنفجر فى أعقابهم وتقفز القطط بعيدا عن طريقهم وكأنها تحترق.

فى الوقت الذى وصل فيه كادارو وعبد التوم كانت هناك فوضى كاملة: فالنساء نصف عاريات، وبعضهن عريهن كامل، يجرين فى كل اتجاه. ويطغى على التراب ورائحة الجياد عبير العطر وعبق البخور الذى يمتزج بعرق الرقص والغناء على نحو يذهب العقول.

قال عبد التوم متسائلا: "أستغفر الله العظيم، ما الذى يحدث هنا؟".

أجابه رازق بصوت يشبه نباح الكلب وقد اصطدم بالفعل بامرأة تستلقى تحت جواده: "إنه بيت دعارة أيها العجوز الأحمق". تدور الجياد حول الفناء الطويل الممتلئ الآن بالأسرة والقدور المكسورة وبقايا الطبل والأعواد الممزقة. اندفع سرب من الحمام من حفرة فى الأرض بينما تثب الماعز هنا وهناك. ما يمكن أن يوصف بمناورة عسكرية منذ دقائق

مضت يشبه الآن مشهدا ساخرا يقدمه مجموعة من المحتالين والسحرة. في وسط الدائرة، يجلس وهاب، يخلو وجهه من أي تعبير. وحمامة تقف على كتفه. نزل من فوق جواده وسار بخطوات ثقيلة عبر الفوضى؛ ليجلس على الأرض في الركن ونام ورأسه بين يديه وهو يحلم فقط بالعودة إلى البيت.

صبي، أكثر نحافة من عود القصب تقدم من الجانب وبأذنين كبيرتين لدرجة أنهما ترفرفان في الهواء تقدم إلى الأمام وعلى وجهه تكشيرة عجيبة. يضرب بقوة على الطبلة، وخلفه فتاتان ثم ثالثة يرتدين قمصانا داخلية من القطن الرقيق، وهن أيضا يعزفن آلات موسيقية ويغنين في كورس الآن. الموسيقى غريبة وغير مألوفة، ولكن التوم لا يكاد يلاحظ ذلك. لقد ناولته امرأة عجوز، اتضح أنها مالكة المكان، سلطانية فخارية بها ميرسا ذات لون غامق. رفع السلطانية إلى شفتيه وتذوق الفخار، ما دفعه ليشرب بإسراف. شرب السلطانية جرعة واحدة طويلة، يميل رأسه إلى الوراء والسائل يسيل في قطرات من جانبي فمه.

يهبط الليل عليهم ومعه الانتقام، يشعلون مصابيح الزيت والنيران، تصبح الساحة كلها حية زاخرة بأشباح رشيقة الحركة تطير من ركن إلى آخر. أوضحت العجوز الشمطاء لعبد التوم قائلة: "الآن، وبعد مرور أسبوع، حاولنا طرد الجن من هنا لكنه مشاكس جداً".

أدار عبد التوم لسانه في أركان فمه؛ آملا أن يجد بقايا مذاق التبغ. إذا كان الأمر كله يرجع إليه كان سيأخذ الرجال ويمتطون جيادهم خارجين في هذه اللحظة بصرف النظر عن الظلام. ولكن وهاب

يجلس فى المكان نفسه الذى يجلس فيه منذ وصولهم، فى الركن مستندا إلى الحائط، حيث تقدم له سلطانية وراء أخرى من المريسا. يجلس كتمثال، منتفخ ومثقل بالهموم، ثابت لا يتحرك.

سألت المرأة: "من أنتم؟". وعندما أخبرها عبد التوم، تحدثت بصوت مرتفع "باش - بوزوك" مضغت تبغها. "إن شكلكم لا يخيف قطة". وصل صوت الضحك إلى النجوم. انبعثت رائحة كمنجا **Kamanga** من أكثر من غليون مرت بالقرب منهم.

" أى فتاة هى التى استحوذ عليها الجن؟".

أشارت المرأة العجوز، وعيناها يملؤهما الدخان إلى شابة أطول من الأخريات لها سيقان طويلة وطريقة سير تفتقد الرشاقة وأكثر شبها بالرجال. حملق كادارو عبر الفناء.

وجد نفسه يسألها "ما اسمها؟".

أخرجت المرأة العجوز ساق البايب من فمها وفحصت الصبى وقالت: "نون"، وهى ترسم علامة الحرف فى الهواء "لدى أولاد كثيرون توقفت عن تسميتهم واكتفت بالرمز إليهم بحروف" ثم خطرت ببالها فكرة "هل تود أن تنام معها؟".

"إنها أنظف من كل بناتى. الرجال يخافون منها". همهمت بعيدا لنفسها وأعادت حشو البايب فى فمها وهى تتنهد. أصدر عبد التوم صوت بصقة "النساء والجن يثيرون أعصابى".

حملق كادارو مسحورا عندما بدأت الفتاة فى الرقص. لاحظ الطريقة التى تقلب بها يداها حول رأسها ثم أسفل إلى الجانبين

والخلف، تتمدد، أعقاب القدمين تتحرك مع الموسيقى بشكل محدود ومتقطع، مثل الحصاة على الماء الساكن سأل التوم أن يريه كيف يكتب حرف اسمها الوحيد.

من المحفة التى بجانبهم سمعوا صوت أنين سانجاك جوما. يقوم بذلك كل مساء رافضا الموت رغم أنه الآن مجرد شبح كئيب قاتم لإنسان. تفوح حوله رائحة تعفن فج. البطانية التى تمتد بين العمودين غير المستويين اللذين يتم سحبه عليهما تغطيها طبقة من الدم والشحم والبراز. يبدو أنه يستنفد فى البطانية وكأنه قبل مرور وقت طويل كل ما سيتبقى منه هو العظام. يكشر بطريقة غبية، كل أسنانه سقطت، عيناه متورمتان بالغضب. لم يعد يتحدث "لحست الحمى عقله" قال عبد التوم وهو ينظر إليه. يرعى السانجاك مثل أم ترعى طفلا مسكينا: "إنه الشيطان الذى يبقيه على قيد الحياة. كعقاب لنا. لا يتبقى منه شىء سوى السم". راقب كادارو عبد التوم وهو يسحب بطانية على جوما ويثبتها بعناية حول ذراعيه. أرخيت الحبال التى يوثق بها الليلة، إلا أنه لم تتم إزالتها أبدا. رغم بقايا تعاطفهم مع قائدهم السابق فإن أى رجل من السرية غير مستعد أن يخاطر بتحمل مسئولية تجول خيال مآتة فى الظلام بينما هم نائمون. لا يعلم أحد ما يستطيع أن يفعله هذا النوع من الكراهية.

على الجانب الآخر من الحائط، رفعت المرأة العجوز البايب من فمها، وغمست أصابعها فى سلطانية عطر ورشتها على الفحم المتوهج فى المبخرة. سحب من البخار اللاذع ارتفعت فى الضوء بألوان قوس قزح الزرقاء والخضراء.

١١- حملة هيكس
جنوب الأبيض

رفع جنرال هيكس بصره عن آخر صفحة فى التقرير الذى كان يكتبه. توهج مصباح الزيت على المنضدة جعل عينيه تشحبان. تساءل لو كان قد استطاع أن يظل موضوعيا بما يتلاءم مع مركزه فمن الصعب أن يوازن المرء بين الوصف الموضوعى والعذر العاطفى، من الصعب أن يتحرر بينما العالم كله يتآمر ضده على كل جبهة. أعاد قراءة الأسطر الأخيرة:

بعد أن استعدنا الأبيض وأصبحت البلد أكثر استقرارا نتيجة لذلك، فمن المتوقع أن يتم إرسال قوة صغيرة من هناك عبر الطريق الأقصر الذى يمر بشات Shatt لتقابل مجموعة من الجنود قادمة من دويم Dueim بمؤن وغير ذلك من الاحتياجات. والماء الكافى لقوة صغيرة يمكن الحصول عليه بفتح الآبار التى ملأها العرب.

كلها افتراضات واعتراضات، وفى النهاية فإن استعادة الأبيض بدا لهم مطلبا صغيرا. كان هذا هو هدفه الأول وبدونه لا شىء لديه. والبديل لا يمكن التفكير فيه. ولا ينصح بأن يقترح فى تقرير عسكرى أن لديه

شكوكا جدية فى احتمال انتصارهم. فإذا تم إعاقة إرسال التقرير سيعطى العدو ثقة أكبر فى النفس. وإذا لم يحدث ذلك سيضعف التقرير مكانته عند إرساله إلى القاهرة.

وضع ريشة الحبر وتنهد. التفكير فى الفشل يدور بخلده ألف مرة كل يوم. يقبع فى داخله بشكل دائم. لقد بقوا على قيد الحياة بفضل برك المطر المتناثرة فى هذه المنطقة الكريهة. عليه أن يقدر العدو لوضعه تكنيك حربى جيد. يبدو أن ما أراده لا يمكن الوصول إليه وبالتالى فقبضته على قيادة هذه الحملة تخضع لسؤال لا يثير الراحة أبدا. المرشدون المحليون لا يمكن الوثوق بهم، لا يمكن أبدا للمرء أن يتأكد إلى أى جانب ينتمون. كيف تتقدم فى أرض إذا كان الرجال الذين يرشدونك هم أنفسهم الذين يدفع لهم العدو؟ كل قضية لوجيستية ترتبط بالعقدة الميئوس منها التى أثرت على هذا الجزء من العالم. البسكويت والذخيرة الحربية التى تأتى من دويم وكانوا يعتمدون عليها لن تأتى قريبا. وسمو الحاكم العام أخبره حينئذ أن أملا ضعيفا يأتى إليهم عبر هذا الطريق. لماذا لم يوضح الرجل قصير القامة الذى يثير الغيظ هذه النقطة من قبل؟ لماذا ينتظر حتى الآن؟

كان هيكس فى حالة يأس. تحاصر تفكيره العسكرى تفاصيل تثير الأعصاب فى محنتهم. كان لا يكاد يستطيع النوم أكثر من نصف ساعة حيث نزلت به كارثة عدوه القديم، البواسير، الذى اختار هذه اللحظة ليعود بقوة - السبب بلا شك قضاء أيام طويلة على صهوة جواده. خرج النظام عن السيطرة. كم شهدوا من حوادث التمرد؟ الجنود المتطوعون

من المؤكد أعداء للخديوى والبريطانيين. من صاحب الفكرة الحولاء بإرسالهم إلى هنا فى المقام الأول؟

حتى ضباطه يخذلونه. خيب فركر أمله بشكل خاص. فلم يعضده الكولونيل فركر فى الاجتماع الذى عقد الليلة الماضية. رؤى الرجل، يشك هيكس، لم تكن أبدا مباشرة ليبدأ بها، لكن أن يدور عند هذه المرحلة الحاسمة ويبدأ حديثه بكلام أحمق عن "الظروف العسكرية الغامضة"، فيسرح بالرؤية المشوهة بعيدا. كان ضابطا مميزا، من الدرجة الأولى حقيقة، ولكن فى الأمر الحاسم وهو إسقاط مراكز للمراقبة فى الخلف لتحمى مؤخرة الجيش، اختار أن يعارض هيكس. لا يمكن فهمه. ليس فقط أن هذا يسيىء إلى مكانة هيكس ولكن أيضا هو أمر ضد كل قاعدة فى الكتاب. إنه بالتأكيد أمر شديد الوضوح. لقد بدأ يخطر ببال هيكس أنه أحمق لعين لموافقته على قبول هذه القيادة. فلديه رجال لا يمكن الاعتماد عليهم لتبوء منصب لأكثر من الوقت الذى يستغرق صفا من صفوف الجند ليغيب عن النظر خلف منعطف فى الطريق. ليس لديه إمدادات، ماء قليل ثمين القيمة وضباط يكرهونه لاختياره لقيادة زملائهم من المصريين. كانوا يهيمون عبر أرض لا يألفونها مع مرشدين يدعون لحظة أنهم يعرفون الأرض مثلما يعرفون ظهر أيديهم، ويقسمون برحمة أمهاتهم أنه كان هناك ماء فى الأفق واللحظة التالية ينكرون أنهم قالوا ذلك أبدا.

أبو دومة المرشد فُقِدَ. ذهب مع خمسة وعشرين جنديا إلى المحطة التالية حيث وجدوا ماء. وبينما هم فى طريق عودتهم، أدرك أبو دومة أنه

ترك بندقيته بجانب البئر. ولأنه يعلم أنه سيعاقب لترك بندقية تقع فى أيدى العدو، عاد ليأخذها. انتظره بضعة رجال وعندما لم يظهر واصلوا طريق عودتهم إلى المعسكر. صدر الأمر بتقدم الصف إلى محطة البئر. وجدوا أبو دومة يجلس تحت شجرة، وسرب من الطيور حوله مثل شال حى، وريشها يتنفس مع النسيم الرقيق. كان أبو دومة يحملق فى فخذه، وقطعت كلتا يديه من معصميهما.

عندما تقدموا بدأت الأرض تتغير. كل صباح تظهر أمامهم أرض جديدة تنتظر أن يكتشفوا غموضها. وبمعنى ما، يبدو أنهم كانوا يمرون بمنطقة تعكس بطريقة ما حالة الروح. فكل خطوة محفوفة بالخوف المروع حتى إن المرء يمكن أن يواجه نفسه فى أية لحظة.

فى اجتماع هيئة أركان حرب بعد ظهيرة هذا اليوم اتجه الاهتمام إلى موضوع تكوين المربع القتالى. لقد كان من المستحيل الاحتفاظ بهذا التكوين الصارم فى الأرض الوعرة التى يتنقلون فيها. حيث يمزق المربع كميات كبيرة من النباتات ويؤدى إلى تغييرات طبوغرافية، والتى تجعلهم يدورون مثل الغسيل المتبعثر فى المستوى المنبطح، على مدى واسع.

مال هيكس إلى الأمام بينما دخل الضباط وهو يضع مرفقيه على المنضدة وعقد أصابعه على هيئة برج وأخذ يتفحصهم وهو متجهم. "أيها السادة"، العدو يتبعنا بسرعته ويبدو أنهم لا يهتمون بوجهتنا. يحتلون كل معسكر فى اليوم نفسه الذى نترك فيه المكان، أحيانا ينتظرون لمدة ساعات. فقط الآن أراح يديه على المنضدة وقال: "ماذا نستنتج من هذا الأمر؟".

وقف الحاكم العام وتنحنح. "ربما أيها الجنرال، هذا وقت مناسب لنراجع أمر تكوين الصف. هز هيكس رأسه وقال: شيئا غير مفهوم. واصل علاء الدين باشا حديثه: " من الآن فصاعدا يجب أن نتقدم فى حذر بقدر ما نستطيع. بينما نحتفظ بحماية مؤخرة جيش محكمة، يجب أن تكون لدينا مرونة مناسبة لتضاريس المنطقة". أومأ إلى مساعده أن يترجم حديثه، قبل أن يواصله. "أود أن أقترح أن نتبنى التكوين المثلثى فى القتال".

"مثلثى" همهم جنرال هيكس، وهو يبعد البوصلة جانبا، وكأنها تلمع بالسخونة. انحنى علاء الدين وسحب الرجال حوله. بدأ يرسم خطوطا على الأرض بإصبعه. "ثلاثة مثلثات. كل واحد نقوده نحن. أحدهما تقوده أنت يا جنرال، والثانى أنا والثالث يقوده أكبر الضباط الموجودين". هبت فى هذه اللحظة ريح عاصفة من الصحراء، وهى تجلب التراب والحيرة لمركز القيادة المؤقت. تعرض الجنرال لأسوأ ما فى الهبة حيث سرت فى عينيه وأعلى أنفه. وقف على قدميه ومشى مضطربا كالأعمى واصطدم بالمنضدة جانبا. امتدت الأيدى لتساعده على الوقوف باستقامة، ولكنه أبعدها بضربة عنيفة وهو يصيح بصوت عال: "اتركوني وشأني! عودوا! عودوا!".

استطاع أن يقف معتدلا وهو ينظر كالبومة بأعين محتقنة بالدم وعصبية.

بدأ علاء الدين باشا، وهو يأخذ نفسا عميقا، يوضح إستراتيجيته "مثلث يضم ثلاثة مثلثات أصغر داخله". رسم مرة أخرى فى الرمال.

"وسوف يغطى سلاح الفرسان الأجنحة هنا وهنا بالمدافع والذخيرة فى الوسط. وبهذه الطريقة تكون كل وحدة آمنة".

بدا كلامه معقولاً لكل الحضور، ولكن الجنرال، وعيناه تملؤهما الدموع وقلبه مثقل بالشعور بالخزى، لم يستطع أن يقنع نفسه بالموافقة. سقط فجأة على كرسيه وهو يلفظ أنفاسه، يكرر ويكرر بصوت لا يتعدى الهمس كلمة "مثلثات".

الآن تأكل الجمال القش من فوق أجسام بعضها؛ لأنه لم يعد يسمح لها بأن ترعى خارج أمان المربع. الخوف يأكل قلوب الرجال. الأرض نفسها بدأت تتعدى على حقوقهم، لا أحد يغادر حدود المنطقة الخارجية إلا فى حالات الضرورة القصوى؛ لأن العدو ماهر فى التخفى بين الشجيرات الشائكة وفى شقوق الأرض وثناياها لدرجة أن مائة رجل يمكنهم أن يكمنوا تحت أنفك مباشرة دون أن تراهم.. وصلت الأمور إلى حالة محمومة لدرجة أن بعض رجال العدو يتسللون عبر مراكز الحراسة ويتجولون بحرية فى المعسكر ليلا بينما الجيش نائم. الأشياء تختفى بشكل غريب: ممتلكات شخصية، صابون، شفرة حلاقة مفضلة أو مرآة، كتاب أو جريدة، زوج من الأحذية طويلة الرقبة، جوارب، رسائل من الوطن وحتى مسبحة من الخرز. ونتيجة لذلك، تندلع المشاجرات بين الرجال ناهيك عن أن أعصابهم مثارة بالفعل.

وتستل الحراب وتسفك الدماء أكثر مما كان يتمنى المرء. لقد واصلوا طريقهم حتى شايكان **Shaykan**، حيث توقفوا لتكوين دفاعات

أفضل؛ لأن الليل بدأ يهبط. الآن هم محاصرون، وبينما حل الظلام بدأت تسمع أصوات طلقات متفرقة. لجأ الرجال للزحف من مكان إلى آخر بدلا من المشى. كانت الطلقات تضرب فى الأشجار، وتجعل الفروع تنهار فجأة دون سابق إنذار. رحلت كل الطيور، لا يوجد خفاش واحد. من وقت لآخر يصاب أحد الأفراد ويبدأ الصراخ. لا أحد يود الحركة خشية أن يجتذب قناصا من الأعداء. الجرحى يبكون أو يصرخون وحدهم فى بؤسهم لساعات طويلة حتى يموتون أو يتم نسيانهم. أصيبت ناقة وواصلت الأنين حتى تحرك أحد الأشخاص وقطع رقبتها بهدوء.

النوم لا يأتى بسهولة. تُرخى الساعات لفاتها الدخانية حول الرجال بطريقة أكثر إحكاما. والنجوم تبتلعها السحب الممطرة الخفيفة.

إطلاق النار توقف مع الصباح، ونوع غريب من السلام بدا أنه يهبط على العالم. الهواء منعش مع الرطوبة، رائحة التراب المبلل تتصاعد بسبب المطر الخفيف. كانت الشمس تصعد نحو مركزها والقمر لا يزال مرئيا، بقعة زرقاء فى الأفق.

عبروا أرضا خلاء ممتدة حيث التقدم أفضل وبدءوا يصطفون فى اتجاه الشمال الشرقى دون أى ظهور للعدو. ثم بزغت الأشجار من الأرض مرة أخرى: الأغصان غير مكتملة النمو، والجذوع جافة متشققة عبر الأرض. اقتربوا من سلسلة تلال منخفضة يمتد بعدها واد متسع يحيطه من الجانبين منحدران تكتنفهما الأشجار. توقف الحاكم العام لينظر خلفه إلى مثلثه. لقد أصر أن يثبت لهيكس العنيد جدا أن

إستراتيجيته بتكوين ثلاثة مثلثات أصغر يحميها سلاح الفرسان إستراتيجية عملية. كانوا أكثر مرونة ينعطفون مع الأرض بدلا من أن تبعثرهم. تقدم علاء الدين باشا فى طريقه إلى الأمام وهو يمتطى جواده مقررا أن يومهم كان يوما طيبا.

جرى الحادث المفاجئ بعد أقل من نصف ساعة عندما كانوا يصلون إلى قمة التل. أخذ جواده خطوة خاطئة وتعثرت ساقه فى فجوة، وغرست فى طبقة ضعيفة من الطين والعشب. سقط الجواد على جانبه وأوقع علاء الدين تحته. أسرع الجنود للمساعدة. انكسر قلب الحاكم العام. "اعتنوا به. أنا بخير". أبعد الرجال جانبا وكأنه يبعد ذبابا.. "اعتنوا بالجواد". الجواد الرمادى معه منذ سنوات طويلة وكان مغرما به. الأمر أكثر من مجرد حظ، ترك الحادث إحساسا سيئا. لقد كان يخدع نفسه. تبخر تفاؤله، مثل صورة غائمة تتلاشى أمام المرء وهو يقترب منها.

"يا سيدى إنه جواد عجوز أصبح طائشا". أدخل البمباشى خرطوشة فى مؤخرة بندقيته. "الساقُ مكسورة".

"إذن، نقدمه لحما للعشاء"، قال أحد الحاضرين مازحا. أوقف علاء الدين الجندى الذى كان يستعد لإطلاق الرصاص على الجواد.

"ليس بالبندقية أيها الجندى سوف تجذبهم الضوضاء إلينا - استخدم الحربة".

"سيدى إنهم يعلمون بالفعل أين نكون" أشار الجندى بمنطق الجنود الغبى.

أضـيف الإحبـاط إلى مـتـاعب عـلاء الدين. "اعطنى هذا واخـفض رأسـه" تلقف الحـربة بيـده. عينا الجواد الكبـيرتان ظلتا ثابـتـين وهمـا تراقبـان عـلاء الدين يقـترب. ربت على رأسـه برفق. وقال وهو يـهدئه:" لا تبالى، إن هذا أفضل". يمكنه أن يشم رائـحة الخوف تفوح منه. ثم غمد نصل الحربة فى رقبته بسرعة. تدفق الدم على يديه.

ظل على ركـبتيه بجـانبه. شـعرت يده بـالرجـفة تسرى فى جسـده. رفس بسـاقـه مـرة ثم سكت. مـسـح النصل على بـاقـة من العـشب وناول الحـربة مـرة أخرى للجندى. وقـال: وهو يمسـح يديه فى سرواله: "احضـر مدنى حتى يضمه لعربة الإمدادات".

أحضر جوادا آخر ونقل إليه السرج. ثم امتطاه وأشار باستعدادهم للتحرك.

"فى النهـاية" غمـغم هـيكس على رأس الصـف "حـتى الجياد اللعـينة تعبت من هذا البلد الكارثى" ركل ركوبته إلى الأمـام وبدأ الجواد الأسـود الثقيل يتـهادى رأسـه إلى أسـفل فى اتجـاه تجويف الوادى الواسـع وفى ذهنه سؤال مزعج يبدو أنه يتجنبه. تقدم إلى الأمام قليلا قبل أن يفاجئه: الطيور، أين ذهبت كل الطيور اليوم؟

١٢- وادى الميلك

مرت ثلاثة أيام. الطقوس تتكرر كل ليلة. والمرأة العجوز تجلس على كرسى عالى الظهر منحوت من خشب الأبنوس الإثيوبى. هى من جوندار تتحدث من خلال فجوات فى فمها حيث تجعل السن المفقودة الهواء يصفر بطريقة غريبة لا يستطيع أن يفهمها سوى التوم. لغة غير مألوفة. تمسك بيد البايب المحشو بالكمنجا المسكرة الحلوة وبالأخرى سلطانية المريسا التى ترشفها من خلال أنبوبة فضية رفيعة. وفى منتصف الفناء النساء يتلوين ويشكين ويرقصن ويضربن بأخمص أقدامهن.

عندما استيقظ كادارو، كان الصباح باردا والهواء خفيفا. ونسمة رقيقة تهب من الجنوب من بين ثغرات الحوائط. الجياد ترعى على مقربة، تخربش فى التراب باحثة عن بذور وبراعم النباتات المتناثرة. حمل الهواء رائحة الرطوبة، إنها تمطر فى مكان ما. على الجانب الآخر من الحائط المحطم، بقايا عربدة الليلة الماضية. الرجال متناثرون ينامون فى الظل. سحر غريب ألقى بظلاله عليهم؛ لأنه لا يبدو أن أيا منهم يخشى أن يؤخذ على حين غرة هنا. ربما أنهم لم يعودوا يعبأون. نام سانجاك جوما نوما سيئا غير مستقر. كان يعوى ويصرخ طوال الليل مناديا على أمه ومقسما أن يطاردهم حتى نهاية الأرض. يصرخ "حتى نهاية الأرض"

وتسقط بعض الحروف؛ بسبب سقوط أسنانه. ورغم ذلك فقد كان فى أغلب الأحيان يئن مثل الرضيع. الآن بالطبع هو ينام مثل رضيع. وضع عبد التوم سعفة نخيل فوقه؛ ليمنع شمس الصباح الباكر من إزعاجه وسمع كادارو الرجال يتناقشون إذا ما كانت أم جوما سورية داعرة، وهو ما يعلم الجميع أنه غير حقيقى؛ لأنها كانت يمنية. لقد كانوا يريدون أن يمسكوا زمام الأمور، فلقد تحملوا ما يكفى. لن يأخذ الأمر سوى طعنة سريعة بحربة. ولكن كادارو يعرف أنه لن يقدر أى منهم أن يقوم بذلك.

مشى عبر الأنقاض ووجد نفسه بعيدا عن المنزل. الرجال والناس، والأولاد والأطفال أشخاص غرباء لم يلاحظهم الليلة الماضية ينامون فى الأركان المنعزلة، ويحتشدون فى مجموعات. عبر بفارس يرقد ووجهه إلى أسفل قابضا على إبريق ميرسا فارغ.

بعد فترة وجد نفسه خلف المنزل. هنا مساحة مغلقة وبعدها حطام أكثر: جوانب من منازل نصف غارقة، أجزاء من منازل الناس. هناك رائحة نتنة لبراز آدمى وبراز جياد أيضا. الريح تمزق سلاسل من التراب، صفحات من عصير الأرض تطفو ثم تسقط وتختفى. هناك برج دائرى منخفض مصنوع من الطين، من الأصوات المنبعثة عرف أنه قن دجاج.

نزل كادارو وزحف ليقترب أكثر، آلام الجوع تقرصه. حدق فى قوس صغير وهناك وجد مكافأته: لامعة، بيضاء وناعمة مثل لؤلؤة. مد يده، أخرج بيضة. ثم وهو جالس بأرجل مثنية كسر أعلى البيضة ومص

المحتويات كثعبان. ابتسم لنفسه الآن، ولف يده على بطنه ثم حملق مرة أخرى.

استطاع هذه المرة أن يكتشف عددا أكبر من الأشكال اللامعة التى تبزغ من حزم القش الصغيرة. مد ذراعه ليكافئ هذه المرة بنقرة حادة على ظهر يده. لعن حظه وجلس يضمد كبرياءه الجريح، مستمتعا بسقوط الشمس على وجهه.

شيء ما جعله ينظر لأعلى حيث كانت الفتاة. ترتدى قميصا بسيطا من القطن الأسود، توقفت على مقربة، تراقبه. قفز وكأنه لدغ. نادته "إنك تسرق بيضنا". رفع يده ليظلل عينيه وبدأ ينفض الغبار عن سترته ذات الأذرع والأزرار المفقودة. ورغم ذلك ما زال فخورا بها.

"كنت جائعا" صرخ مندهشا.

اقتربت. "إنها البيضات الخاصة جدا".

"ماذا" كان يراقب حركتها، الطريقة التى تبدو بها ساقاها دائما متزنة، ساقان تشبهان ساقى غزالة. يشعر بساقيه ثقيلتين وعنيدتين مثل الجذور.

أجابت: "أى رجل يأكلهم يظل هنا عبدا لنا بقية حياته". توقف عن التظاهر بتعديل زيه ووقف صامتا، يداه إلى جانبيه لا يستطيع أن يحكم إذا كانت ما تقوله حقيقة أو مزاح. لقد أصبحت الآن على بعد ذراع منه. لم تكن ممتلئة، - رغم أنها أطول منه بحوالى رأس. كانت واقفة تراقبه. لقد كان مخطئا، فعيناها بركتان داكنتان لا تلمعان. لقد انخفض صوته الآن إلى حد الهمس. وهو يقول: "لقد أخذت واحدة فقط".

ضحكت وشعر برائحتها على جلده، مثل ريش طائر صغير يطير عبر أوراق الشجرة العطرة. بشرتها بلون الليمون، وبذلك تجذب الضوء. قالت: "كنت ستأكلهم جميعا إذا لم أحضر"، وكأنه لا يمكن لشئ فى العالم أن يؤذيها.

كان يحملق فى شكل رقم سبعة الذى تلتقى فيها رقبتها بياقة ملبسها. جعلته خفقة هناك يفكر بإحساس عصفور صغير على راحة يد المرء. لم يستطع أن يواجه نظرتها المحدقة، ولكن وجد عينيه مثبتة على الخفقة المترجرجة. أفزعته بالطريقة التى يفزع بها حصان كسرت ساقه. فكلاهما يتصرف بطريقة غريبة، قد يركلان دون سابق إنذار، لا شأن لذلك بطبيعتها الوديعة. شعر بالنسيم يجفف عرق عموده الفقرى من خلال السترة الممزقة، شعر بالشمس تسقط على شعر رأسه الحليق. كان صغيرا ولا يملأ مركزه.

قالت: "تفوح منك رائحة جياد".

أجاب: "أنا جندى مثلى مثل الآخرين، أعنى أننى شجاع مثل الباقين وربما أكثر شجاعة".

نظرت إليه بشغف. ما اسمك أيها الصبى؟

"كادارو".

"ما هذا الاسم، من أين حصلت عليه؟".

لعق شفتيه الجافتين. من أين تأتى الأسماء. لماذا لم يفكر فى الأمر من قبل؟ شيء واضح بهذا الشكل، أن يسأل المرء من أين اشتق الاسم،

وأن الأمر لم يخطر بباله مطلقا ولا مرة طوال حياته. هز كتفيه، شعر بثقل وتورم فى يديه. " إنه اسم ملائم للجيش".

قالت: "أنا نون Noon" ولكنه يعرف اسمها، عين الشمس تطفو على السماء. عرف اسمها؛ لأنه أعاده لنفسه طوال الليل أثناء نومه، حتى انطبع فى ذهنه مثل الوشم. نون التى تحمل بروحها أسرار الكلمات والكتابة، نظرت إلى الخلف فى اتجاه المنزل.

طوال الأسبوع أجبروها على استنشاق دخان تمائم وأعشاب محترقة. جعلوها تشرب تركيبات غريبة لا يعلمها إلا الله، محاولين إخراج الجن المؤذى من جسدها. كانوا يعذبونها؛ لأنها لم تكن مثلهم، لأنها كانت شابة صغيرة وجميلة ولأنها كانت أحيانا تسقط على الأرض وعندما تسقط يبدأ جسدها فى الاهتزاز والارتعاش وكأن إبليس نفسه هو زوجها. الدم يتدفق من فمها وجسدها يرتفع عن الأرض وكأنها ستطير. رأت نفسها وكأنها حقا تطير فى الهواء، تنظر إلى أسفل إلى نفسها وهى تعض لسانها، ولا تستطيع أن تفعل شيئا لتوقف ذلك. اعتادت على الأمر، ولكنهم لم يقبلوا به أبدا، أينما تذهب يقومون بالطقوس نفسها معها، منذ أن كانت طفلة.. ولكنها لم تعد تخاف من السيدات العجائز وجرعات دوائهن؛ لأنها تدرك أنه مهما كان ما بها فإنهم لا يستطيعون أن يلمسونه، أو يعالجونه، أو يتخلصون منه. إنه شىء خاص بها. فهمت وتحملت.

نون وكادارو يقفان هناك فى صمت. وهو صمت من النوع الذى لا يعرف كادارو ماذا يفعل معه.

سمعا صوتا: سعلة مكتومة، صوت الدجاج، وهديل الحمام، وحفيف الأشجار التى تتخللها الرياح. رفع كادارو يده طالبا منها الصمت، ولكنها كانت قد سمعت الصوت بالفعل. تلاقت أعينهما وتحركا معا نحو الركن المنهار الذى كان يوما منزلا.

كان هناك هيكلان بشريان يجلسان فى ظل ما تبقى من السقف. ضوء الشمس يسقط عبر عوارض السقف المنهار على شكل ألواح طويلة مثلثة. كانا فى الشريط الضيق من الظل، نصف جالسين، يستندان إلى الحائط المصنوع من الحديد والطين، نصف ممددين على الأرض، تكسوهما طبقة من التراب. ريش صغير يتجمع مع روث الطيور يغطى جلديهما ويغير لون ملابسهما. تساءل كادارو لماذا لم يلاحظ الرائحة الغريبة التى تفوح منهما؛ لأنها قوية وغير مألوفة. نظر بدقة أكثر. وجوههما حمراء سلختها الشمس. عيونهما مغلقة ومنتفخة، مثل عيون فاقدى البصر الذين لا يحتملون أن يروا العالم أكثر من ذلك. جلد أيديهما ووجوههما ينسدل فى رقائق طويلة، تنتفه الرياح العاصفة التى تهب حول الركن. هذان الهيكلان لا يشبهان أيًّا من مخلوقات الله على الأرض.

سألته وكأنها تتحدث عن أفكاره: "ما هما؟".

همس: "عفاريت".

كانا يشبهان رجلين من الطيور bird - men سقطا من السماء. مهما كانا فهما يبدوان مثل الأموات لا الأحياء. زحف كادارو ليقترب

أكثر، حتى أصبح قريبا بدرجة تسمح له أن يلمسهما. لا توجد استجابة. ثم تحرك الشخص الأبعد حركة بسيطة. تدلت رأسه إلى أحد الجوانب ثم إلى الخلف ثانية؛ لأن الذباب أخذ يطن حول منخاريه. كان الساتر مليئا بالنمل والذباب. ذراع الأقرب كانت منتفخة وتنبعث منها رائحة عفنة. الآخر كان أطول وأكثر نحافة. وبينما كان كادارو يراقب، سرت بجسد الرجل رجفة. اهتزت رأسه وكأنه يحلم وصدر عنه صوت، الصوت الذى سمعاه من قبل، والذى لم يكن سعلة ولكن صوت يشبه الأنين. فى هذه اللحظة، لاحظ كادارو المسدس. جسم معدنى ذو لمعة كئيبة يرقد مكشوفا على راحة يد الرجل، المستلقية على جذعه. مسدس مثل الذى كان يحمله الميجور حنتوب.

لعق كادارو شفتيه وتقدم بسرعة حتى كادت يداه أن تمسكا المسدس. ولكنه اخطأ تقدير المسافة واحتاج إلى أن يحرك قدمه اليمنى ليصبح أكثر قربا. وبينما هو يتحرك استيقظ الرجل. بربشت عيناه وانفتحت وجلس منتصبا وكأنه يشد بجبل. ارتفعت اليد التى تحمل المسدس وفجأة كان كادارو يحملق فى ماسورته، قريبا جدا لدرجة أنه استطاع أن يرى نملة تزحف حول القمة. عينا الرجل تتقلب فى رأسه. همهم الرجل، وصدر عنه أصوات غريبة لم يستطع كادارو فهمها وسقط مغشيا عليه. حك كادارو راحتى يديه الرطبتين فى سرواله.

همست الفتاة من خلفه: "ما هذا؟". لم يقل كادارو شيئا، ولم يتحرك ولم يرفع عينيه عن المسدس قال: مفكرا "سوف يموتان".

قالت الفتاة: "يجب أن نسقيهما". استدار كادارو لينظر إليها. ما الذى تفكر فيه؟ أصابع الرجل تقبض الآن، بإحكام على المسدس، كان على كادارو أن يسلبه من قبضته.

سحب نفسه إلى الخلف خارجا من الساتر. وقاد الفتاة أبعد قليلا نحو شجرة تين صغيرة. سألته: "هل أنت خائف؟". هز رأسه بالنفى وهو يراقب حدقتى عينيها الداكنتين. قالت: "إنهما يكادا أن يموتا، لا يستطيعان أن يؤذيا أى شخص".

أومأ قائلا: "أعلم ذلك، رغم أن الأمر يبدو عذرا واهيا".

"من أين أتيا؟"

لا أعرف. قد يكونا عميلين سريين أجنبيين، جاسوسين للسلطان".

"إذن يجب أن تساعدهم".

لم يكن كادارو متأكدا. حملق خلفه فى الساتر الطينى. يجب أن يخبر الآخرين. عبد التوم سيعرف ما يجب أن يفعله. سمع نفسه يقول: "هم فرنجة".

ضحكت نون.

ماذا يفعلان هنا "واصل حديثه "ولماذا يختبئان هناك، حيث المكان قذر وذو رائحة كريهة؟".

أجابت بثقة لإخفاء أثرهم بالطبع".

"عن من؟".

"أى شخص. اللصوص، الدراويش، الجواسيس، نحن".

أتى أنين آخر مفاجئ من خلف الحائط. وقفا ساكنين تظللهما أوراق الشجر. قررت نون وبدأت تسير نحو حوائط المنزل المرتفعة.

سألها: "إلى أين تذهبين؟".

قالت وهى تسير: "يجب أن نسقيهما وإلا سيموتان".

جلس مستندا إلى الشجرة، وهو يلقى بالأحجار حتى عادت وهى تحمل قدر ماء صغيرة تحت ذراعها. قدماها الحافيتان تركلان حاشية ثوبها الطويل وهى تسير.

"ألست خائفة؟".

نظرت إلى عينيه مباشرة. وقالت:: "لماذا أخاف؟".

دفع بغصن كان يمضغه من بين أسنانه إلى خلف أذنيه، وتبعها. لماذا قلت إنه يجب أن أساعدهم؟".

استدارت لتواجهه، وهى تخفض قدر الماء: "لأنه لو ساعدتهم سوف يكافئونك وتعيش فى القصر مع السلطان".

ألقى كادارو برأسه إلى الخلف وضحك، ثم وقف ساكنا.

رفع القدر عنها وتقدم فى الطريق. عندما وصلا إلى الساتر توقف. قال: "من الأفضل أن تظلى هنا، قد يحاولان القيام بأى فعل".

"لم ينجح معى أى رجل فى هذا الأمر" أجابت بهدوء: "أنا محمية". فكر كادارو في ذلك لوهلة ثم أشار إليها بالانتظار بينما نظر حوله ليرى إذا كان الوضع آمنا.

"هو مجرد صبى" همس الشخص النحيف "مجرد صبى". حمل كادارو القدر له ليسقيه. شده الرجل ليجعل كادارو يقفز إلى الخلف وكأنه إنذار.

هاميلتون إلزورث، هيكل رث الآن بالنسبة لحالته السابقة، حمل القدر وأومأ ناحية سبراتلنج. ولكن الرجل الأكبر سنا لم يستطع أن يشرب حتى حملا رأسه وألقيا رشفات فى فمه.

همست الفتاة "انظر إلى ذراعه".

مال كادارو إلى الأمام. "شوكة. لم يخرجها فى الوقت المناسب. الذراع بأكمله مسموم الآن" قال: ذلك بثقة شخص يرى مثل هذه الأشياء دائما، رغم أنه لم ير إصابة إلى هذا الحد سوى مرة واحدة من قبل فى غزال، أكلوها ما عدا الساق المصابة بالطبع. الناس عادة يستطيعون إخراج الشوك الملتف فى الوقت المناسب.

تبع كادارو نون نحو المنزل. قالت: "إذا أخبرت الآخرين عن هذا الأمر سيقتلونهما". نظر إليها. فقالت: "عدنى أنك لن تأتى إلى هنا دونى؟". أخيرا، أومأ بالموافقة. ضحكت وسارت، واختفت عبر الباب الصغير فى حائط البيت الكبير. تبعها كادارو وهو يركل الأحجار.

١٣- شايكان

نوفمبر ١٨٨٣

اندفعت طيور الحباك من الأشجار مع شروق الشمس، مثل أفكار مختارة تنفجر من ذهن غير منظم. انتشرت، ثم عادت بقوة مرة أخرى، مالت إلى أعلى وأعادت الكرة على شكل حرف الواو. إنها علامات نعرف من خلالها معجزة الوجود. الحروف التى نتعلمها، اللغة التى نستخدمها لنصف العالم والتى تصفنا بدورها .

أمر غامض، بدأ الرعد يتحرك وتوقف العالم عن الدوران. على رقعة أرض مرتفعة منبسطة وجافة احتشدت مجموعة من راكبى الجياد. أذيال الجياد ترتعد من سرعة الجرى، تهتز إلى الخلف وإلى الأمام بعصبية. نزل الركاب من فوق جيادهم وتحركوا بسهولة على أقدامهم فى اتجاه حافة التل، إلى نقطة حيث الريح تهب عبر شجرة سنط ذات شكل غريب تميل إلى الأمام وكأنها ستسقط فى الهاوية إلى أسفل. تملأ الوادى حركة آلاف النمل الصغير، أربعين ألف بالتحديد، إنهم الأنصار يتحركون عبر الشجيرات الخفيضة كثيفة الأغصان والأشجار، مشغولون بالاختباء فى جوانب التل والمنحدرات البسيطة؛ ليختفوا عن النظر وكأن الأرض قد امتصتهم.

فى وسط مجموعة الحاضرين رجل نحيف فاتح البشرة مما يميزه عن الآخرين. فك الغطاء القطني الأبيض الطويل الذى كان يلتف حول رأسه ووجهه. تراب الركوب تغلغل فى خطوط وجهه الرقيقة. الشمس تميز عينيه الداكنتين اللتين تنفذان إلى القلب والهواء تملؤه رائحة المر غير المميزة.

وبجانبه رجل أطول وذو بشرة أغمق، عريض المنكبين كمحارب ومرن الحركات كمصارع، يقف صامتا. له ذقن رفيع نحيف سلكى الشعر. ملامحه أكثر صرامة وعيناه يبدو عليهما اهتمام وذكاء أكثر من الرجل الآخر.

يتحرك دون هوادة، ويراقب بثبات. حملق فى السهل البعيد ورفع ذراعه مشيرا "هذا معسكرهم يا سيدى" أنحرفت عينا محمد أحمد المهدى فى اتجاه السهل غير الواضح. لم ير سوى الرمال وقليل جدا من الأشجار. أومأ برأسه. لمس واد النجومى كتفه، صحح "أبعد قليلا إلى اليسار". شكر المهدى أميره، وظهر عليه قليل من الضيق، واستدار للآخرين "ها هم" أكد "فليرحمهم الله". صدرت همهمات الموافقة، ابتسم المهدى قائلا: "لا يخاف أى منكم الموت اليوم، فالنصر لنا". رفع يديه أمام وجهه "الرسول محمد معنا وجيش من الملائكة سيحارب إلى جانبنا".

جعل يده على شكل كوب ووجهها إلى أذنه وهو يبتسم ابتسامة غريبة "تستطيعوا أن تستمعوا إلى غنائهم". أبو أنجا موجود، وهو قائد قوات الجهادية المدربة: الجنود الناجون من معارك الخديوى وأسروا من

حصون الأبيض وبارا. استدار ليتلقى رسالة من أحد الملازمين الأوائل الذى أتى قفزا بشكل رياضى إلى أعلى التل. الشمس تصعد فى السماء. الرجال فى أماكنهم، حامل الرسالة أخبره بالأمر. استدار أبو أنجا، رجل قوى البنية ورزين، لينقل الأخبار ولكن المهدى المنتظر كان قد سمع. فخطا عابرا أبو أنجا ليضع يديه بثبات على كتفى الملازم". أخبر جنودك أن الله يؤكد صدق شرعية هدفهم. إن الرجال القادمين هم سادتكم السابقون، الذين كانوا يستعبدونكم. أخبر رجالك أن كل المؤمنين متساوون أمام الله. تلألأت الشمس فى عينيه، الابتسامة الغريبة ما زالت على وجهه، لدرجة أن واد النجومى نفسه رغم خبرته العسكرية وقوته البدنية أثر فيه وجود المهدى .

كان هناك حقا نور حول هذا الرجل. إنه هو نفسه لم ير أبدا ملاكا طيلة حياته، إذا كانت هناك لحظة شعر أنهم قريبون، هذه اللحظة هى الآن. ألقى نظرة خاطفة حوله على المجموعة المحتشدة. أولا هناك الخلفاء الثلاثة، والحائز الأكثر على الثقة فيهم هو عبد الله التاعيشى، البدوى الذى كانت رحلته من الأراضى الغربية ليجد معلمه المختار، أسطورة حقيقية.

يقول بعضهم: إنه أول رجل يدرك أهمية بعثة المهدى. ثم هناك محمد شريف من دنقلة وعلى واد هيلو من كنانة، الذى عرف محمد أحمد منذ الفترة التى كان يتنقل فيها فى هذه المناطق مع إخوته؛ بحثا عن أخشاب لبناء مراكبهم. يصحب كل خليفة أميرا؛ وهم بالترتيب يعقوب وآدم ونجومى نفسه. المهدى هو المحور أو النقطة الثابتة التى يدورون

حولها جميعا. كان يضرب الأرض بأخمص قدميه لا يطيق صبرا؛ ليعرف ما إذا كانت كل الترتيبات قد تم الاعتناء بها. سأل "هل صدرت الأوامر لأبى جرجة وعبد الحليم، أكد نجومى ذلك: "سوف يهاجمان مؤخرة الصف، فى الوقت المناسب" أومأ المهدى بسرعة ثم تفحص الوادى بدقة مرة أخرى ليرى كيف تجرى الأمور. نظر الآخرون بعضهم إلى بعض. قال: محمد شريف ملقنا الآخرين بحماسة الإحساس بالذات، "النصر لنا". "إن ملاك الموت يركب معنا".

كان محمد شريف أصغر سنا من الآخرين والأكثر قربا إلى محمد أحمد من ناحية قرابة الدم، وبخه محمد أحمد وهو يستدير إلى مجموعة الرجال قائلا: "يجب أن تتذكر يا محمد، أن هذا نصرٌ صغيرٌ". سوف نتقدم من هنا. نظر حوله إلى الآخرين، وهو يشير بيديه. "إلى مصر والقاهرة. وإلى الأراضى المقدسة، إلى مكة والمدينة". صدرت من الآخرين همهمة كورس: "إن شاء الله". هز رأسه قليلا وكأنه يتساءل عن عظمة كل ذلك "أصلى من أجل أن يرى الكفار أنه لا معنى لمقاومة إرادة الله. تذكروا" أضاف وهو يرفع إصبعه" ليس هدفنا أن نقتل هؤلاء الأجانب الدخلاء، ولكن أن نعيد إرادة الله إلى الأرض. إن مهمتنا قد بدأت الآن، "الله أكبر!" صدرت عن على واد هيلو. كبّر الآخرون بصوت عال، ما عدا نجومى، فقد كان صوته ضعيفا. استدار المهدى فى اتجاهه وابتسم ابتسامته المحبة "ولد نجومى يفكر فى إستراتيجيته العسكرية. لا تقلق ذهنك، إنك محارب عظيم وأثبت جدارتك عدة مرات. لقد واجهت فزع المعركة أكثر من أى واحد منا، ولديك إيمانك لتحتمى به، دائما تذكر أنك

لست وحـدك". ارتبك واد النجـومى وخطا إلى الخلف وهو يحنى رأسـه "الله رحيم وكريم"، سمع نفسه يهمهم. أومأ المهدى وقاد الطريق نحو الجياد .

ارتفعت الشمس فى السماء واقتربت سحابة الغبار الصغيرة، والتى تعلن اقتـراب العـدو، فى الأفق. كـان الوادى إلى أسـفل سـاكنا. بقى الرجال مختفين، أعلى وأسفل جانب التل ومتناثرين أيضا فى مجموعات أسفل الوادى نفسه والذى يجب أن يسير خلاله الجنود .لا شئ يتحرك. خطا المهدى تجاه حافة التل واستل سيفه. رفعه عاليا فى الهواء لدرجة أن الشمس التصقت بشفرته وصـاح، والريح تحمل صـوته: "لا إله إلا الله". وجاء الرد ملتفا من الوادى من أسـفل. كـان صـوت الرجال غيـر المرئيين يغنى مـثل صـدى، يلتف من تحت الأرض. يـأتى من التـربة التى تحمل الجـذور، من بين شـقـوق الطين الذى حـرقـتـه الشـمس يـأتى مع النسيم الذى يتعلق بالرايات المعلقة على أطراف الأشواك الحادة. والرد كـان عـمـيـقـا وخـفـيـضـا وبقـوة أربـعـين ألف فـرد "الله أكـبـر" - كـانوا مستعدين.

١٤- وادى الميلك

نوفمبر ١٨٨٣

لم يلاحظ أى من رجال السرية التاسعة من فرسان الخديوى غير النظاميين غياب يد الإسطبل الصغيرة الخاصة بهم. الجياد لا تموت أو تشتكى، بل يتم إطعامها وسقيها بانتظام. ولا أحد يهتم بشكل خاص بالجياد هذه الأيام، إنهم مشغولون أكثر بالنساء والمريسا المخمرة المسكرة التى يبدو أنه يوجد منها مخزون غير محدود فى الحجرات المظلمة الباردة تحت المنزل. أثناء النهار يجلسون فى الشمس فى أشكال متعددة من العرى أو يرقدون على ظهورهم فى الظل ويحملقون فى الشمس. من حين لآخر تندلع معركة ولكن لا أحد لديه طاقة ليعارك، ولذلك كانوا يشتمون بعضهم بعضا لوهلة ويعدون بالاهتمام بأمر العمل فيما بعد. حتى النساء لم يعدن يجذبن اهتمامهم كما كن فى بادئ الأمر، ما عدا فارس الذى نادرا ما يأتى من الحجرة العلوية التى اغتصبها لنفسه. كانوا يرونه مرة واحدة كل يوم يقف فى الشباك الواسع يمد ذراعيه ويتمطى قبل أن يستدعى إحدى الفتيات لتأتى إليه. ملت منه الفتيات ولكن لحسن الحظ مع وجود تسع عشرة فتاة هناك ما يكفى ليظل مشغولا. معظم الرجال كانوا يفضلون النوم. وهاب يجلس فى الشمس ينظف بندقيته أو يصلح سرج حصانه، يثقب كل القواقع التى

يجدها فى حزام الرصاص الخاص به ويغليها. لا أحد يفكر فى الجياد؛ لأنه إلى أين يذهبون من هنا؟ ولا أحد يعير اهتماما إلى مكان الصبى ما عدا عبد التوم، الذى أغرم بالمكان ويقضى وقته إما بالتجول صعودا ونزولا بحثا عن أشياء يصلحها أو بمساومة العجوز الشمطاء، التى تقول دائما وهى تسحب ماسورة البايب الملساء الناعمة المصقولة المصنوعة من العاج المنحوت من بين لثتها الحمراء وتلصق شفتيها إحداهما بالأخرى باستمتاع: "أنا حريصة جدا على وضوح حساباتى وسوف أرسل بهذه الفاتورة إلى الخديوى ذاته".

أصلح عبد التوم النوافذ التى كانت معرضة للسقوط على رءوس الناس. كان يلف الشرفة العلوية ليبدل أعمدة السور المحطمة. بدأ منزل الباشا فى تلقى بعض الاهتمام الذى كان يتوق إليه منذ عدة سنوات.

يوما ما وبينما هو على السطح يحاول ترميم بعض الشقوق بالقش وطبقة مخلوطة من السعف والطين، لمح كادارو يخرج من جدار أحد الأبنية المحطمة خلف المنزل ومعه الفتاة الغريبة، نون، التى تنظر إليها المرأة العجوز بوصفها لعنة عليها؛ لأنها نقلت عدوى مرض تناسلى خطير لكولونيل تركى عابر، فى العام السابق لمولدها سأل عبد التوم نفسه: "ماذا يفعلان الآن؟".

هذا المساء وبينما كان الآخرون يأكلون تبعهم عبر باب المدخل فى الجدار الخلفى. نادى "كادارو"، ليوقف الصبى فجأة وهو يثب. وقفت الفتاة بجانبه ساكنة. "ماذا لديكما هناك؟"، ظل "كادارو" و"نون" صامتين. تقدم عبد التوم خطوة إلى الأمام ولكن الفتاة اعترضت طريقه.

نظر الرجل العجوز جيئة وذهابا بينهما . بدأ يضحك، ضحكة خافتة صادرة من حلقه "ما هذا ؟" سأل "هل وجدتما جروا صغيرا؟" غمز بعينه، "أم أنكما تتعلمان كيف تصنعونهم؟"، لم يجب أحد منهما.

قال: عبد التوم بهدوء: "دعوني أرى". تنهد "كادارو" الذى يحمل الصينية وهز كتفيه دون مبالاة. خطت نون خطوة إلى الوراء ورفعت المسدس. نظر الرجل العجوز نظرة غريبة من عينيه الصارمتين ذات اللون الفاتح اللتين تشبهان الكهرمان المصقول. "من أين حصلت على هذا ؟" شعر كادارو باضطراب فى معدته. لم تتحول عينا الرجل العجوز إليه مطلقا بل ظلت مثبتة على الفتاة التى لم تصدر عن معصمها النحيف أية رعشة "ماذا قلت لك يا فتى؟ همس. "فليحمنا الله من النساء؛ لأنهن بالتأكيد أغرب المخلوقات التى خلقها الله فى هذا العالم على الإطلاق".

وقف ثلاثتهم هناك. غير عبد التوم موضع قدميه. فقد تيبست ساقاه "إذا كنت ستطلقين عليَّ الرصاص فهيا قومى بذلك" قال: بعد فترة. تفحص كادارو قائلا: "سوف تكتفى بالوقوف هناك؟"، تردد كادارو، ممزقا بين الرجل العجوز والفتاة. "سردارين من الفرنجة" أفشى كادارو السر دون تفكير.

"ضابطان من الفرنجة هل أنت متأكد؟ ليسا تركيين؟".

تجاهل كادارو لمعة عينى الفتاة وأومأ برأسه بسرعة.

"من أين أتيا؟" حك الجندى العجوز الشعر الأشيب فى فروة رأسه. أشار إلى المسدس "أعطوك هذا؟".

"أخذته" ردت بإصرار. "إلى أين ستأخذانهما، أسيراكما؟"، قال الصبى: "إلى الخرطوم". ضحك عبد التوم واستدار مبتعدا. مشى بخطى بطيئة بأرجله المقوسة عبر الظلام نحو البيت، وهو يقول مقررا: "فقط احرصا على هذا المسدس، فمهما وعدكما ضابطاكما فسوف تحتاجان إليه".

فى منتصف نهار اليوم التالى جاء زنزبير ممتطيا جواده بسرعة جدا إلى الفناء. فقد رأى سحابة تراب تتحرك بسرعة تتلاءم مع حركة فرسان، تأتى فى اتجاههم.

"قد يكونوا فرساننا" نخر فارس، الذى لم يكن يريد أن تنتهى حالة الرضا والطمأنينة التى يعيشها.

إلا أن وهاب وقف مسرعا وقال: "إذن تخبرنا عندما تكتشف الأمر". "لن أنتظر".

انقسم الآخرون على أنفسهم إلى حد ما ودارت مناقشة قصيرة. "ماذا عن الفتيات؟" سأل رازق. اثنان من الآخرين، مخدرين وساكتين؛ بسبب إقامتهما، غمغما بموافقتهما.

أذعن قائلا: "نأخذ أكبر عدد يوافق منهن على الذهاب معنا". تحركوا بسرعة الآن، يجمعون أشياءهم بعضها مع بعض، ويجمعون البنادق وأكياس الذخائر الحربية. "ماذا عنك أيها الصبى؟" سأله وهاب وهو يصعد على سرج جواده. هز كادارو رأسه. هز البمباشى كتفيه. "إنها حياتك".

ساروا فى صف يسارعون الوقت، تبدو الجياد متربة ونحيفة أكثر من أى مرة رآها فيها. الفتيات اللاتى ركبن كل اثنتين على العدد الفائض من الجياد، كن يبكين لسبب ما. رفع زنزبير بندقيته للتحية قبل المغادرة. كان فارس ورازق فى وسط معركة. ظهر عبد التوم وهو يقود الجواد الذى يجر المحفة التى تحوى بقايا سانجاك جوما. "إنك تكاد أن تكون أكثر طولا منى الآن" قال الرجل العجوز لكادارو: نظر إلى العنان فى يديه لحظة، ثم نظر إلى الأفق وهز كتفيه.

وهكذا تقرر الأمر. لأول مرة يبدو عبد التوم طفلا إلى هذا الحد. تذكر أول مرة التحق فيها بالباش - بوزوك. كانت أمه قد باعته للجيش، رغم أنه لا يعرف الظروف بالضبط، كان يتذكر فقط رائحة دافئة ومريحة تأتى إليه فى الليالى الرطبة فى موسم المطر وهذا هو أقسى أنواع الحزن أو الفقد التى شعر بها.

كان التوم هو الذى استقبله واعتنى به وكأنه ابنه. وكان التوم الذى يتأكد من أنه قد حصل على طعام كاف، وهو الذى حماه من الأصابع الضالة لهؤلاء الذين يبحثون عن من يستغلوه لمتعتهم الشخصية. تحدث عبد التوم إليه كإنسان كبير وليس كطفل. كان يقرأ له من القرآن، وكان يتحدث إليه عن الدين، سر الأسرار. وعندما كان يتحدث كان حديثه يبدو منطقيا.

"لماذا حتى الرسول محمد نفسه لم يكن يعلم ما رسالته".

"سمع كلمات الملاك جبريل".

"نعم ومتى بدأ عقله يدرك هذه الكلمات الرائعة، عندما بدأ وهو الرجل الأمى، يتدفق بشعر بهذا الجمال والحكمة، تصور ماذا كان شعوره؟ لقد كان يتعذب".

"إلى متى يجب على أن أنتظر؟".

"حتى تتأكد أن الصوت الذى تسمعه هو الصوت الحق".

كان البيت خاليا الآن. الريح تهب عبر الحجرات الكبيرة. التراب مستقر على أرض الحجرات فى الأركان وعلى المرأة العجوز التى تجلس وحيدة على كرسيها الكبير تنتظر. نون تنتظره فى الخارج عند خن الدجاج، بين الجدران المحطمة والطيور الميتة. انتظرت وذهب إليها مثل الحلم. كان معهم الحيوان الوحيد الذى تركه الآخرون، بغل عجوز وجدوه يتجول بين الأشجار الشائكة خلف المنزل. الأصغر سنا من "الجنرالين" كان مستيقظا استطاعوا معا أن يركبوا الأكبر سنا، وهو الذى كانت ساقاه أضعف من أن تحملاه على البغل وربطوا معصميه إلى البغل ليحموه من السقوط. ثم استدار كادارو وقاد طريق الخروج من القرية المغمورة. لم ينظر أحد منهم خلفه ولو لمرة واحدة.

١٥- معركة شايكان

من ٣ - ٥ نوفمبر ١٨٨٣

وبينما هم يسحبون الجواد الميت على طرف الوادى، اكتشف مدنى مجموعة من أغصان شجر الدردار وفكر فورا "حطب الوقود". قفز من العربة الكارو، وحث البغل العجوز على التوقف وهو يسلم العنان للصبى الذى كان يجلس بجواره. ثم مشى بجانب العربة وهو يجمع الأغصان ويلقيها فى الكارو. وبعد فترة نادى على الصبى؛ كى ينزل لمساعدته. ثبتوا غصنا خلف إحدى العجلات ليعمل كفرملة. "دع هذه الكارو تستمر فى الحركة" نادى بمباشى يمر عليهم، ولكن مدنى لا يعبأ بالالتزام بشكل الصف، إنها مهمة شخص آخر.

أومأ قائلا: "نعم، نعم". "يقولون ما يشاءون" همهم لنفسه، ولكنى أعرف على من يلقى اللوم عندما لا يكون الشاى جاهزا؛ لأن الخشب رطب جدا وداخن. كان بالفعل راكعا على الأرض يسحب جذع شجرة سميك ليمرره من تحت شجيرة مسكيت خفيضة عندما بدأ إطلاق الرصاص، صخب هائل وكأنه يصدر عن انهيار جبل تحجر قلبه. "فليهدم الله منازلهم". كان على وشك الوقوف عندما انطلقت رصاصة ضالة عبر أوراق الأشجار فوق رأسه وارتطمت بشجرة محدثة صوت مكتوم. ألقى بنفسه على الأرض وبينما هو يقوم بذلك رأى الصبى يتسلق إلى داخل

الكارو ليرى بشكل أفضل. كان على وشك أن يناديه، ليقول له أن يجلس عندما انحدر الصبى إلى الخلف لينزل على كومة من الأكياس فى مؤخرة الكارو. لا بد أن الرصاصة قد اخترقت صدره مباشرة، لم يصدر منه أى صوت.

مدنى يستلقى ساكنا ووجهه مضغوط فى الأرض. الرصاصات تطير فى كل اتجاه والرجال يندفعون فى كل مكان وهم يصيحون. سمع صوت انطلاق أحد المدافع الرشاشة الكئيب. زحف إلى الأمام ورأسه ملتصق بالأرض حتى استطاع أن يحدق إلى الوادى. كلا الجانبين وقاع الوادى مليئان بدخان البنادق. النيران تأتى من كل الزوايا . زحف إلى الخلف فى التجويف الذى كان يستلقى فيه، شبك يديه فوق رأسه وأغمض عينيه وبدأ يصلى.

إلى أعلى، بغل التحميل الذى يركبه شيروود لوث بدأ فى الفرار مذعورا وألقاه من على ظهره وهو يركل ويصهل. اختفى بين الأشجار الخفيضة الكثيفة. تاركا إياه على ركبة واحدة تحيطه من كل جانب حالة من الهياج. فى كل مكان ينظر إليه يرى رجالا يتساقطون، إما جرحى أو قتلى لا يستطيع أن يحدد بدقة. بجانبه يستلقى جمل ورأسه مشقوق لسبب غير معروف. سمع صوت صراخ ولم يدرك لوهلة أنه يصدر منه، صراخ بأعلى صوته. رأى العدو أيضا . من المدهش مدى بساطة مظهرهم: عجائز، ورجال طوال ونحاف، وصبية صغار بالسيوف الصدئة نفسها والبنادق التى عفا عليها الزمن، حفاة يرتدون ثيابا خفيفة ممزقة مرقعة، رأى الجنود يشكلون صفوفا محاولين تنظيم نسق إطلاقهم للنار

بأفضل ما يمكن. وضابط عار الرأس يصدر أوامر الالتزام بالنظام بجانبهم حتى سقط أيضا فى فوضى الدخان والأجساد.

كان العدو يحيطهم من كل مكان. ينفجرون ببساطة من تحت الأرض. أصدر الجمل الميت رائحة بول دافئ. جوانبه ممزقة مسلوخة الجلد حيث حفرتها الأحبال والسروج. كان الناس يقفزون فوق شيروود. رأى رجلا جريحا تتدفق الدماء من رأسه، وآخر وحالة من عدم التصديق على وجهه محاولا سحب رمح من صدره. شيء ثقيل سقط على ظهر شيروود وانتابته حالة ذعر. تلوى وركل بسيقانه وأخذ يلكم ويتقلب حتى أصبح حرا.

اكتشف فيما بعد ما كان يضغط عليه، جسد ميت. الآن فقد سمعه تقريبا، دقت أذناه بصوت انفجار البنادق المستمر. كان الجنود يطلقون النار بأسرع ما يمكنهم إعادة حشو بنادقهم من طراز ريمنجتون ولكن الأنصار كانوا أسرع من أن يستطيع الجنود أن يصرعونهم.

وبينما هو يزحف محاولا أن يحفر طريقه فى الأرض وهو يتشبث بحفنات منها بقبضة يديه، استقرت يده على بندقية أسقطها جندى. كانت ماسورة البندقية دافئة وكأنها عضو حى ملقى على الأرض. أحاطتها يده لحظة ثم دفعها بعيدا بسرعة. سقط على الأرض أمامه رجل جريح يتدفق الدم من ثقب فى صدره.

كل مرة يحاول فيها التنفس، تنبثق موجة أخرى من الدم. تدلت رأسه إلى جانب وتعلقت عيناه وهو يسقط بشيروود وجمدته فى مكانه.

تلقى المثلث الأمامى الوطأة العظمى لأول موجة من نيران حاملى البنادق. لقد كانوا يصلون إلى أعلى الهضبة الحجرية الصغيرة التى تميز نهاية قاع الوادى عندما بدأ إطلاق النار. رأى الجنرال هيكس الأرض أمامه ترتفع فى نوبة من الرجال غير المدربين الهمج والتراب: موجة من الرجال بينما منذ دقيقة كانت الأرض ساكنة. بجواده، اندفع جندى إليه، منتهزا الفرصة وحاول سحبه من السرج؛ لتأمين هروبه. سحب هيكس سيفه وصرع الجندى فى فورة من الطعنات السريعة. صاح آمرا الآتين من الشمال فى اتجاه جناحى الجيش الأيمن والأيسر. ظهرت مجموعة من الأنصار من بين الأشجار تحركوا فى اتجاهه. ظن أنهم يشبهون الطواويس بالملابس ذات الرقع الملونة التى يرتدونها.

إلى الخلف على الجانب الأيمن للجيش كان علاء الدين باشا يكافح لينزل من فوق جواده الذى يدور مفزوعا. عانى ليسيطر عليه، لقد قطع سير اللجام، قطعه صبى انحنى تحت رأس الجواد لتجنب ضربات سيفه. حرر إحدى قدميه ولكن الأخرى علقت. تملكه الذعر، صرخ وركل بقدميه واستطاع أن يحرر نفسه. سقط على الأرض وسحب مسدسه فى الوقت المناسب ليرى لحية رمادية عجوز لرجل ظهر خارجا من تحت الأرض وجرى نحوه وهو يحمل رمحا طويلا. وهو شبه مغيب عن الوعى رفع ماسورة مسدسه وجذب الزناد فاختفى الرجل عن النظر. كل ما حوله كان صرخات تطلب النجدة لرجال يموتون.

نادى على البمباشى ليجمع الجنود وسحبت الإبل إلى حاجز. كان يحتاج إلى أن يعرف كيف سارت الأمور مع هيكس ولكن فى صخب

الرجال والجياد كان من الصعب أن يرى المرء أبعد من ياردات قليلة. كانوا في أرض خالية صغيرة بين الأشجار تحيطها الأعشاب والأشجار الخفيضة الكثيفة. سيحتاجون إلى استجماع قوتهم والانسحاب لأعلى المنحدر خارجين من الوادي. هيكس ورجاله كانوا في المنخفض في قاع الوادي. في شرك تام.

حدثت معجزة، هدوء في القتال. ضعف إطلاق النار في جوانب التل وأصبح يجيئ شيئا فشيئا. بدأ الجنود يستجمعون قواهم، يظهرون من بين الأشجار، يزحفون على بطونهم، يجرون وكأن الشيطان نفسه خلفهم. يسقطون على وجوههم، يلتصق بعضهم ببعض يركعون وظهورهم ملتصقة بعضها ببعض، يطلقون النار يحشون أسلحتهم بالطلقات، ويسحبون جثث البغال والجياد الميتة حولهم لحمايتهم. الصمت مثل معجزة هبطت عليهم. لا يجرؤ أحد على الحركة؛ خشية أن يقطع فترة الراحة ويسقط عليهم النار مرة أخرى. أحدهم يبكي، نشيج متقطع. الهواء ثقيل مع طنين الذباب. رائحة البراز والدم والموت معلقة عفنة فوقهم. تنبعث من التراب والعشب. يتشبثون بعضهم ببعض، كتف إلى كتف. عيونهم تبحث عن أي حركة ولكن ليس هناك حركة. جاء السكون فجأة واختفى الجحيم.

اقترب الغسق وبدأ الضوء يخفت. تحرك علاء الدين بين الجنود. ارتفعت العيون الشاحبة لتلتقي بعينيه ثم تنظر بعيدا. هناك همس أعلى الأشجار. أجنحة تخشخش في العشب الطويل. يتوقف هنا وهناك ليطمئن الجنود. أية كراهية كانت بين الجنود والضباط انتهت الآن.

يغطى الذباب الذى يطن بوحشية جثث الحيوانات الميتة، وتدور الصقور فى دوائر متواصلة. هبط الظلام. تم توزيع الطعام القليل المتاح. وتقسيم حقيبة ذخيرة حربية. وعزفت الكلاب المفترسة سيرنادة من العواء وهى تحدق بأعين حمراء ومتلهفة من بين العتمة، بعضها جرؤ على المجىء وأخذ يتشاجر ويمزق فى الجثث، ظلت طوال الليل تعوى دون هوادة. من حين إلى آخر يفقد أحدهم أعصابه فيطلق بعض طلقات فى الهواء على النجوم غير المألوفة التى تومض بين الأشجار.

طوال الليل أصوات تنادى برقة من جوانب التل تحثهم على تسليم أمرهم لإرادة الله. صبى يتلو آيات من القرآن من سورة الفاتحة بصوت جميل جعل الجنود المحاصرين يبكون.

جاء الفجر ومعه إطلاق النار. أية جذوة من الأمل قد يكون خيالهم قد لمسها فى الظلام الموحش انطفأت على الفور. لقد حوصروا. لا يستطيعون الحركة سواء إلى الأمام أو إلى الخلف. فكر علاء الدين أنه أمر غريب. "يبدو أنهم غير متعجلين. ليس لديهم أى خوف منا على الإطلاق".

فى وقت متأخر بعد الظهيرة كانت هناك فوضى بين الأشجار إلى أعلى. مجموعة من الجياد والإبل جاءت مندفعة إلى الخلاء. بين الصخب لمح علاء الدين جنرال هيكس لا يزال راكبا جواده يلوح بسيفه بيد ويطلق مسدسه بيده الأخرى. كان يقود الحيوانات كدرع أمام رجاله المرهقين. يحاولون اختراق خطوط العدو. "اصعدوا" صرخ علاء الدين وهو يقف.

"يجب أن نساعدهم". قام الجنود وبدءوا يتحركون معا إلى الأمام. "جنرال" لوح علاء الدين بيده وصاح. ظن لثانية أن هيكس نظر إليه وابتسم، ولكن في هذه اللحظة ظهرت مجموعة من الأنصار من بين الأشجار مثل جماعة من النحل. ومثل رجل يحاول أن يسبح ضد التيار، كافح علاء الدين ليتقدم. بدا الجنرال على حافة السقوط في أيدى العدو. كان مسدسه فارغا. رآه علاء الدين يلقيه على الأرض وبدأ يضرب ضربات متوالية رجلا يحاول بسرعة جدا الانحناء تحت رأس جواده من جانب لآخر وكأنها لعبة ثم سقط الجواد ونزل هيكس إلى بحر الأذرع والوجوه ليختفى. اندفع جمل وكان على علاء الدين أن يقفز بسرعة ليتجنب أن يصرع. احتدم إطلاق النار محدثا ضجة لدرجة أن صراخ علاء الدين مثل المجنون لم يكن يسمع مطلقا.

وجد علاء الدين نفسه وحيدا فجأة. استدار ليرى صبيا لا يزيد عمره عن اثنى عشر عاما يقوم من على الأرض ويدفع سيفا قصيرا عريضا بين ضلوعه. شاهد شفرة السيف غير المنتظمة تختفى وشعر بألم شديد ثم خدر. انتزع السيف القصير من يد الصبى بينما الحاكم العام قد ترنح إلى الوراء. استجمع الصبى قوته واندفع إلى الأمام وأسقطه على الأرض. استلقى علاء هناك. مقبض السيف الحديد مربوط بسعف النخيل، وليس حتى بالجلد المدبوغ. أسره شكله وملمسه. رفرفت شعرة في الهواء. فكر أن هذه هى الطريقة التى يموت بها الناس منذ قرون طويلة. يستطيع أن يسمع الهواء يهرب من رئته المثقوبة مثل صخب بحر عن بعد. كان العالم ساكنا، ما عدا هذا الصخب الذى يصدر فى

أذنه وكأنه من صدفة بحر. نفحات من دخان الأعيرة النارية ما زالت تثور من جانب التل، منظر جميل مثل حقل القطن يلوح عند الشمس. وقف الصبى لدقيقة ثم انقشع الشك من على وجهه وخطا إلى الأمام متهللا مبتهجا. وضع قدمه الحافية على سترة الرجل المقتول وسحب سلاحه ورفعه إلى أعلى. أدار رأسه وصرخ "النصر لنا".

عندما توقف إطلاق النار كان مدنى الطباخ يستلقى على بطنه تحت مجموعة من الأشجار الكثيفة المنخفضة حيث قضى ليلته. الأشواك تنقر فى لحمه ولكنه لا يشعر بألم. النمل يزحف فى خط طويل على ساقيه ويقرصه حتى انتفخ كل جسده، إلا أنه لم يطلق أى صوت. يغطى وجهه التراب حيث دفن نفسه فى الأرض. جواد لا يمتطيه أحد يصلصل، ساق متدلية من ركاب. وكان يريد أن ينتظر حتى هبوط الليل ولكنه خشى أن يتم اكتشافه. حرك السترة التى كان يرتديها وخلعها وألقاها بين الأشجار فى الخلف. زحف إلى الأمام حتى وصل إلى جسد رجل ميت. عندما دار الجسد وجد النمل يزحف من محجرى عينيه. "فليحرسك الله ويهديك يا ابن الكلب" قال: بينما تصطك أسنانه. كانت أصابعه ترتعد وهو يخلع القميص الملطخ بالدماء ويلفه حول رأسه. رائحته عرق وحياة رجل آخر، إنه ملكه الآن. مشى متعثرا وهو حافى القدمين فى اتجاه الوادى حيث كان ينتظره منظر مذبحة. كانت الجثث مكومة واحدة فوق الأخرى. لم يكن يدرك ما يحدث، ليس بالضبط، ليس بمعنى الثمن الإنسانى لكل هذا البارود والصخب.

مشى متعثرا إلى الأمام وهو يبحث عن وجه مألوف، شئ يتعرف عليه وسط هذا الحصاد الغريب. مسح وجهه فى كمه. حصان فقد

استخدام ساقيه يدور من جانب لآخر محاولا أن يقف قبل أن يسقط مرة أخرى على الأرض. راقب مجموعة من الأنصار وهم يسحبون هيكلا بشريا متسخا من تحت كومة من الموتى. كان الرجل الإنجليزى يصرخ ويزحف مثل الرضيع، يغطيه الدم من رأسه حتى قدميه ولكن يبدو أنه لم يلحق به أذى. كانوا يدفعونه ويوجهون له أسئلة وهم يصرخون، ولكنه يبدو مخدرا أو فاقد الحس وكأنه مغشى عليه سحبوا الحقيبة من على كتفه وبحثوا فيها، لم يجدوا سوى الكتب. ألقوا بها جانبا محاولين البحث فى قبعته بدلا منها. وفى النهاية وثقوا يديه معا واقتادوه بعيدا.

تنقل مدنى إلى مكان آخر وقابل سريعا مجموعة من الرجال يركعون حول صندوق طبى. رأى رجلا يغمس إصبعه فى زجاجة مرهم ويرفعه نحو فمه، ومن الواضح أنه يعتقد أن المرهم نوع من أنواع الطعام. بتلقائية مد مدنى يده ليمنعه. استدارت الوجوه نحوه، أوضح بضجر "إنه سم". وضعت الزجاجة مرة أخرى فى الصندوق ومسح الرجل إصبعه بعناية فى سترته.

امتدت يد لتقبض على كتف مدنى وهو يزمع الرحيل. ابتسم الصبى قائلا: "انتظر". استدار مدنى لينظر إلى وجهه. كان صغيرا وذكر مدنى بابن أخ لم يره منذ سنوات. "كيف عرفت ما هو". هز مدنى كتفيه بلا مبالاة ونظر حوله باحثا عن إجابة. أشار إلى الطريق الذى جاء منه وقال: "رأيته من قبل لقد كنت أتجسس عليهم". اقترب رجل آخر "من هو أميرك؟" نسى أمر الصندوق الطبى حيث وجهت الجماعة اهتمامها إلى الرجل العجوز المرتبك. "من أين قلت إنك جئت؟" يستطيع أن يشم

سخونة دمهم. أخذ يتنقل بعينيه من وجه غير مألوف إلى آخر، وأصبح أكثر حيرة. "سقطت". وضع مدنى يده على رأسه وأخذ يحملق فى الأرض. الآن مد الرجل الأول يده ليهدئه قائلا: "لا تقلق أيها الرجل العجوز". ولكن مدنى انسحب إلى الوراء وتمزقت الجوبا لتكشف عن قميصه العسكرى. أخذوا يهاجمونه الآن حيث انتابتهم موجة من الحمى. "اشنقوه". "ابن الكلب أحد الأتراك الملحدين" بكى مدنى قائلا: "لا والله شاهد علىَّ". ناشدهم "يا إخوة!". امتدت الأيدى لتنال منه. فجأة، ظهر رجل طويل. "ما هذا؟" رفع مدنى بصره ليرى واد النجومى يقف أمامه. أسرع الجمع يعرضون قضيتهم. رفع الأمير يده طالبا الصمت. خطا إلى الأمام "أيها الرجل العجوز هل أنت كافر؟". هز مدنى رأسه بالنفى. وغمغم قائلا: "لا إله إلا الله. محمد رسول الله".

"إنه خائن" تذمر أحد الحضور.

"أنا لست جنديا" تمتم مدنى. "أنا مجرد طباخ".

أومأ نجومى. "تعالى معى أيها الرجل العجوز، لقد سال ما يكفى من دماء اليوم". وبذلك استدار وتقدم الطريق.

١٦- النيل الأبيض

ديسمبر ١٨٨٣

"سيموت خلال ثلاثة أيام" قالت: الفتاة وكانت على حق. لقد افترسه السم الذى فى ذراعه. جفت شفتاه وأصبحت مثل الجلد المدبوغ وتورمت. اسودت عيناه مثل السبج. جلس الإفرنجى الآخر على التراب مرهقا جدا لدرجة أنه لا يدرى بما يدور. حفر كادارو حفرة فى الرمل وبنيا جبلا من الصخور الحادة على الرجل الميت. مشوا ثلاثتهم ببطء فقد كانت البغلة الوحيدة التى يملكونها تعرج بشكل مؤلم. كانت تسير مترنحة عندما يأخذون دورهم على ظهرها. الريح تمسد برفق حاشية ثوب الفتاة وتمحو برقة آثار أقدامهم عندما يذهبون.

كان كادارو يوضح ما يعرفه عن الأتراك. "هم دائما يكافئون الرجل عن العمل الجاد، هم عادلون" اعترضت نون على نظريته بهزة من ذقنها. قالت: "إنك لا تعرف شيئاً عنهم، إنك جندى، صبى، الجندى يقوم بما يطلب منه؛ لأن هذا واجبه. إذا ألقيت إليه عظمة يصبح شاكرا أبد الدهر". نبهت هذه الفتاة النحيلة صغيرة السن كادارو إلى الخطر مرة. تساءل كيف تجول كل هذه الأشياء فى رأسها الصغير؟ إنها تعرف أكثر من عبد التوم الذى يفوق عمره عمر الصحراء. استدار لينظر إلى الطريق الذى أتوا منه. عبر الأرض المنبسطة الطرية التى لا يقطعها

سوى أشجار السنط الصغيرة المتناثرة، يستطيع أن يرى هيكل الإفرنجي. كان يترنح، يسير ورأسه تجاه الشمس، يسير متلويا مثل طائر. بهذه الطريقة لن يتقدموا كثيرا. بينما الفتاة تمشي متنزهة إلى الأمام وكأنها في سوق. تنهد وشد الحبل للدابة مرة أخرى، ناداها "انتظري". استدارت لتنظر إليه ثم استمرت في السير. ضرب جانب البغل وهو يلعن وأسرع ليلحق بها. "لماذا لا تنتظري عندما أناديك؟". "لأن الطريق يأخذ وقتا طويلا جدا". "أنا المسئول هنا". قال وهو يضرب بيده على صدره: "لا يمكنك أن تسيري وحسب قد تتوهي". أجابت "أنا لست في جيشك، إذا أردت أن أسير أستطيع أن أسير". "هذا ليس صحيحا" كان كل ما استطاع كادارو أن يقوله، وهو يهز رأسه ويسأل نفسه لماذا كلما فتح فمه ليتحدث مع هذه الفتاة يشعر وكأنه ضرب بالسوط بعنف.

أضاف "أن هذا فقط غير صحيح". "يمكن أن تتوهي بكل سهولة".

"أعرف الطريق".

"إنك لم تأت إلى هنا من قبل. لقد أخبرتني بذلك".

"لا". لا يستطيع أن يفهم سر السحر الذي تأسره به. كل شيء تقوله من الصعب أن يخالفه.

في لحظة يريد أن يقتلها وفي التالية....... "أعرف الأرض" قال: أخيرا. "لقد سافرت. أعرف كيف.. يكون".

رفعت يدها لتحمي وجهها من الريح المتربة. قالت: موافقة: "حسنا". "أي طريق نسلك؟".

بلع كادارو ريقه. كان حلقه جافا وقدميه متعبتين. أنحرف نحو الجنوب: "تلك الأشجار هناك. أعتقد أنها تصبح أكثر كثافة فى اتجاه الشرق. نتبعها".

استدار كلاهما لينظر إلى الخلف. كان الجن الأصفر يرقص فى دائرة، يغنى عويلا غريبا غير متناغم، مثل فتى غر يموت. بصق كادارو على الأرض وهز رأسه. "لقد فقد عقله".

راقبوا سحابة الغبار وهى تقترب. نمت من بقعة صغيرة فى الأفق، تندفع مع الريح لتملأ السماء بلونها الأصفر الغامق. الريح تجذب ملابسهم بقوة، ورائحة الغبار - القديم المضجر، خفيف الحركة مثل السنين ومظلم كالقبر - كانت بالفعل فوقهم. استلقوا على الأرض، لا يوجد مكان يمكنهم الذهاب إليه. استمرت العاصفة ليلا. جعلهم كادارو يغطون رءوسهم بأى شىء يجدونه؛ كالبطاطين وأغطية الرأس. كانوا يستلقون كالموتى الذين يدفنون ببطء.

مرت رياح الهبوب. بربشت عينا كادارو منفتحة. سقطت الشمس والعالم الذى تحرر من شدة حر الظهيرة أصبح أكثر هدوءا. شىء ما أيقظه. كانت الفتاة نائمة على جانبها، قطعة صغيرة غامقة اللون من القماش ملقاة على الرمال. الجن الأصغر كان أيضا نائما، خارج حدود الظل على وجهه، ذراعاه وساقاه ممددة مثل رجل ميت. جلس كادارو مستندا إلى جذع الشجرة. الأشجار هنا أكبر حجما وأكثر كثافة. فروعها الجافة الحادة تخشخش مثل سيقان الحشرات الطويلة التى تحك بعضها بعضا. يمكنه أن يشم رائحة النهر.

فى الأسابيع الأخيرة قادهم كادارو بحذر عبر الأرض القاحلة؛ ليكتشفوا الماء، حيث من المستحيل أن يتخيل المرء أن يوجد، ويجدوا الطعام على شكل جذور الفاجو فى الأرض أو قرون فاكهة الدوم الجافة التى يمضغونها. لأول مرّة يبدو أنه يفهم الأرض. بدأ يرى أشياء لم يكن يلاحظها من قبل: صغيرة، تغيرات طفيفة فى لون التراب والهضاب الموجودة بين السهول. أميال لا يمكن حصرها من الرمال والصخور العظيمة الجافة بدأت تتحدث إليه. لا يستطيع أن يفسر الأمر ولا يفهم لماذا يحدث ذلك الآن. يشم رائحة الأشجار نصف يوم من السير بعيدا، أراض متشققة من الطين الجاف يسقط فيها الماء عندما يأتى المطر، حبوب صفراء صغيرة حيث سيظهر العشب يستطيع أن يحدد آثار الغزال والكود kudu(*)، ويرى الكرات الصغيرة التى تدل على وجود فئران حمراء، وهى التى يمكن أكلها أيضا. بدأت الأرض تكشف أسرارها أمامه.

أخذهم الطريق شرقا، ثم أنحرفوا شمالا ثم جنوبا إلى الطريق الذى أتوا منه، قبل أن يجنحوا شرقا مرة أخرى. لا يوجد معنى لذلك ولكن الطرق يعس بها مجموعة من الرجال اليقظين الذين يتنقلون لجمع الأخبار ونشرها. كانوا ينامون فى الخلاء أو فى حماية القرى المهدمة. ويقابلون قليلا من الناس، وكان من يقابلونهم مرعوبين مثلهم من الاتصال بالآخرين. كانوا يتحركون فى دوائر واسعة وكأنهم يشتركون فى طقس رقصة قديمة ليس لها اسم.

(*) الكود: بقرة وحشية أفريقية. (المراجع).

هش كادارو الغربان بعيدا عن وجهه وانحرف فى اتجاه أزهار الميموزا البعيدة المترنحة. كان فى أرض ممتدة منبسطة، إلى الشرق ارتفاع طفيف وبينما هو يصعده رأى صفا من قصب السكر الذابل، أعواده صفراء ومجففة. لقد كان يعيش هنا شخص ما، ربما فلاح وأسرته. توقف ليفحص نباتا غريبا ذا أوراق كبيرة تسقط من فروعه قرون منتفخة خضراء. مد يده ليلمس إحداها وضغطها؛ لتخرج سائلا أبيض ينز فى أصابعه مسحها بعناية فى سرواله.

شيء ما سحر عينيه، حركة ما. سقط على ركبتيه وهو ما زال يقبض على الكرات الخضراء المنتفخة إلى صدره. تحته النهر يتلألأ. كان هناك شخص ما فى المياه الضحلة: إنها الفتاة نون. كانت تستحم، جسدها العارى ليس به عيب مثل منارة تشع ضوءا. بلغ الماء ركبتيها بينما كان يرى شعاع الشمس ينعكس من جلدها وهى تصب الماء على جسدها. بدت كأنها تشتمل على كل ألوان قوس قزح، الأحمر والأزرق والأخضر. كان جلدها مثل شعاع من الضوء ينتشر فى أضواء كثيرة منفصلة بعضها عن بعض. شعر أن أفكاره أصبحت غير أخلاقية حينما هاج جسده وانتصب ذكره. كانت أجمل شئ وقعت عليه عيناه على الإطلاق. تحرك وأدت الحركة إلى اندفاع طائر الحباك من بين أعواد قصب السكر. استدارت ونظرت فى اتجاهه. قفز قلب كادارو فى فمه. آلمه صدره لدرجة أنه أصبح يتنفس بصعوبة. كانت تقف هناك، تومض فى ضوء الشمس، وكان يعرف فى هذه اللحظة أنه لن يستطيع أن يخطو إلى الأمام فى الضوء. أحنى رأسه بسرعة وبدأ يجرى.

لم يعرف كادارو إلى أى مدى سار، استغرق فى معرفته البسيطة بالنهر. شعر بالأمان هنا وبدأ سريعا ينسى. هكذا التقى بالمركب. مركب صغير. يقف رجلان فى الماء الضحل يزيلان عنه الحمولة: أحدهما قصير قوى ممتلئ الجسم، والآخر أطول أكثر من متوسط الطول العادى، له كتفان قويان ويدان كبريان. استطاع كادارو أن يرى وجهه وهو يصعد من النهر: إنه وجه أرهقته الرمال والرياح. بشرته غامقة اللون وناعمة مع شعرات صغيرة فى ذقنه، أنفه كسرت من قبل تميل إلى الانبساط إلى جانب واحد. مسح كادارو يده عبر فمه وشعر بالجوع. لاعنا نفسه لعدم إحضاره المسدس معه. كان الرجل القصير يحاول أن يسحب المركب عبر الضفة ولكن تيار ماء تحته أعاقه وأخذ يكافح. كانت مقدمة السفينة تهتز فى المجرى المائى بينما الرجل متعثر حتى فخذيه فى الماء، ساقا سرواله مرتفعة دون فائدة الآن؛ لأن الماء يدفعه إلى الخروج أكثر وأكثر. عض كادارو شفتيه، سيكون حظا سيئا حقا أن يراقب المركب وهو يسير بعيدا فى النهر. فبالمركب يمكن أن يصلوا إلى العاصمة فى خلال يومين. استعد لينزل النهر ويساعد الرجل المتخبط؛ لأن زميله، دون أن يدرى بمحنته، ما زال يسير إلى أعلى المنحدر فى اتجاه الأشجار حاملا غزالا ميتا على ظهره. اهتز المركب مرة أخرى وبدا أن الرجل القصير يفقد ثباته فجأة وهو يدخل الماء حتى خصره.

وقف كادارو وجرى. ركض إلى أسفل المنحدر ناسيا كل شئ ما عدا المركب. شق طريقه فى الماء. اندفع إلى الأمام وقبض على جانب بدن السفينة. نظر الرجل القصير إليه. "ماذا تفعل باسم النبى؟". الآن

المركب تحت سيطرته ومساعدة الصبى أصبحت غير ضرورية. حرث الأرض عائدا بالمركب إلى الشاطئ بينما كادارو يبذل ما فى وسعه ليبدو ذا فائدة، يدفع فى اتجاه بدن السفينة. عندما أصبح المركب على الرمل، حول الرجل اهتمامه إلى الوافد الجديد. "أى شق ثعبان خرجت منه". نفض كادارو الماء عن ذراعيه ورأسه. "كنت أسير ورأيتك. بدا أنك فى مشكلة". بصق الرجل على الأرض وأراح يديه على خصره السمين وقال: "أتعامل مع المراكب قبل أن تولد أمك".

من أعلى التل جاءت صيحة، كان الرجل الطويل فى طريقه إلى أسفل. "من هذا؟" سأل وهو ينظر من أحدهما إلى الآخر منتظرا الإجابة

.

هز الرجل القصير كتفيه. "يقول إنه كان يسير".

"يسير؟" كرر الآخر.

"تحت، هناك" أشار كادارو.

"تسير إلى أين؟" نظر الرجل الطويل إلى صديقه ولم يتلق إجابة عدا هزة كتف مستنكرة. نظروا جميعا إلى النهر .لم يروا سوى طائر الكركى وهو يشق طريقه طائرا برشاقة على الأمواج التى ضربتها الريح. استدار الرجلان ليختبرا الصبى. مد الرجل الأقوى يده ليلمس أطراف سترة كادارو البالية. "إنه جندى".

"كنت" أوضح كادارو "لقد تركتهم......." بدا أن توضيحه قليل القيمة. نظر الرجلان حولهما وهما يتفحصان الأرض المحيطة، الأشجار

التى ترتفع على المنحدر الضعيف والطين الفضى المصمت الذى يجرى على طول حافة الماء.

"ربما ليس وحده". قال: الرجل الطويل وهو يتحدث بأفكار الرجلين.

لعن الرجل القصير "ليس لدينا وقت للجنود".

ألقى الطويل بنظرة فى اتجاه كادارو. "هل هناك آخرون معك؟".

لعن الآخر هذه الغباوة. "هل تعتقد أنه سيخبرنا أن مائة منهم مختبئون بين هذه الأشجار؟".

"ماتوا" أجاب كادارو. "لقد قتلوا. أنا وحدى". تحرك الرجل الطويل مغيرا موضع قدميه " أليس لديك أسرة؟".

هز كادارو رأسه " ماتوا".

ملأت نظرة تعاطف وجه الرجل القصير. حك أذنه، وشعر فجأة بالحيرة. وسأله "كلهم؟". أومأ كادارو بالإيجاب.

"كيف وصلت إلى هنا؟".

"مشيت".

راجع الرجلان الموقف فى صمت وأسرع الأطول إلى المركب. كرر "ليس لدينا وقت للجنود". ثم سحب الحبال وبندقية قديمة ولكن محفوظة جيدا. ناول كيسا لكادارو. "احمل هذه. بها طعام يكفى بطن ثالثة. ولكنى أحذرك"، حرك يده محذرا. "إن خميس صقر عندما يتعلق الأمر بالصبية الصغار". ضحك الرجلان معا وهما يسيران إلى أعلى المنحدر الصغير.

بعد أنِ امتلأت بطنه، جلس كادارو محملقا فى النار المشتعلة. تحولت أفكاره إلى الآخرين الذين كانوا هناك فى الظلام ليس لديهم طعام وهذه المعلومة لم تكن دون إحساس بالارتياح أو الرضا عنها. لم يعره الرجلان اهتماما. جمعا خشبا وأشعلا النار وبدءا يقطعان الغزال إلى شرائح لشيها. من حين إلى آخر يتفحصانه ويلقيان إليه قطعة. كانا يشربان من جلد ماعز خمن أنه يحتوى على شىء أقوى من الماء. علت أصواتهما وأصبحت أسئلتهما أكثر هجوما "أنتم أيها الجنود تحبون أن تقلون كلى النساء والأطفال الصغار؟" قال: الرجل القصير وهو ينظر شزرا بطريقة كريهة وفمه يتسخ بالدهن.

قال الرجل الآخر ساخرا: "هؤلاء ليسوا الباش - بوزوك، إنهم الجنود العبيد - الجهادية".

هز الأثقل وزنا كتفيه بلا مبالاة ونظر إلى كادارو نظرة باردة "لا أحب الجنود" لاحظ كادارو أن عينيه تزداد ضيقا كلما تقدم الليل.

"اعتدت أن أقوم برعاية الجياد" قال: كادارو بجرأة. صمت الرجلان ليراجعا ما تتضمنه هذه المعلومة. أدارا وجهيهما واستمرا فى مضغ الطعام، وهما يتفحصانه من وقت لآخر. "هل رأيت الكثير من القتال؟" سأله الأطول. أومأ كادارو بالإيجاب وهز كتفيه. "هاجمنا الأنصار". هز رأسه فى أسى "قطعونا إربا". "هاها". ضحك الرجل القصير خميس بصوت عال. "قطعوهم إربا". أومأ لشريكه. "قلت لك سوف يقومون بذلك". صاح "قلت لك". كان الرجل الآخر أقل انبهارا. "لا تجعل ضيفنا يرى

مدى حماقتك يا خميس. لا يوجد اختلاف بينهما، سواء كانوا جنود السلطان الصبية، وأشار تجاه كادارو، أو أتباع المهدى. تعطى أى رجل سلطة الحكم فى بلد فتلعب السلطة فى رأسه". ضرب رأسه بعظمة. " بدءوا يظنون أنهم ليسوا فقط على صلة بالله ولكن هم الله".

حفر خميس الأرض بين ساقيه وهو يجلس القرفصاء بعود. "على الأقل المهدى رجل منا".

رفع الرجل الطويل ذو الأنف المائل بصره. "ما اسمك أيها الصبى؟".

"كادارو".

"ما هذا الاسم؟". ضحك الرجلان ضحكة خافتة.

"رجل منا!" بدأ الرجل الطويل يحشو بايب بالتبغ. وصل إلى النار وأخذ غصنا ليشعله. نفث الدخان بعيدا بسعادة لفترة. "لن يكون لى صلة بأى منهم. كل ما أريده هو حرية الحركة مثلما أحب. إن كل ما يحتاجه المرء، حرية أن يذهب أينما يريد ويفعل ما يريده". جلسوا فى صمت لفترة. قطعة من اللحم تفرقع وتذبل ببطء على النار. لا أحد لديه شهية ليتناولها.

سألهما كادارو: "ماذا تصطادان؟".

نظر إليه الرجلان ثم إلى بعضهما. حدد الرجل الطويل مجموعة من ذوات الجلود "الغزال، الكود والثعابين. ونذهب جنوبا لأشياء كجلد النمر ولكن فقط إذا كانت مطلوبة".

ابتسم الرجل القصير ابتسامة سريعة ولوى أصابع قدميه. "إن الناس يحبون استخدامه فى صناعة الخف".

تنهد الطويل بملل. "أحيانا أمل حديثك" همهم. "إنك تذكرنى بامرأة عجوز فى السوق". على الأرض بجانب ساقيه الممددتين مسدس قديم مزخرف. غمد خنجر يبرز من كمه فوق مرفقه. استند كادارو إلى الشجرة وفكر فى خططه. الآن بعد اليوم الطويل واللحم غير المعتاد يشعر بشدة بالنعاس فى ظل دفء النار التى تقرع وتهسهس وتطقطق مثل محادثة. بدأ يشعر بثقل شديد فى رأسه وأفكاره بدأت تتكرر.

استيقظ فجأة. انطفأت النار. لم يتبق سوى خيط من الدخان الكئيب يطير متلويا عبر الأشجار الكثيفة. كان الصياد الطويل على ركبتيه، ماسورة المسدس النحاسية الطويلة موجهة نحو ظل الأشجار المحيطة.

بدأ كادارو يتحرك. المسدس مصوب فى اتجاهه. رفع الرجل إصبعه إلى شفتيه وأشار إلى أن الصبى يجب أن يبقى فى مكانه. كان هناك شخص يتحرك بين الأشجار، يقترب ببطء وكأنه حذر. كل شىء هادئ وساكن.

اختارت النار هذه اللحظة لتتوهج فجأة حيث أمسكت قطعة خشب باللهب. أحاطهم انفجار الضوء ببقعة ضوء صغيرة. "اطفئها" همس أحدهم. لمح كادارو عين الصياد الطويل. لعن الرجل القصير وتحرك ليسكب حفنة من الماء على النار. فى الوقت نفسه خطا هاملتون إلزورث

إلى بقعة الضوء. كان من الواضح أنه غير متأكد ماذا يحدث، ولكنه كان يحمل مسدسا، يلوح به دون مبالاة. خرجت طلقة. زمجر خميس وألقى بنفسه في اتجاه إلزورث، واستل مديته. ملأت بقعة الضوء سحابة من الدخان. استلقى كادارو على الأرض وعيونه مغمضة ويداه على أذنيه. عندما رفع بصره كان الفرنجي يقف فوقه يشير إليه بمسدسه. حرك كادارو نفسه ببطء وهو يتلوى على الأرض. انزلق التراب والأغصان المكسورة على رقبته. قلق لوهلة خوفا من العقارب. كان سيموت. لوح بيديه إلى الأمام وهمس قائلا: "لا يا سيدى! كادارو صبى ماهر!". "ماهر يا سيدى. كادارو أحضر مركبا!". رأى لمحة شك في عينى الفرنجي. استدار وبدأ يخربش بقدميه في التراب. "مركب! مركب!" رسم على الرمل. ترنح إلزورث، سقطت ماسورة المسدس. مال ليتفحص الرسم التخطيطى. قال: شيئا لم يفهمه كادارو وأومأ برأسه. سقط كادارو إلى الوراء واستلقى هناك، يلهث متنفسا الصعداء. شاهد إلزورث يبتعد والفتاة صامتة بشكل غريب تتبعه مطيعة.

يستلقى الصيادان ممددان في بقعة الضوء. سقط القصير ووجهه على النار. احترقت ملابسه وخطوط الدخان تخرج من تحته ملتفة. أما الطويل فاستلقى متمددا باسطا ذراعيه ورجليه، فتحات فمه وعيناه مفتوحة للفراش والنمل. وقف كادارو ببطء، ساقاه تهتز وتتشنج، يمكنه أن يسمع النهر عن بعد، يهدر ويضطرب، يهمس بإيقاع لا يتوقف في رأسه: شمال ... شمال. الشمال ينتظرهم.

الجزء الثالث

الساعة

١٧- سهول الجزيرة، جنوب الخرطوم

١ سبتمبر ١٨٨٤

على مدى البصر كان السهل منقطا بالخيام البيضاء الرثة والسواتر نصف المكتملة. غبار تثيره حوافر عشرة آلاف من الخيل والإبل، عربات المدافع التى تجرها البغال وعربات المطبخ ومواكب الجنازات والأطفال والزوجات والأيتام والعبيد يختلطون فى سلسلة لا تنتهى من السلب.

سأل واد النجومى نفسه وهو يتنهد، متى يبدأ الجمع فى أن يشبه جيشا وليس معسكر غجر؟ يومه سلسلة متواصلة من الإشارات والمقابلات، يظهر الرسل وهم يلهثون إلى جانبه، يلهثون ويلفظون برسائلهم وكأن حياتهم ومصير العالم يعتمد عليها، أحيانا ربما، ولكن ليس اليوم، اعتاد أن يمزح حول زهو الملازمين الأوائل وغرورهم. كم منهم يستطيع أن يعتمد عليه عندما تبدأ المدافع فى الضرب؟

أرسل واد النجومى طلبا لكل الشيوخ الذين تعهدوا بالولاء للمهدى؛ لكى يرسلوا إليه أفضل أمرائهم وأكبر عدد من الجنود يستطيعون أن

يجمعوه. منذ خمسة أشهر وهم يتجمعون هنا فى بطن السهول الرطبة جنوبى العاصمة. هل عددهم كاف؟ كان يتجول فى المعسكر بشكل دائم، محاولا أن يقدر ما لديهم وأين. يتبعه فى تجواله المستمر مجموعة من المساعدين والحاشية، والكتاب المشغولين بكتابة الملاحظات، يأخذون الأوامر والرسائل ويحصرون الوافدين الجدد. لم يكن الرجال من الجنود المدربين، لقد كانوا من الأنصار؛ التابعين؛ لا يعرفون شيئا عن النظام. كان لديهم ميل ليندفعوا مثل قطيع من الماعز، يصرون على إحاطته بأذرعهم أو تقبيله على كلتا وجنتيه. النساء يلقين الرضع بين ذراعيه من أجل أن يباركهم الله. كان النجومى دائما مهذبا جدا لا يمكنه أن يرفضهم ولذلك كان يقف عاجزا وعلى وجهه نظرة ضياع. يبدو للجمع مثل شخص ساذج ركله بغل فى وجهه. طاف بين الجموع التى كانت تحاول أن تفهم مثله، كيف أصبحوا بهذه الكثرة والقوة. كانوا يحركون عربات المدافع هنا وهناك. الصبية الصغار يقفزون على المدافع مثل القرود، ويقذفون القنابل الحية أحدهم إلى الآخر وكأنها بطيخ لامع. لم ير أبدا مثل هذه الروح. إلا أن عمله أن يوظف هذه الطاقة ويوجهها. لقد بنوا متاريس طينية تربط نقاط دفاعهم الخارجية على طول المحيط الشمالى، فى مواجهة للمدينة المحاصرة. جمعوا أكبر عدد ممكن من جنود العدو الأسرى، المدربين على استخدام المدافع ليساعدوا فى صيانتها وفى تدريب هؤلاء الذين سيمدون الأسلحة بالذخيرة فى الوقت المناسب.

كان نجومى، أينما ذهب، يقظا لأى شخص يمكن الاستفادة منه. وفى ذهنه صورة ثابتة للعقاب الفظيع الذى يخطط له دون شك سلاطين

الأتراك وجنودهم الكافرون. سوف يعودون، لا يهم كم سيستغرق من الوقت، سيعودون. وإذا كان صحيحا أن الخرطوم تحتاج ببساطة إلى الضغط عليها مثل بذرة البطيخة لكى تفتحها ثم يصبح كل شيء على ما يرام، فإن عليهم فى البداية أن يضغطوا على الحصون النائية البعيدة عن المركز: فى أم درمان عبر النهر إلى الغرب، وفى حلفا إلى الشمال. والأمر الحيوى أن يقطعوا خط التلغراف إلى القاهرة. فنجومى كان استراتيجيا بارعا. ولديه ولاء الأنصار وكان يعلم مَنْ مِنْ أمرائه يرسله أولا. ومع ذلك، إذا كانت الشائعات باقتراب قوة من قوات العدو حقيقية، فإن عليهم أن يخوضوا معركة طويلة. لا يستطيع أن يتوقف عن العمل فى هذه المرحلة. كلما سقطت الخرطوم فى وقت مبكر كلما كانوا أكثر أمانا.

الأراضى الشمالية لا تزال فى أيدى العدو وهناك أخبار بمحاولة البواخر التى تشق طريقها عبر الحصار النهرى إمداد المدينة المحاصرة بالمؤن الغذائية. فالناس فى الخرطوم بدءوا يموتون جوعا، وفقا للأخبار التى تصل الآن يوميا. تأتى الأخبار على لسان مجموعة من الرسل فى كافة الأشكال. جواسيس لهم أوجه مألوفة، جنود ألقوا ببساطة بنادقهم وفروا هاربين، النساء العجائز اللاتى يدخلن مترنحات نصف مجانين إلى المعسكر، يجلس نجومى صامتا يستمع إلى ما لديهم من أخبار. كل ذرة من المعلومات يفكر فيها مليا قبل أن يقرر فائدتها. كل معلومة صغيرة لها مكان معين تكون مناسبة فيه. فى الحقيقة هو لا يثق بأحد؛ لأن طبيعة من يخبرونه بها لا يمكن الاعتماد عليها. لا يمكن أن يسلم بصحة أى شيء. حتى حصن صغير يمكن أن يصمد مدة طويلة فى

انتظار قدوم الإمدادات العسكرية. لا يهم إلى أى مدى هم ضعاف، فبنادقهم دقيقة تصيب الهدف وجنودهم مدربون. ولكن هناك شئ ينتظره على الجانب الآخر من هذه الأسوار المصنوعة من الطين والقش، شئ ليس أقل من أسطورة، عفريت من أكثر الأنواع دهاء وخطورة. كان نجومى يعلم أنه يواجه أكثر من حصن من الجنود الممزقين الجوعى المنعزلين. إنه يواجه جوردون باشا. مجرد ذكر الاسم يربكه. إنه لا يعرف شيئا عن الرجل نفسه، فقط يرى آثار إستراتيجيته فى انتشار قواته. يعرفه فقط من خلال الإشاعات، كرجل متقد قاس لا يمكن التنبؤ بما سيقوم به فبواعثه غامضة. من حين إلى آخر يرسل جوردون واحدة من البواخر التى يحبها، غريبة الشكل بأجهزتها من الدروع الواقية والدعامات الخشبية على طول الحواف العليا من جانب المراكب كتروس. عبيده المخلصون فى زيهم التركى ينزلقون بعصبية عبر مجرى النهر، يطلقون قليلا من الطلقات العارضة: نيران البنادق وطلقات متفرقة من المدفع الصغير. يصيبون عددا قليلا من الجياد بالرعب يجذبون إطلاق نار أكثر مما يطلقون، ولكنهم يكسبون أرضًا. إنها لعبة. يدور كلاهما حول الآخر مثل الكلاب التى تنتظر الوقت المناسب للانقضاض.

والوقت سلسلة رقيقة. كلما انتظر نجومى لمدة أطول، صار الجنود العبيد النحفاء خلف الأسوار أضعف. ولكن ساعة واحدة مدة طويلة جدا فسوف تنكسر الأذرع النحيفة. مهمة نجومى بسيطة: أن يجد ثقب مفتاح طبيعى فى الحصون ويديره بدقة فى اللحظة المناسبة.

تسلق القائد الأعلى على رأس أحد المدافع التى استولوا عليها وراقب مجموعة من الجنود يتدربون على هجوم بالحراب والتروس.

يشبهون مجموعة من الكلاب غير المنظمة التي تعوى في أعقاب بعضها بعضا. قاطع ملاحظاته وصول مجموعة من القادة، الذين يحاولون الاتصال به كالعادة، نزل إلى الأرض وتبعوه.

سألوه: "سيدى هل قررنا نظام الهجوم؟".

"كيف سنتقدم، وأى وحدة ستقود الأخريات؟".

تمهل نجومي دقيقة "لماذا، وحدتي بالطبع" أجاب، وهو يمسد الشعيرات المتفرقة في ذقنه الحادة المحددة. "سنقود الهجوم. إنها مسئوليتي، فالمناسب فقط أن تتحمل وحدتي الوطأة العظمى من الهجوم".

منذ الانتصار في شايكان، أدرك نجومي أن دوره صعب. كل هذه القوة، وكل هذه السلطة. كان خائفا، خائفا أن يفقد كل هذا إذا أخطأ ولو مرة واحدة خطأ غير مقصود. إن الاحترام الذى يراه في أعين الذين يحدقون فيه مريح. في الوقت الحالى على الأقل هؤلاء الرجال سيتبعونه أينما ذهب .

استدار الآن ليخاطبهم. "أود أن يتأكد كل منكم أن رجاله سيمكنهم التحرك بسرعة وبمهارة عندما يحين وقت الهجوم. فبقاؤنا كوحدة واحدة بعقل واحد أمر له أهمية قصوى" أخذ ينقر على رأسه، "لا نسير في عشر اتجاهات مختلفة في الوقت ذاته". كان هناك خرير ضعيف من الضحك.

"ولكن كلنا نعلم أن جوردون الكافر لديه حفنة فقط من الرجال المخلصين يقفون إلى جانبه".

دار نجومى حول الرجل الذى تحدث واستقام. كان فى الحقيقة رجلا طويلا، رغم أن ملابسه الفضفاضة ورشاقته وليونة جسمه تخفى ذلك معظم الوقت. قال: "أعرف ما تعنيه جيدا". قال: ذلك برقة شديدة لدرجة أن صوته كاد لا يسمع فى ظل الجلبة التى تحيط بهم. "قد يفشل جيش مهاجم؛ بسبب نقطة ضعف واحدة، مهما كانت رأسه قوية إذا كانت الجوانب ضعيفة سوف ينهار". نظر حوله إلى الوجوه المحتشدة. "أعلن أن الحرب لا تنتهى هنا" وهو يرفع صوته إلى حد ما؛ لأنه بدأ يسير بخطى واسعة "لأنى متأكد أنكم تعلمون جميعا. إن العدو فى سواكن وسوف ننتقل إلى هناك ونتقدم عبر العالم حتى نصل إلى الأراضى المقدسة وكل مدينة من هنا وحتى المحيط الهندى وما بعده سوف تعود إلى الطريق القويم الذى حدده الرسول عليه السلام"(*).

انتهت الخطبة، أخذ نفسا وانتقل لأمور أكثر عملية. أشار تجاه الغرب. "نخوض هذا الطريق بين النهرين من شجرة ماهى بك إلى جيرايف. أود أن تبنى سواتر للنساء والأطفال. أود أن أعرف عدد كل الخنادق. ارسلوا فنانيكم ودعوهم يرسمون. أريد خططا مفصلة للحصون، كم من الرجال يقفون لحراستها نهارا وأيضا ليلا؟ كم بوابة، إلى أى حد هى محكمة الإغلاق؟ أريد أن أتمكن من إعاقة هذا الطريق حتى يحين الوقت. لا أحد يدخل أو يخرج من المدينة إلا بإذننا، مفهوم؟".

(*) كانت رسالتهم هى نشر الإسلام فى العالم كله. (المراجع).

"متى سنعرف أن الوقت قد حان".

"الله سيجعلنا نعرف" ابتسم نجومى بلمحة انزعاج على وجهه، ثم استدار وترك المكان دون كلمة واحدة.

ظهر رسول إلى جانبه وناوله لفيفة. أمسكها الكاتب الأقرب إليه وقرأ بصوت عال. إن المهدى يتحرك شمالا على الضفة القريبة للنيل الأبيض وسوف يبقى فى هذا الجانب، ربما يتوجه لأبى السعود حيث سيقيمون معسكرا. أخبر نجومى الرسول أن يوصل تصديقه على الرسالة. وأخذ يتجول عبر الحشد. عبر صبى يسير بماعز يمسك بأرجلها الخلفية ويقودها إلى الأمام مثل العربة. رجل عجوز يمشى بالكاد، يساعده ابنه، ابتهج ورفع رمحه متهللا لرؤية القائد: "الموت للكفار والنصر لنا" ورأى نجومى وجه الصبى ووثق بالشك الذى لمحه به أكثر من ألف تحيات عسكرية أو تأكيدات بالنصر. "اعتنى بوالدك" قال: وهو يسير فى طريقه.

كانت مجموعة من الرجال تختبر مدفعا من مدافع نوردن فيلد بمساعدة رجل طويل شيلوك من كادر العبيد الذين أسروا فى الأبيض، فكوا السلاح على الرمل ببراعة شديدة. وأعادوا تركيبه. كان الجندى يوضح كيف يمكن حشوه بالطلقات وإطلاقه. إنها المرة الأولى التى يرى فيها العرب يستمعون إلى عبد سابق، فكر نجومى. إلا أنها إحدى المعجزات الأخرى للحرب. عندما لاحظوا حضور القائد بدءوا يتحركون وأيديهم خلف ظهورهم، تقدم نجومى إلى الأمام وضرب الجندى الطويل على ظهره. قال لهم: "استمعوا بعناية لكل تفصيلة يقولها لكم هذا الرجل. إن انتصارنا يعتمد على ذلك".

على السهل الغبار يختلط بالشمس الحارقة. الإبل تئن، وهى تشد بقوة الرسن الذى يربطها. كل شئ يعانى الرحلة الطويلة هنا، والآن وقت إصلاح ما يمكن إصلاحه: الخيام، السرج المكسورة، الرماح والبنادق. وجد نجومى مجموعة من الأطفال يلعبون لعبة الحرب التى ما زالت تدور أمامهم جميعا. كانوا يتعاركون مع ذلك الذى سيلعب دور جوردون؛ لأن الاسم كان يرمز إلى كل شر فى العالم. كان الناس يروون قصصا عن الوقت الذى أرسل فيه جوردون ليكتشف البلاد - كيف يعبر الصحراء بسرعة فائقة مثل ظل طائر، ليهبط بحنق جن أبيض. قصص عن مدى قسوته ووضاعته، إنه ينحدر من قبيلة كان الأتراك يوظفونها لتلقى الرعب فى قلوب عبيدهم. وعقل نجومى لا يشك أن جوردون هو أقرب حلقة فى السلسلة التى تمتد بعيدا إلى نهايات الأرض إلى قوة لا يمكن تخيلها. إن أقدارهم متشابكة وفى وقت كهذا يرغب أن ينتهى الأمر كله. يود أن يعرف ما يقبع فى النهاية الأخرى للسلسلة.

الشخص الوحيد الذى يعتقد أنه يفهم ما يحدث رجل غريب قابله منذ شهور فى منزل الشيخ عباس فى الأبيض: عالم، تقول الإشاعات إنه كان يوما على بعد شعرة من الشنق بوصفه مرتدا عن الدين. لقد درس كل الكتب القديمة وسافر إلى الخارج عدة سنوات. ولكن رغم ذلك هو رجل بسيط لا يقوم بأية محاولة ليسحرك بروايات مملة عن الرحلات التى قام بها، أو الأماكن المثيرة التى زارها والملوك الذين تعشى معهم. لقد كان يتكلم بطريقة متواضعة تترك إحساسا غريبا. "مهما كان رأينا" قال نجومى: "لا أحد منا فى هذه اللحظة يمكن أن يقول إنه يأمل أن يحدث أى أذى لمحمد أحمد. إن المهدى هو الطلسم الذى يجلب الحظ السعيد. إنه يسيطر على البلاد بأكملها بخيط واحد. بدونه لا يمكن تحقيق ذلك".

"ولكن مـاذا عن كل الأرواح التى سـوف تزهق، والدم الذى سـفك والذى سيسفك؟".

"هذه الأشياء لا تعنينا" أجاب نجومى: "كل إنسان له الحق فى أن يكون حرا. أؤمن بذلك. مهما كان قدره عند الميلاد. يمكن أن يكون غنيا أو فقيرا، ولكن لديه الحق في أن يكون حرا، ليس من حق أى امرئ أن يحكم آخر ويعامله وكأنه دابة. إنها الطريقة التى كان الأتراك يعاملوننا جميعا بها. ومن سيحكم هذه الشعوب عندما يرحل الشيطان؟ هل سيظل المهدى يسيطر عليهم براحة يده؟".

ظهر الآن وجه مألوف وتوقف نجومى ليتعرف على مدنى العجوز يطارد صبيا صغيرا كان يراوغ عجلات العربة، وهو يأخذ طريقا ملتويا بين الأباريق والأكياس والقدور والأوعية. دار الصبى وزحف بعيدا؛ لأن الرجل لوح بقضيب نحوه.

"أهلا أيها الرجل العجوز" ناداه النجومى "ألا تتعرف على قائدك العام عندما تراه؟".

انقب الرجل العجوز واقفا وهو ينفض الغبار عن نفسه ببطء، وألقى تحية سريعة واستدار لعربته. كان ثلاثة رجال مشغولين بوضع الطوب فى الشمس لبناء ساتر جديد. نظروا فى استنكار إلى الطريقة التى يعامل بها الطباخ العجوز أميرهم. تجاهلهم نجومى، وسحب سيفه من خصره ووضعه جانبا قبل أن يجلس على كيس دقيق. "ألا يتبقى لديك أى من هذا البسكويت؟" سأله وهو يتنهد. "أليس لديك جيش لتقوده؟"

استدرك مدنى وهو يلقى بكيس صغير أمامه. ابتسم نجومى وأدخل يده فى الكيس. أخذ يمضغ بسعادة لوهلة. "سمعت أن جوردون يأكل الدجاج كل ليلة".

"هاه" ضحك الطباخ "أعتقد أن أذنى أمير الأمراء أصبحت صماء؛ بسبب تقدمه فى العمر" أشار بسكين "هذا مطبخى الذى يأكل فيه وستطوق عنقى بجميلك عندما تستطيع أن تعيده لى".

عاد الحاضرون ببطء إلى العمل وهم متأكدون الآن أن الرجل العجوز لن يشنق أو يقطع رأسه فى المكان. إلى جانب النار التى اشتعلت فى المطعم المؤقت كانت الذبائح تقطع وتلقى فى القدور، والخضراوات تقطع. نفض نجومى الفتات عن جوبته. "أخبرنى أيها الرجل العجوز ما شكل جوردون باشا هذا؟". شد مدنى وجهه وحك ذقنه. لعب بنهاية سكينه، وهو يختبرها بإصبعه. "إنه يجمع الدجاج لينام. يتجول حول الفناء كل يوم ويرفرف عليهم بذراعيه ليجعلهم ينامون". ضبط القبعة على رأسه. "فى الحقيقة بشكل عام فإن الكفار مثل الدجاج فى طبيعته: يجرون فى كل مكان مسرعين، يلتقطون من هنا وهناك. ولكن". توقف ليعيد التفكير فى رؤيته "يلتقطون كل قطعة متبقية من الحبات" أومأ الطباخ العجوز إلى غبار الشمس وتشوش المعسكر. "إننا نحارب مثل قطيع من الماعز. انظر إليهم، إنهم يجرون هنا وهناك، ولكنهم لا يستمعون إلى كلمة واحدة تقولها لهم". قال: نجومى ساخرا: "ربما تود أن تبدل مكانك معى لعدة أسابيع، أيها الرجل العجوز؟ إنك محظوظ لأننى أحب طبيخك. عبد الله النور أو أى من القادة الآخرين كان سيقطع رأسك؛ بسبب هذا النوع من الحديث".

هز مدني كتفيه. لقد كان شاكرا جدا لهذا الرجل الذي أنقذ حياته في شيكان إلى جانب أنه أحبه. "الأتراك" أوضح " كانوا يعاملونني بشكل طيب، ورأس عجوز مثل رأسي ليس له قيمة هذه الأيام. الشباب هم الذين يحاربون هذه الحرب لكم والله يساعدنا إذا انتصرنا؛ لأنهم سوف يغترون بأنفسهم وسينتهي العالم مثلما كان من قبل، يحكمه الحمقى الذين يتحدثون للاستمتاع بسماع أصواتهم". بدأ يدفع العجين إلى رقائق رقيقة. "العقلاء سيغلقون أفواههم، هؤلاء الذين لن يموتوا". حملق في نجومي الذي نظر بعيدا. "انتبه لنفسك يا ابن النجومي".

وقف نجومي وضبط ملابسه. وضع سيفه في غمده الجلدي ونظر إلى السهل المزدحم الذي ضربته الشمس. "دعنا نأخذ هذه الخرطوم أولا".

ضرب مدني على جبهته "إن الخرطوم في الذهن. إن المشكلة ليست في الخرطوم، ولكن ما بعدها. إن الجنود خلف هذه الأسوار فزعون. ليس لديهم ما يأكلونه إلا البغال وعظام الكلاب النحيفة. سوف يأكلون حالا اللبان من على الشجر إذا لم يأكلوا بعضهم بعضا. إذا أخذت الخرطوم يجب أن تكون مستعدا لكي يستمر التقدم؛ لأنهم لن يدعوك تعيش في سلام بعد ذلك. إنك لا تعرف بلاد الفرنجة. إنها مليئة بالجبال العالية والمطر الذي يضرب الجلد مثل الحجر. إننا لا نعرف شيئا عنهم. الله وحده يعلم ما الذي جاء بهم إلى هنا". هز إصبعه محذرا "اسأل نفسك كم من هؤلاء الرجال سوف يذهب أبعد من الخرطوم، إلى الشمال عبر البلاد ليقف على أبواب القاهرة يطلب الدخول؟".

"إنها إرادة الله أيها الرجل العجوز. ألا تعلم ذلك؟".

"أصلى لربى وتصلى لربك، أليس الأمـر كـذلك؟". واصل الطبـاخ العجوز حديثه "ما غير ذلك فهو غرور" لوح بالسكين مهددا "الآن اذهب وحارب حربك لدي مطبخ أديره".

١٨- سيردار جوردون باشا

القصر، الخرطوم

حين لمح الكابتن هاميلتون إلزورث نفسه فى المرآة الكبيرة غير النقية التى تزين الرواق خارج حجرة رئيس الأركان فى صباح صاف وبارد فى نهاية أغسطس، ورائحة المطر ما زالت تبهت على عبير زهرات الياقوتية الذى يهب من الحدائق المحيطة بالفناء (حيث نثر الصبية البائعون ريش الحمام مثل الملوك القدماء الذين يوزعون تيجان اللوتس)، وضع يده على وجهه وهو يتساءل إذا ما كان الأذى النفسى ما زال أثره باقيا فى عينيه.

فى الشهور الست منذ عودته إلى الحماية النسبية التى توفرها له العاصمة المحاصرة، كان يحاول أن يجد معنى لتجربته. كان الضباط الآخرون شغوفون لمعرفة ما حدث له فى كل هذه الشهور التى فقد فيها. كل ما استطاعوا أن يعرفوه منه هو نظرة شاحبة وهزة رأس وكأنها تثبت أنها حقا كانت تجربة خالية من المعرفة. فى تلك الليلة الفظيعة عندما جرى نحو الشاطئ إلى الجنوب من الحصن الغربى كان الجنود سيقبضون عليه مع الآخرين. "ألا تعرفون من أنا؟" ظل يسألهم ويكرر السؤال، وهو يسير فى دوائر على الشاطئ، ويصرخ فى وجوههم

المتحيرة. لم يكن هناك أحد ممن يعرفهم واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يكتشفوا حارسا عجوزا قال: إنه يعرفه. "ما أخبار جنرال هيكس؟" كان سؤاله التالي للجندي الشاب المعاون الذي أرسل ليرافقه إلى الثكنات. "هيكس، يا سيدي؟" كرر الجندي بارتباك وكأنه تذكر شبحا. كان إلزورث يمشي مضطربا في المدينة مثل رجل من عصر آخر. بدا له أنه ليس هو الذي تغير ولكن العالم الذي تركه. كان الرجال يمشون بخطوات بطيئة متثاقلة. وكأن لعنة قد حلت بالهواء الملوث.

سأل عن سبراتلنج وعلم فورا أنه توفي منذ شهور. حينئذ اتهم مرشديه بقتله. ألقوا بالصبي في السجن، أما الفتاة فاختفت بسهولة. أين، ظلوا يسألونه، كان؟ ما هذا السؤال؟ لقد كان يحاول أن يعود إلى هنا، ألا يكفي هذا؟

"لقد كنت مفقودا حوالي عام يا سيدي. اعتقد الجميع أنك مت في المعركة".

خطر بباله أنهم ربما كانوا يفضلون أن يكون قد مات. أعطوه سريرا في المشفى، ورجل ذو عيون خرزية شغوفة بحاجب واحد في وضع ثابت مائل يأتي لرؤيته مرة كل يوم. يحملق في إلزورث لمدة طويلة دون أن يقول أي شيء، أو يجلس ويغني أغاني العودة للوطن باللغة الصربية - الكرواتية لنفسه بينما يمسك بمعصم إلزورث. أحيانا يلحق به ضابط يقف ويتأرجح على عقبي قدميه لا يطيق صبرا. "يظهر ما يمكن أن يحدث لعقل متحضر عندما يتعرض عنوة لفترات طويلة للعقلية الهمجية". ثم يسير الجراحان بعيدا وهما مستغرقان في الحوار. بقية

الجناح ملىء بالبلهاء الذين يهذون ويتحدثون إلى أنفسهم ويرتدون إلى أطفال خياليين يثبون على ركبهم أو يزحفون على أرض الجناح وهم يعوون كالكلاب. بعضهم لديهم جراح فى رءوسهم ولفائف عريضة من الضمادات تربط رءوسهم، وآخرون يعانون بطرق مختلفة، يصرخون طوال الليل متألمين. لم يكن يضايق إلزورث أيا من هذه الأمور؛ لأنه مثل كل واحد منهم كان فى عالمه.

أرسلوا ضابط مخابرات إليه ليحاول أن يتحقق من كل ما يستطيع. كلما سقطت عيناه على زميله الشاب البرئ كانت عينا إلزورث تنفجرا بالدموع رغما عنه. ربما لأنه تذكر شابا آخر من حياته الماضية. لم يكن لديه أمر له أهمية ليقوله بالنسبة لوضع العدو وقوته، كما تبين شكهم. يتصورون أنه فر ليضع رأسه فى الرمال ويفلت بجلده. كان يستلقى مستيقظا ليلة بعد ليلة وهو يتمنى لو كان الله قد أفناه إلى جانب هيكس وبقية المساكين الآخرين الذين حلت بهم اللعنة.

دخل المعاون وهو رجل من أهل البلد إلى حجرة الانتظار طقطق كعبيه النحيلين معا، وحياه وأخبره أن عليه أن يصعد إلى الطابق العلوى، فى هذه اللحظة نشبت معركة فى الفناء وجرى الجميع ليراقبوا ما يحدث. سار إلزورث وحيدا وصعد درجات السلم إلى الطابق العلوى من السراى.

قمم النخيل تصدر حفيفا فى النسيم، وعبر الباب والشباك فى الجانب البعيد يمكنه أن يرى النهر. كانت الغرفة الواسعة مشهدا شديد الاختلاط. استغرق الأمر دقيقتين ليحدد مكان السردار وهو ممدد على

الأريكة الطويلة فى الجانب الأيمن من الغرفة، فردة من حذائه ذى الرقبة المرتفعة مستقرة على أرض الغرفة بجانب السيف فى غمده بحبله وريشته والأخرى تنثنى على الذراع المبطن مثل ثعبان طويل نحيف على فرع شجرة. من الشباك وضفة النهر إلى أسفل يستطيع إلزورث أن يسمع زقزقة العصافير وثرثرة الرجال.

ولأنه غير متأكد إلى أين يجب أن ينتقل، عبر الحجرة إلى المكتب الكبير المصنوع من خشب الساج. كان المكتب مغطى بالأوراق وعلب السجائر نصف الفارغة. جذب عينيه شئ وانحنى ليلتقط ورقة انجرفت مع النسيم إلى الأرض. كانت رسما لقلب إنسانى، بشكل دقيق وكأنها لأستاذ بكلية الطب. القلب يحوى رصاصة وملحوظات كتبت بخربشات قلم رصاص إلى جانبه تصف كيف يمكن إزالة الرصاصة. ورقة أخرى أيضا على الأرض تظهر كاريكاتور لجلادستون يجلس على صندوق يرعد تخرج منه أصوات تستغيث. شعر إلزورث بجانب فمه يلتف فى قرف. كان هناك رسوم كاريكاتيرية أخرى تصف كلاب الصحافة، كاريكاتور فاحش للملكة فيكتوريا، واسكتشات متعددة للمنطقة تظهر أماكن العدو وقوته. وعدة علامات استفهام تظهر هنا وهناك.

وعلى ورقة أخرى كتبت بالقلم الحبر قطعة تبدأ بنص مأخوذ من الكتاب المقدس: "ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه وعن الرب يحيد قلبه (إرميا ١٧ -٥)، والذى يبحث عن طريق أى ترتيبات أو قوى أو بالمساعدة الخارجية ليتحرر من المكانة التى نشغلها!!! بأى قلب يستطيع الإنسان أن يقبل هذا؛ لأنه بأى قلب يمكنه أن يضع ترتيبات إذا كان لا يؤمن بنجاحها!".

حركة خلف إلزورث جعلته يستدير ويسقط الورقة بسرعة على المكتب. فأر أحمر صغير يراقبه من على قمة الأريكة. توقف واثقا تماما مما حوله وهو يلتقط أنفاسه ثم تحرك دون سرعة عبر ظهر الأريكة. راقب إلزورث تقدمه، وهو ثابت فى مكانه. تقدم الفأر بجانب السردار وسقط بخفة على صدره. قرض دقيقة فى السترة الحمراء ثم انتقل إلى أعلى وهو لا يزال يلتقط أنفاسه، حتى وصل إلى وجه السردار. لوح إلزورث بيده وهسهس من خلال أسنانه. التقط قطعة ورق وكورها وكان يستعد ليلفها على القارض الحقير ولكنه تردد. نظر الفأر لحظة فى اتجاهه ثم واصل الاندفاع نحو سبلات الجنرال. ولأنه لم يكن يريد أن يوقظ الرجل، قرر إلزورث أن أفضل طريقة للخروج من هذه المحنة هى الباب، كان على وشك الحركة عندما استيقظ الرجل النائم وكأنه يفيق من سحر .

بربشت العينان الزرقاوان وانفتحتا . ووجد إلزورث نفسه وجها لوجه مع أشهر رجل فى البلد. تثاءب جنرال شارلز جورج " تشينيز " جوردون ومد ذراعيه إلى أعلى رأسه، ثم لاحظ الفأر. رفعه برفق من على رقبته ووضعه بعناية على ظهر الأريكة مرة أخرى. جلس وحك رقبته.

"هل جاء الوقت يا ستيوارت؟" . "سيدى؟... لا"، بدأ إلزورث وهو ليس متأكدا من أين يبدأ . "أعنى... إن... إن ...." أغلق عقبى قدميه بقوة وقال بصوت عال: "كابتن إلزورث يا سيدى" .

ومضت عينا جوردون فى اتجاهه وقابلت حملقته لوهلة، وجمدته هناك، قبل أن تنحرف بعيدا . أومأ الجنرال الآن وكأنه فهم. "أوه، نعم،

..... بالطبع، يا كابتن.....". توقف مرة أخرى وللحظة طويلة كان هناك، صمت... نظر الرجلان كل منهما إلى الآخر دون أن ينبثا ببنت شفة وكأنه دخلت بينهما فكرة قبل الانتقال: إلى ما يمكن أن تقود إليه مثل تلك الأفكار. "إلزورث" كرر الاسم "ما اسمك الأول؟"

"هاميلتون".

"ليس أفضل" قرر الجنرال "دعنا نظل مع إلزورث". قام ليقف وظهر أنه أطول من إلزورث. شعره غير ناعم أصفر بلون القش ووجهه مخطط ومترب. ولكن العينين تطغيان على الوجه، صافية وثابتة بشكل غير طبيعي، عيون تضئ برؤية مدينة شوارعها هادئة لا تسكنها سوى رائحة الشتاء الراحل وآثار الأقدام على الحصى المرصوفة بها الشوارع. فكرة العودة إلى لندن أرعبته.

عبر الحجرة، وهو يسقط النوم عن أكتافه المتيبسة. خربش بين البقايا على مكتبه. ووجد علبة سجائر تقف مملوءة. دون أن يقدم لإلزورث الذى كان سيرفض، أشعل واحدة.

"كيف وصلت إلى هنا يا إلزورث؟".

"بالمركب يا سيدى". تلعثم إلزورث لحظة. "بصحبة بعض أهل البلدة الذين قابلتهم".

"أولا" أومأ جوردون. "هذا أمر جيد". وهو لا يزال ينقب فى الأوراق على المكتب وكأنه أضاع شيئا..

"كثيرا ما أتساءل ماذا كان الحال لو ولد المرء صيادا بسيطا فى هذه المناطق".

"أعتقد أن ذلك ممل جدا يا سيدى" اقترح إلزورث دون أن يدرك حتى قال ذلك أنه اختار الإجابة الخاطئة.

"لقد رأيتهم مباشرة يا إلزورث" واصل جوردون باشا حديثه. "لا بد أنك عرفت أشياء كثيرة عنهم، أقصد العرب. ولذلك أردت أن أقابلك". أضاف الجملة الأخيرة وكأنه قرر ذلك توا، وهو بالطبع الأمر الذى كان قد قرره من قبل. مد فمه إلى ابتسامة. عادت عينه مرة أخرى لمكتبه ثم بعد دقيقة تخلص من فكرة الورقة الضائعة بهزة رأس عصبية. شعور بعدم الثقة عاد لإلزورث وأضاءت عيناه على الأوراق الرقيقة التى وضعها على المكتب عندما وصل الحجرة، إن تقريره الآن قد اختفى فى دوامة قمة المنضدة. أدرك فجأة أنه كان غير دقيق. إذ لا يحوى سوى وصف عشوائى لشروق الشمس والسير فى ضوء القمر. سرت فى بدنه رجفة وهو يتذكر عدد الحوارات التافهة التى دونها بينه وبين سبراتلنج وهما يسيران فى الصحراء، ما علاقة هذه الأشياء التافهة؟ كان حائرا. " أنا - " تلعثم أكتب تقريرا فى الوقت الحالى.... تقريرا شاملا سوف أقدمه بأسرع ما يمكن". ذكر تلعثمه جوردون باشا بالحالة الذهنية للضابط الذى يقف أمامه. لم يؤكد على أمر التقرير، وبحركة يد كسولة أشعل سيجارة ثالثة.

"رأيت أضواء" قال: إلزورث دون تفكير، وهو يشعر فجأة بضرورة أن يضيف شيئا. ذكرته اسكتشات حصون المدينة ودفاعاتها التى رآها

على مكتب جوردون. انطلقت العينان الزرقاوان فى اتجاهه وارتفعت الحواجب الصفراء. "أضواء؟" خدع الجنرال. كرر "أضواء"، وهو يخربش باحثا عن قلم حبر وورق. "بطاريات؟ أم إشارات، نار بنادق أم نيران معسكر أم أضواء مدن أم خنافس ترسل ضوءا فسفوريا؟ أى نوع من أنواع الأضواء يا كابتن؟" كانت العينان الزرقاوان نفاذتين مثل أضواء السماء الصافية على خليج من المحيط تنيره الشمس. بدأت الحجرة تدور وإلزورث يعرق ويتحرك تجاه كرسى وأشار إلى حاجته إلى الجلوس. أومأ الجنرال بنفاد صبر، انهار إلزورث على الكرسى.

"لقد كنت متسرعا لأصل إلى هنا، بالطبع فالوقت ذو أهمية".

"الوقت" علَقَ جوردون "هو الشىء الذى لدينا الكثير منه. فليس لدينا طعام، ولا قوات جيدة، ولا وسيلة اتصال معقولة مع ضباط المخابرات الملاعين فى حلفا ورئيسهم كيتشنر. ونحن محاصرون من كل الجوانب. الانتظار يا عزيزى الكابتن هو عملنا" مرت بوجهه ابتسامة سخيفة. "قد يقول المرء إنه واجبنا المقدس أن ننتظر. إننا مثلهم بالضبط، ألا ترى، تحت رحمة إرادة الله الغامضة".

أصدر صوت طقطقة بلسانه وأطفأ سيجارته. "الآن يا إلزورث أين بالضبط كانت تلك الأضواء؟" كان يرسم اسكتشات للأنهار وخطوط الدفاع من الذاكرة، مضيفا القليل من بقع الحبر هنا وهناك للأشجار.

"أتذكر فقط الضوء يعوم فى الظلام وكأننا ننجرف بعيدا إلى داخل السماء بين النجوم".

وضع جوردون قلمه الحبر. بالنسبة لإلزورث كان صوته شخصيا يبدو وكأنه يجئ من بعيد جدا يبدو مكتوما ومليئا بالصدى. لم يدرك أن الرجل المواجه له قام من على مكتبه وأشعل عود ثقاب. ملأت أدخنة الكبريت الهواء ثم رائحة التبغ الغامق الثقيلة. شعر إلزورث بهبوط فى بطنه وكأن حياته تتسرب من بين يديه. كان حلقه جافا. "كان ذلك منذ وقت بعيد"، قال: معتذرا.

عبرت وجه الرجل الآخر نظرة شغوفة. "منذ متى؟".

"ستة أشهر".

لم يتحرك الجنرال لحظة طويلة. تغير الضوء فى وجهه الشاب وكأن السحاب يجرى فى سباق. أخيرا تجرك نحو النافذة. قال: "لقد كنت بعيدا مدة طويلة يا كابتن". لم يستطع إلزورث أن يجد إجابة. واجه كلاهما الآخر وكأن كلاً منهما يتساءل عن الشيء نفسه، ووجد إلزورث ذهنه يدور عبر الشهور السابقة، إلى لحظة كانت من حوالى عام عندما ذهب لمطاردة الدراويش وأدرك أن شيئا داخله تغير. أدرك أيضا أن جوردون يحملق فيه بشكل غريب ثم شعر بالدموع تسيل على وجهه. رفع يده وكأنه يوقفها، ولكن تدفقت دموع أكثر. كان يرتعش ويلهث محاولا التنفس. شعر بضيق وألم فى صدره. اقترب الجنرال من إلزورث. "كابتن" قال: متنهدا وهو ينفخ دخانا أزرق فى الهواء. "إننى سأرسل باخرة جنوبا إلى حلفا. مقدم ستيوارت سوف يتولى مسئوليتها. أقترح أن تصحبه".

"كنت أعتقد أن العمل هنا يا سيدى فى حاجة إلى كل الأيدى" تذمر إلزورث.

ولكن جوردون كان الآن يحملق عبر النافذة المفتوحة، إلى أسفل عند الضفة غير المنتظمة والحقول المصطفة التى تمتد بعيدا عبر جانب النهر حيث طيور الحباك تدور فى منعطفات سريعة جدا. سفينة العباس ترسو هناك تميل بشكل طبيعى إلى أحد الجوانب بالطريقة نفسها التى يميل بها مرفق رجل عجوز على المنضدة. الرجال يتجولون أعلى وأسفل المعبر يحملون الأكياس والصناديق. دون تفكير بحث جوردون عن تليسكوبه ووجهه عبر الماء إلى الحصن الشمالى.

لقد سمع إلزورث أن الجنرال يقضى معظم الليل على سطح السراى يراقب معسكر العدو إلى الجنوب وأى تحركات محتملة للقوات. دون أن يبعد التليسكوب عن عينيه وبينما هو يفحص الأفق بدقة قال جوردون: "يعتقدون أنهم يواجهون مجموعة من الهمج لديهم أنصاف عقول يا كابتن، متوحشين وكل الأشياء من هذا القبيل. إنهم كالعادة يسيئون تقدير إمكانات هؤلاء الناس". وضع التلسكوب واستدار. "ألم تقرأ من قبل كتابهم المقدس، القرآن، ياكابتن؟".

فوجئ إلزورث إلى حد ما ولأنه غير متأكد من هدف السؤال أجاب "أنا... حسنا لقد تصفحته مرة يا سيدى. أعتقد أنه متأنق بلاغيا جدا".

"متأنق بلاغيا؟" جعل الغموض الجنرال يبدو صبيانيا. بحث عن نسخة تحت مكتبه: نسخة من ترجمة سيل للقرآن "Sale's translation. إن على المرء أن يفهم أن محمدا كان مجردا من الخطيئة، حقا، لقد اعترفوا

أنه أخطأ. لا يوجد مسلم يقول إن المسيح أخطأ. هم مستعدون ليقفوا ويضحوا بأنفسهم. محمد لا يقوم بمهمة الوساطة بينهم وبين الله".

أسقط الكتاب وحملق بشكل حاد فى إلزورث. "إن رب المسلمين هو ربنا يا إلزورث ماذا أقدم ليكون لدى كتيبة من الرجال المتفانين مثل رجال المهدى".

"سيدى؟".

"هل تؤمن بالقدر يا كابتن؟".

لم يجب إلزورث. جلس جوردون مرة أخرى إلى مكتبه ونظر إلى أعلى دون أن يتلقى إجابة. "من حسن حظك أنك لم تعد إلى جانب جنرال هيكس؟" العينان باردتان والابتسامة خافتة. كان الجنرال الماهر يمتحن رجولته. "جمجمتك كانت ستصبح بين هرم العظام الميتة الذى بنوه فى شيكان".

"كنت سأموت ميتة شريفة". همهم إلزورث "واجبى كضابط فى جيش الملكة".

"أدار جوردون عينيه" إلى أعلى وتنهد قائلا: "جيش الملكة". ليس لهذا علاقة بالملكة، ألا ترى ذلك؟ هذه حجرة خلفية عشوائية قذرة بين الإخوة أصحاب التفكير نفسه إلى حيث نحن..... "المغامرون تم سحبهم". لوح بيده ليبعد ذبابة. "هكذا سوف يضعنا التاريخ يا إلزورث: المغامرون، اللصوص، المرتزقة..... وقطاع الطرق". بدا اتجاه الحوار يضايق هاميلتون إلزورث. يبدو هذا الرجل بالنسبة له ماكرا، مخادعا

لا يستطيع أن يجد الكلمة المناسبة. ابتسم جوردون ابتسامة ذكية." أعتقد أن الرجل العاقل هو العالم، هل قرأت من قبل يا كابتن كتاب بلوتارك "حيوات متوازية؟". كانت الإجابة بهزة رأس. "حسنا أعتقد أنه بقيمة ألف جزء من كتيب ضباط أركان الحرب، الذى لا شك أنك قرأته وتحفظه عن ظهر قلب من قبل الواجب".

رفع القلم الحبر وبدأ يرسم اسكتشات على جانب ورقة تضم لوجيستيات. "إنه يدعو للتضحية بالنفس وهذا ما نحتاج للمزيد منه هنا. وبالنسبة لموضوع التضحية بالنفس فالمسلمون تفوقوا فيه على الكاثوليكيين والبروتستانت". نظر إلى أعلى حيث دخل الحجرة ضابط طويل وعيونه حزينة، حياه بطريقة روتينية، ألقى بنفسه على الأريكة. ابتسم الجنرال. "يا ستيوارت، ما الأخبار؟".

تنهد ستيوارت. "أبحرت السفينة التوفيقية جنوبا إلى موجران هذا الصباح ثم فى اتجاه حلفا. حددوا موضع عبدين فارين على الشاطئ وهما اللذان أشارا لهم. توقفوا ليأخذوهما إلى سطح الباخرة حيثما أطلقت عليهم النار. قتل رجل وجرح آخران".

جز جوردون على أسنانه وهو يصدر ملاحظة أسف. "إنهم يفقدون أعصابهم مرة أخرى" علق وهو يواصل رسمه التخطيطى. "كابتن إلزورث كان يخبرنى حالا عن بطولاته يا ستيوارت. أنتما تعرفان أحدكما الآخر بالطبع".

بدا ستيوارت قلقا . "كابتن إلزورث كان تحت قيادتى عندما أرسل إلى هنا منذ عامين". دارت عينا جوردون وكأنه ضرب فى جبهته. "بالطبع" أومأ قائلا: وهو يحدق فى إلزورث بابتسامة خافتة: "أنت أيضا رجل مخابرات" كان يلفظ الكلمات وكأنه ينطق بالخطيئة ثم أصبح لدى إلزورث انطباع أن السردار ينظر إلى هيئة المخابرات وكأنها الأكثر انحطاطا . أشعل جوردون عود ثقاب. "إلزورث سيسافر فى اتجاه مجرى النهر معك يا ستيوارت عندما تذهب". كان هناك حرج، جو من اللوم. خطر ببال إلزورث أن الرجلين قد ناقشا أمره من قبل. قام ستيوارت وجاء ليصافح إلزورث بقبضة قوية محكمة. "مرحبا بك على سطح الباخرة. يسعدنى أن تكون معى". شعر إلزورث بمخالب البارانويا تزحف عائدة إليه مرة أخرى .

" كيف تسير استعدادات الرحيل؟".

استدار ستيوارت فى اتجاه جوردون. "يبدو أن الخبر انتشر، الجميع يزعجوننا بإلقاء نظرة".

"اللعنة. حسنا لا تجعلنا نعطلك. أنا متأكد أن لديك ألف شىء لتقوم به".

حياهما ستيوارت سريعا وذهب. تبعه جوردون حتى باب الخروج عبر الشرفة "أحمت (أحمد). شاى من فضلك" كان إلزورث يخطط ليستأذن فى الانصراف ولكنه أدرك الآن أنه سوف يضطر للبقاء جالسا ويقدم له كوبا من الشاى. ابتسم جوردون قائلا: " العودة للوطن أمر جميل يا إلزورث؟".

"لم أفكر يا سيدى". تململ فى كرسيه.

"المفسدة القديمة. العودة للأماكن الدافئة بجانب المدفئة. وليالى الشتاء المظلمة، ودعوات العشاء وكل هذه الأشياء العفنة". علق جوردون بأسى.

"اعتقدت أن مكانى هنا يا سيدى، إن الموقف حرج".

ضحكة جافة تسربت من جوردون تعقيبا على ذلك. كرر "حرج؟". قل ذلك لجلادستون وبقية المخلوقات المغرورة الأخرى فى وايت هول. لقد مرت بهم اللحظة العصيبة بينما هم يسحبون بطاطينهم حول أخصارهم ويرشفون خمر الماديرا. "الخرطوم؟" "اثبت أيها الرجل العجوز ستصيب نفسك بعسر هضم". "من هو الآن؟ نعم، جوردون. لا تفعل أبدا مثل الرجل العجوز". "اهدأ ولكن علينا على الأقل أن نقوم ببعض الجهد ألا تعتقد ذلك؟". "الآن لا تدعنا نتعجل. علينا أن ننتظر ونرى كيف ستخضع البلد". "كنت أعتقد دائما أنه غريب الأطوار قليلا. بالمناسبة، كيف حال زوجتك؟" إلخ إلخ وأشياء تثير الاشمئزاز".

جلس إلزورث فاغرا فاه خلال هذا العرض الصغير بكل ما فيه من الإبداع والجنون الذى يجده المرء فى استعراض أو مشهد جانبى غريب فى سوق ريفى. فقد كان الجنرال يتحرك هنا وهناك وعيناه تدوران ويداه تضربان بتشنج من جانبيه. جاءت إلى الغرفة مجموعة من الشخصيات من عالم بعيد، قتلت بشكل لا يتسم بالاحترام.

وبهدوء ظهر أحمد حليق الذقن ووضع صينية الشاى النحاس الصفراء وانسحب دون صوت إلى الخلف عبر الباب. النظرة الرواقية(*) على وجه الرجل جعلت إلزورث يفكر فى عبثية الموقف الذى قدم فيه هذا التقليد الساخر. مرت اللحظة وسقط جوردون على كرسى ذى ذراعين وهبط على الحجرة صمت مطبق. عندما عاد صوت جوردون استعاد هدوءه ونبرته المحققة السابقة. قال: "اللحظة الحرجة مرت بنا، وميزها صمت محير". حملق بشكل غريب فى حذائه ذى الرقبة المرتفعة. "إننا النقطة الصامتة التى تميز مركز أخلاق الإنسان". إنه يقوم بدور إنسان يشن حربا بيد واحدة ضد قوى الظلام التى تحاول أن تغسله بتيار القرن "لقد تحول سلاتين إلى الإسلام. كنت أثق بهذا الإنسان مثل ابنى، وقد باع ضميره. ولكننى أفهمه أكثر مما يعتقد؛ لأننا هنا جميعا وحدنا".

العينان الزرقاوان المذهلتان بربشت فى اتجاه إلزورث. "ولكننى لن أسامحه أبداً. كنت أعرف دائما أن هذه اللحظة ستأتى. فى مكان ما من أعماقى كنت أعرف أننى سأواجه يوما سؤال الإيمان الراسخ فى مكان بدائى كهذا، حيث مكونات الطبيعة والنوع الإنسانى فى أسوأ وأكثر حالاتهما بدائية .... وسأكون وحيدا تماما. هكذا نأتى إلى العالم وهكذا يجب أن نرحل".

(*) نسبة إلى الفلسفة الرواقية وهى الفلسفة التى أسسها الفيلسوف اليونانى زينون **Zeno** فى أثينا عام ٣٠٨ ق.م. والفضيلة فى رأى الرواقى هى الخير الوحيد، والرجل الفاضل يجد سعادته فى داخل نفسه ويكون مستقلا عن العالم الخارجى بكل ما فيه من شرور، فجنته فى قلبه وبالتالى فهو سعيد ومطمئن دائما. وبالتالى فإن المقصود هنا "النظرة المطمئنة". (المراجع)

في ضوء بعد الظهيرة الضعيف، نسيم النهر يدور برقة في جنبات الحجرة يربت على أذرع الكراسي الناعمة وكأنه يعدهم للمحرقة القادمة. البخار يتصاعد من أكواب الشاي التي لم يلمسها أحد على المنضدة الصغيرة، فكر إلزورث مرة أخرى في الانصراف. كان يريد العودة إلى الثكنات ليرقد ويسكن هذا الاضطراب الذي يدور في رأسه مثل دوامة تبتلعه إلى الأعماق.

جنرال تشارلز جورج جوردون وقف عند النافذة. عبر الحجرة ظلٌّ وصدر عنه صوت دهشة. صاح قائلا:

"انظر". وقف إلزورث على قدميه وهو يرتعش وتحرك نحو النافذة. كان الجنرال يشير إلى السماء. "أليست رائعة" وراقب إلزورث بينما سحابة من الدخان الرقيق اللامع البديع تطير في السماء، تاركة خلفها الصيحة الحزينة التي تصدر من طيور الكركي. شق السرب طريقه دون جهد عبر ضباب الماء وقت غروب الشمس، متجها إلى الشمال واختفى عند نقطة في السماء الكئيبة. "إنها تطير في اتجاه الأحمق كيتشنر ورجاله، الذي لا يستطيع أن يفهم أي كلمة أقولها وتقاريره العسكرية يتعذر فهمها".

راقب إلزورث الرجل بإعجاب مما جعل من المستحيل أن يبعد عينيه عنه. ضوء السماء الأزرق ملأ تلك العينين المسكونتين.

همس جوردون لنفسه: "إنه قريب جدا، هناك عبر هذا الشريط من الماء القذر". خطا بعيدا عن الشباك، تاركا إلزورث وحيدا. إلى أسفل على جانب رصيف الميناء الطيني، لا يزال الرجال ينقلون الوقود إلى

الباخرة المنخفضة. الدخان يتلوى من المدخنة الرفيعة غامقة اللون، مدخنة غامقة اللون وقطرات نحاسية تتساقط من ألواح عجلة التجديف. حزم خشب الوقود على هيئة عيدان منظمة. كان الرجال يتحدثون بعضهم إلى بعض بأصوات عالية واضحة، شخص ما يغنى. نهايات الحوارات تذروها الرياح مثل شرائط منزوعة من صفحة كتاب لن يستطيع قراءته.

"سيتمنون أن يأتوا لإنقاذى. أنا أهم من الكتيبة، من البلد. ثقافة الاحتفاء تنمو حولنا. فقدت الكلمات معناها ويستخدمها سائقو العربات يوميا لتنظيم بضائعهم المخزنة، مثل الرجال يقذفون إلى النار حينما يحين الوقت. إننا نعيش فى عصر جديد من الوثنية. يشعر المرء بتعاطف معين مع محمد، الذى رفض أن يرسم له أى بورتريه. إن المسلمين ينظرون إلى المسيحية بوصفها تبسيطا. وهو جهل يرجع إلى نقص فى الحقائق الكاملة كما كشفها الرسول الأخير. الحقائق الكاملة التى تضم بالطبع اللغة العربية". ترتفع نبرة صوته وتنخفض؛ لأن ذهنه يتنقل دون هوادة عبر معلومات عديدة، مثل رجل يكافح، فكر إلزورث، ليجد معنى لعالم تحطمت صورته بين يديه. "ما لا يحتملونه، رغم ذلك، هو عبادة الأوثان. أليس هذا تناقضا مثيرا؟ إن أتباع المهدى يحاربون لاستعادة الإيمان الحقيقى ونحن فى جهلنا نحاول أن نهزمهم، بينما الحقيقة أننا أيضا فقدنا فهمنا للإيمان. إلى أين ننطلق من هنا يا إلزورث؟".

تحرك فى أرجاء الحجرة وهو يرتشف الشاى الفاتر من كوبه. لا توقف لتطور أفكاره. "إننى أؤمن أن الله خلق الحيوانات لهدف، وجعلنا

نحن الآدميين أعلى مكانة منهم ليذكرنا بهذا الهدف. وخلق الله نفسه فى صورة إنسان، والفرق بيننا وبينه هو خطيئتنا. وسعادتنا المستقبلية تكمن فى أن نستطيع أن ندرك اكتمال بصيرته وذكاءنا المحدود". هز السردار رأسه. "فكرة كئيبة". إلا أنها موحية، بشكل واضح؛ لأنه وضع كوبه وجلس إلى المكتب ليبدأ كتابة أفكاره بسرعة فى دفتر أخذه من تحت كومة أوراق ومسدس.

كان إلزورث يجلس صبورا، الشاى لم يلمس فى يده، لا يستطيع أن يستجمع قواه ليتحرك. حينئذ وقف جوردون فجأة، وألقى بقلمه الحبر وتناول طربوشه الأحمر الذى وضعه متزنا على رأسه. ابتسم وربت على كتف إلزورث وهو يمر. "اتصل باستيوارت من أجل الرحيل. الآن يجب أن أذهب وأراقب دجاجاتى. إن المرء يتعلم منهن الكثير".

جلس إلزورث يحملق فى الظلال التى تصنعها على الحائط قمم النخيل التى تهتز برقة مع النسيم.

١٩- أم درمان، معسكر المهدى

أكتوبر ١٨٨٤

الأرض بأكملها تتحرك. قافلة التابعين والمهاجرين تمتد على الأرض في خط ملتوى من البشر. رجال ونساء وأطفال يحملون ممتلكاتهم ملفوفة في قماش، ويسحبون بغالهم وإبلهم خلفهم ويسيرون إلى الشمال بحثا عن أمل.

أين بالتحديد المهدى نفسه، كالعادة، أمر يغلفه الغموض. يأتى ويذهب بسهولة كروح مرنة تمر عبر الحجر المحروق الذى يقع تحت هذه الصحراء مثل ماسة لامعة، ليعطى رنينا متجددا لكلمات المحارب المبجل عبد الرحمن واد النجومى: "إنه الروح وهم الجسد. إذا لم يكن الله قد أرسله كنا سنطلب من شعرائنا أن يتخيلوه".

شخص ضئيل يسرع عبر الحواجز التى أقيمت بسرعة من الأشواك والخيام والسواتر الرديئة، بطبيعته الدائمة من الارتباك المكتوم. القوات مجتمعة فى معسكر على الحافة الغربية لقرية أم درمان الصغيرة، وهذا بدوره يصل حتى يكاد يلمس الضفة الغربية المقوسة للنهر نحو الشمال فى اتجاه البحر البعيد. نام حاوى نوما سيئا ويشعر هذا الصباح بكبر سنه. أطرافه متيبسة ورأسه يؤلمه وكأنه أصبح مريضا بالحمى. كان يدعو فى صمت ألا تكون نهايته هكذا. فتجمع كل هؤلاء

البشر، يؤدى إلى انتشار المرض من شخص إلى آخر دون رحمة أو حدود.

لقد استدعاه الخليفة عبد الله شخصيا هذه المرة. إنها ليست المرة الأولى، ويخشى أنها لن تكون الأخيرة. منذ أيامه فى الأبيض اكتشف أن سمعته تسبقه أينما ذهب. الشهرة نفسها التى تدعو إلى الشك والنبذ فى بعض الأماكن تجذب آخرين. لقد أصر الخليفة على مقابلته والتحدث عن أفكاره. شك فى البداية أن الأمر نزوة وستمر ولكنه وجد أنه يتم استدعاؤه للحكم أو النصيحة فى أمر أو آخر. إنها ليست مهمة سهلة: فقائمة المستشارين والحكماء ليس لها نهاية. فضلا عن أن هذه الاستدعاءات لها ثمن، فأن يكون المرء على هذه المقربة والثقة مع أحد أقوى الرجال فى معسكر المهدى تعنى أن الكلمة الخطأ يمكن أن تكون خطيرة جدا. يمشى على الطريق حذرا بقدر ما يستطيع، ولكن الأمر يتطلب كل ذرة براعة يمكن أن يستدعيها.

أصوات المدافع تسمع عن بعد. يقول البعض: إنها تدريب فرق المدفعية. ويقول آخرون: إنه تكنيك لإصابة العدو بالرعب حتى يفر عبر النهر إلى مصر. إنهم قريبون اليوم ويبدو أنه جزء من الهجوم على الحصن فى أم درمان حيث ما زالت تصمد عنده قوة صغيرة. لقد شنق ثلاثة رجال هذا الصباح فى الفجر بسبب التجسس، إنهم يرقدون على الأرض فى ضوء الشمس ووجوههم تغطيها شبكة من الذباب الطنان. أسرع حاوى وهو يغطى فمه وأنفه بوشاح.

منطقة الخليفة المسيجة يحيطها سياجان متلازمان من الأغصان الشوكية. بعد الحراس المسلحين بالسيوف والبنادق عدة خيام تضم الخدم والمستشارين والزوجات. وكل يوم تظهر سواتر جديدة. الحارس الذى لا يتغير أبدا بل يعيش لصيقًا بباب سيدهم تعرف عليه وأدخله. خلع حاوى خفه عند باب الخيمة البيضاء الواسعة التى كان يقيم بها يوما جنرال هيكس، وخطا إلى الداخل. الأرض تغطيها سجادة جيدة كبيرة وزنها يساوى عشرة رجال. وبينما مرت عيناه بالمكان وجد ملامح الخليفة المتحجرة التى تحمل ندبات الجدرى. تبادلا التحية باقتضاب وشعر حاوى مرة أخرى بالأيدى التى تمتد لتقبض على حلقه. عبر العام الأخير اكتشف فى نفسه قدرة على السيطرة على ردود فعله، الأفعال التى كانت تؤدى إلى أن يستلقى مستيقظا ليلا؛ ليناضل مع ضميره، لا تثير الآن سوى قليل من الإحساس. قال لنفسه: إنها علامة على أنه يكبر فى السن، وأن ريعان الشباب كان لهبا يتضاءل مع مجيىء الحكمة.

كانت الخيمة تضم عددا قليلا من الوجهاء الذين وقفوا جميعا لتحيته. عاد عبد الله إلى مكانه وكعادته طلب من حاوى أن يجلس إلى جانبه. جلس، وهو يدفع مخاوفه حول هذا التفضيل، الذى يخشى أن يكون له يوما ثمن مرتبط به. إلى يساره رجل نحيف يبدو وجهه وكأنه كله من العظام، صلف وجاف التعبير. يبدو أنه يفهم قليلا مما يقال: وأصبح واضحا فيما بعد أنه أصم. كان معالجا روحيا من نوع ما أرسله ماك آدم من مملكة تكالى Taqali بجبال النوبة. من حين لآخر يغمغم بالآية نفسها من القرآن وكأنها الإجابة عن كل شىء. فى الحقيقة أصبح

واضحا لحاوى أن كل واحد من الحاضرين مرجع فى أمور الروح. ابتسم الخليفة ابتسامة واسعة وطلب تقديم الإفطار. قدمت سلاطين الطعام: اللحم المشوى وتلالا من الأرز فضلا عن العصيدة والجوراسا، سلالا من البيض المسلوق، البصل والفول، الباذنجان المقلى والبامية. شمر الآخرون أكمامهم وجلسوا للعمل، بينما جلس حاوى يمضغ ببطء تمرات قليلة. كان هناك شد وتمايل ونخز وهم يأكلون. لم يحدث أبدا، فكر حاوى، أن اجتمع هذا العدد من المؤمنين بالخرافات فى الوقت نفسه. قصة أن والد عبد الله كان هو نفسه عرافا مشهورا ومفسر أحلام له سمعة كبيرة بين التاعيشة كانت سببا لبعض الجدل؛ لأن هناك خيطا رفيعا بين الإيمان بالخرافة والوثنية.

كان الخليفة مشغولا بمحاولة أن يجعل ضيوفه يتكلمون ويستعرض قدراته الاجتماعية الكبيرة. "عبد اللطيف رجل رؤى معروف. لقد ساعد فى عدة سنوات صعبة فى التنبؤ بأفضل وقت لزراعة بعض المحاصيل وأيضا فى عدد من غارات الصيد أليس كذلك؟". كان هناك بعض الضحك المهذب؛ لأن هؤلاء الذين قاموا بالغارة ربما يكونوا حاضرين بين هذه المجموعة المختلفة من السحرة وقراء الفنجان. أشار الخليفة بدبوس دجاجة. "معنا هنا أخونا إدريس، قد أقول: إنه أشهر إدريس وهو الذى أمضى سنوات عديدة تحت تأثير المدرسة القادرية(*) Kadirriya فى بغداد". كان إدريس رجلا ضئيلا شاحبا له حواجب حليقة وأعين كالسمندل.

(*) القادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلانى الذى ولد بجيلان عام ١٠٧٧م، وتوفى فى بغداد عام ١١٦٦م، وهى طريقة صوفية كان لها اتباع فى مصر والسودان والمغرب والصومال واليمن وتركيا والهند، ويوصف عبد القادر الجيلانى بأنه تاج العارفين ومحيى الدين وشيخ الشيوخ. (المراجع).

على رأسه يعتدل أكبر طربوش يمكن أن يراه المرء. وبجانبه رجل مفتول العضلات ذو بشرة غامقة. شعره دهن فى خصلات طويلة متشابكة من نوع خيالى يرتدى صدرة من جلد النمر ويحمل حقيبة من الجلد المزق اللامع فيها قرد صغير أبيض الوجه يبرز رأسه من حين إلى آخر ليتلقى بعض لقم من الطعام يعضها بقوة بأسنان قصيرة حادة. تفحص الخليفة هذا الرجل، ومن الواضح أنه نسى من هو أو من أين أتى. وكان الصمت يزيد الغموض، ولكن فيما بعد أخبر شخص ما حاوى أنه رجل له قدرات لا تصدق من منطقة المستنقعات فى الجنوب. يمكنه أن يتحول إلى صقر، يمشى على الماء وعرف عنه أنه يستطيع أن يعيد الموتى إلى الحياة. لم يشارك فى الحوار إلا بالقليل، لأن شخصا ما نسى أن يحضر له مترجما وهو لا يستطيع أن يتحدث سوى القليل من اللغة العربية.

ولكن الخليفة بدوره كمخرج للمسرحية فى هذه المناسبات وصل الآن إلى حاوى فى دورة التقديمات "قد يتذكره بعضكم منذ حوالى خمسة عشر عاما عندما اشتهر برؤاه الراديكالية لإصلاح ديننا العظيم. اعتقد أن أفكاره كادت تكلفه حياته فى وقت ما". صدرت دائرة من الضحك الخافت تاركة حاوى بابتسامة خافتة مجبرة على الوجه. نظر الخليفة إلى كومة الأرز أمامه. "أعتقد أنه لا يوافق على بعض أوجه من قوانين الشريعة" نظر حوله إلى الوجوه المجتمعة. ولكن من يمكنه أن يقول: إن قوانيننا القاسية ولكن الفعالة لم تحفظ الأمن لألف وثلاثمائة عام منذ وقت نبينا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام". استمر يلقى محاضرة سيئة التكوين عن فضائل العقوبة البدنية وتاريخ الدين بشكل

عام مما أتى بدموع الضجر إلى أعين الحاضرين الأسرى. "ولكن فى النهاية وكعلامة على سماحة الهدف النبيل الذى نجتمع من أجله، فإن حاوى هنا لأنه يمثل ثروة من المعلومات ويجادل بشهية مفتوحة". يد كبيرة ضربت حاوى على كتفه. لا يمكن أن يقاوم المرء سحر روح الفكاهة لدى الخليفة. وكان واضحا أن هذا الرجل الداهية قرر أنه من المهم أن يقود العوامل الخارجية للحملة وفعل ذلك بدعوة كل رجالهم الحكماء إلى اجتماع. وكأنه يؤكد هذه النقطة. رفع السمندل الصوفى ذقنه وسأل فى لهجة القدماء الخالية من الأخطاء "سيدى أسأل عن غرض جمعنا فى هذا الاجتماع الجيد؟".

قذف عبد الله بعظمة الدجاجة إلى الأرض ونظر حوله إلى الأوجه المجتمعة. مال إلى الأمام وتوقف الجميع عن المضغ. "بلا شك أنتم تعلمون أننا على حافة إزالة الكلاب الأتراك من هذه الأرض مرة واحدة وإلى الأبد. دع العالم يعلم أننا لن نستعبد من الكفرة الذين يودون أن يحكمونا من وراء البحار. لن نرقص على نغمات الوثنية التى تطلقها الأبواق عن بعد، إن بعثة المهدى العظيم المقدسة تؤكد نصرنا، فليباركه الله وجميع من حوله".

كانت هناك همهمات إجماع عند هذه النقطة. رفع الخليفة عبد الله إصبعا قصيرا وبدينا وأشار إلى الخيمة فوقهم. "لن يخلص امرئ للمهدى مثلى. إنه المرشد. وهو روح حركتنا، ولكن يقع على شخصى المتواضع أن أتعامل مع الأمر العملى لتأكيد انتصارنا العسكرى. لقد قال المهدى: إنه لا حزن على هؤلاء الذين سقطوا فى المعركة وكلنا نعلم

أن هذا حقيقى لأنهم يرقون لأعظم مكانة يحققها الإنسان. إنهم يصعدون مكرمين إلى حدائق الفردوس. يجب أن نحتفل برحيلهم". لقد تمكن من أن يصل إلى تلك الحماسة لدرجة أنه فقد تماما اتجاهه.

شيخ بدين على الجانب البعيد من السجادة استغل هذه اللحظة ليعلى مركزه فرفع إصبعه. قال: "سيدى" قاطعا الصمت المنتظر. "لا أحد يشك فى أمر الشهادة التى نالها الأنصار، ولكن يبقى السؤال كيف يمكن أن نساعد بحكمتنا المتواضعة ومعلوماتنا". كان يحاول أن يجعل الموضوع لطيفا بابتسامة واسعة وحركة رأس إلى الجانب تلك الحركة التى هددت بإسقاط العمة التى تم لفها بطريقة غير متقنة. "لا أحد منا يختلف على النور الذى نشره نبيلنا المهدى عبر البلاد وفى العالم فى الحقيقة، ولكن الهداية التى ترسل إلى المهدى من الرسول عليه السلام"، أصبح وجهه جادا الآن لأنه بدأ يدوس على أرض ممهدة وكان يقترب على نحو خطر من أن يقول فعلا ما يفكر فيه، "بكل الأشكال كاملة ومقدسة". فتح يديه على اتساعها، مختارا مرة أخرى أكثر الطرق أمانا. "ماذا بوسعنا نحن البشر الفانون أن نضيف لذلك؟".

كان الخليفة يمضغ حفنة من الفول السودانى واستغرق وقتا قبل أن يجيب، مما لم يرح الشيخ، "ما تقوله صحيحا". أومأ أخيرا وهو يسحب تنهيدة راحة من الرجل البدين عبر الحجرة. "ولكن عدونا حيوان ماكر ويجب أن نكون يقظين. كل منكم خبير بطريقته فى أمور لها طابع معين. أنت موهوب بحكمة خاصة تجاه مواطنيك المتحدين الآن تحت أعلام المهدى باركه الله". توقف عبد الله مفكرا وهو يحملق فى يديه. قال:

"أبى أيضا كان مثلكم"، ثم رفع عينيه، واتسع وجهه نحو ابتسامة ومد يده. "تعالوا لتخبرونى برؤاكم وأحلامكم وهواجسكم. سواء كانت جيدة أم سيئة. هذا وقت خاص والعالم كله مشتعل بالرسالة التى فى متناولنا. يجب أن نكون يقظين لأى علامة مهما كانت".

وفكر حاوى مليا أن تفكيره المبدئى كان صائبا: فالخليفة تحت أسلوبه المرح وتهوره الواضح كان رجلا حذرا إستراتيجيا داهية. لقد دعا هؤلاء الرجال هنا؛ لأنه يعلم أنهم وثيقى الصلة بالأفراد الذين يحكمون العصب المختلفة فى قوى المهدى. لا شىء أكثر ضرورة فى هذا الوقت من وحدتهم. يجب أن يشعروا جميعا أن دورهم فى المعركة حيوى وأنهم ينالون الاحترام. الاستثناء الوحيد لذلك هو حاوى نفسه، فليس لديه أى سيطرة على مقاليد الأمور.

بقية الاجتماع كانت عهود الإخلاص المتكررة وكل رجل يبذل قصارى جهده ليتفوق على الحضور الآخرين. كلهم يودون أن يكونوا على رأس الهجوم فى الخرطوم الذى يخطط له فى هذه اللحظة نجومى الرائع

عندما انتهى الاجتماع وكان الضيوف يخرجون، أشار الخليفة لحاوى بأن يبقى. وعندما أصبحا وحدهما، بدأ عبد الله يتكلم عن كلمة ألقاها المهدى على مجموعة من الجنود المعسكرين فى شات منذ شهور. "متحدث لبق" كان يقول: "من كلماته يهمس بها فى روحه الملائكة والرسول نفسه. ولكن على أرض عسكرية أمام ألف جندى، لم تحمل كلماته، رغم صدقها، الثقل الذى كان يجب أن تحمله. فلم يستطع

الرجال سماع التفاصيل الجميلة التى تضىء الطريق". قال: فجأة: "إنهم جهلاء، معظمهم أبناء فلاحين. رعاة مثلى". ضحك وضرب على صدره. كان حاوى يعرف أنه يشهد على وجه آخر من سلوك الخليفة. "كانوا يحتاجون فقط للاستماع إلى كلمات التشجيع، شئ بسيط".

"ولكن بالتأكيد رؤية المهدى المحبوب كانت تشجيعا بالنسبة إليهم؟" أشار حاوى بذكاء.

أومأ الخليفة، دارت العيون الصغيرة حولها بحذر، وحملقت دقيقة على نقطة على جلد الماعز الذى يجلس عليه والدقيقة التالية ثبتت الحاوى بالطريقة التى يثبت بها الصقر فريسته. "أنت الوحيد بين هؤلاء الرجال الحكماء الذى أستأمنه على حياتى "قال: بهدوء": هل تعلم لماذا؟".

هز حاوى رأسه ببطء.

ضحك الخليفة ضحكة عميقة عالية. ووضع يده على ذراع حاوى قائلا: "سأخبرك ما تفعله عندما تعتقد أن هناك ثعبان يقترب". لمعت عيناه كالحجر الندى. "تجعل القطيع فى الأرض الخالية بعيدا عن العشب، حتى يمكنك أن تراه". توقف صامتا ليدرس حاوى بدقة. "يقول كثيرون: إنك كان يجب أن تموت فى نهاية ذلك الحبل، ما زال لديك أعداء كثيرون، يا صديقى". غمز بعينه بشكل تآمرى. "ولذلك أعلم أنه يمكن الثقة بك".

قرر حاوى أن الوضوح مطلوب "إن الرجل الذى يمضى حياته دون أعداء يكاد لا يكون له تأثير على العالم. فمحمد نفسه عليه صلوات الله

وسلامه كان له أعداء كثيرون". تجهم الخليفة. "هل تقول هذه الأشياء لأنك تؤمن بها، أو لتسمع فقط صوتك؟ هز رأسه". "لا تبالى بذلك الآن. أخبرنى، هل زرت الأسرى كما طلبت منك؟".

أومأ حاوى. "فعلت يا سيدى".

"و؟".

"إنهم فى حالة يرثى لها. حالتهم المعنوية سيئة".

طقطق الخليفة بلسانه دون صبر. "إنهم لم يروا نور الله بعد".

"إنهم لا يستطيعون أن يروا أكثر من محنتهم" أوضح حاوى الذى صدم لرؤية الحالة التى أبقى عليها الأسرى. فهم متسخون ولم يغتسلوا. لا يهتمون بمظهرهم. كان أكثر اهتماما بمصير الإفرنجيين؛ لأن الخليفة طلب منه أن يعطى اهتماما خاصا للأوروبيين.

" لماذا تعتقد أنهم مصممون على إنكار الإيمان الحقيقى؟".

فكر حاوى دقيقة. لديه إحساس غريب بأن الخليفة يعجب بعناده بشكل ما. فرغم كل الاتهامات بالوحشية والقسوة التى لا تعرف رحمة أو شفقة، يتصور حاوى أنه يسكن فى هذا الرجل احترام للتعلم. فى الأيام الطيبة كان حاوى يجد عزاءه فى ذلك، فى فكرة أنه قد ينبثق من هذه الفوضى والدمار شئ له قيمة. فى الأيام السيئة يرى الأمر مختلفا.

"أعتقد، يا سيدى أنهم خائفون مثلما يخاف البشر جميعا عندما تواجههم حقيقة مروعة ولا يمكن إنكارها وتتطلب هجر كل شيء. تتطلب

القوة والشجاعة للاعتراف بأن المرء عاش حياته على كذبة، أو على الأقل سوء فهم".

أعجب الخليفة بذلك. ضرب على فخذه وضحك بينه وبين نفسه. "إنك حقا رجل ذو مواهب عدة. تتحدث بلسان من فضة، والحكمة تسيل عسلا من كلماتك". فكر حاوى أنه يوم طيب. ولكن حينئذ جاءت الطعنة. ضاقت عينا الرجل قوى البنية. "أخشى، رغم ذلك، أنك تسعى لتجعلنى أنحرف عن الاتجاه الحقيقى لأفكارك؛ لأنه من الواضح حتى بالنسبة لراع بسيط مثلى أن ما يعيشون فيه ليس اليأس ولكن الأمل، الأمل لأنه بطريقة ما سوف يتم تحريرهم على أيدى قوات الكفار الذين حتى فى هذه اللحظة يحاولون استدعاء جيش للانتقام لموتاهم. وهذا ليس سرا".

أذن الخليفة لحاوى بالانصراف وطلب منه العودة بعد ظهيرة اليوم نفسه. "أود أن أرى هذه المخلوقات الحقيرة بنفسى. سوف تذهب معى".

الذهاب إلى أى مكان مع الخليفة ليس أمرا سهلا. فالحاشية من الحراس والخطاطون والسكرتارية يجرجرهم خلفه بينما هم يشقون طريقهم عبر الأعداد الضخمة من الجنود والتابعين من المعسكر، والأكواخ نصف المكتملة وأكوام الممتلكات والأطفال والحيوانات. هناك ضحك وصراخ. تجمع من الصبية الصغار التحقوا بالموكب، أخذوا يجرون بجانبه ويقفزون فى الهواء، مبتهجين. سحبت الأمهات الأطفال الصغار بعيدا عن الطريق. الكلاب الهزيلة تفر تحت السواتر المصنوعة من الخوص وسعف النخيل.

يتم التحفظ على الأسرى إلى جانب شجرة سنط كبيرة يتدلى منها جسر نحيف. يؤدى النسيم الآتى من النهر إلى حفيف أوراق الشجر فوق رءوسهم. الأسرى يجلسون أو يستلقون على الأرض، أيديهم وأقدامهم مقيدة بسلاسل وقيود قوية.

وقف الحراس عندما اقترب الموكب وتحركوا بسرعة بين الأسرى يحثونهم لينتبهوا ببنادقهم وسيوفهم.

"قفوا على أقدامكم أيها الكفرة". ضحك الخليفة ضحكة خافتة. "إن سيدكم أمامكم". تجول، ويداه مشبوكتان خلف ظهره مثل رجل دولة يعاين قواته.

كان معظم الأسرى من الكهنة، رجال الدين الذين جاءوا إلى هنا للتبشير بالمسيحية. لقد تم اعتقالهم على الطريق فى المدن النائية التى استقروا فيها. شخص نحيف منحنى تسلل إلى الأمام. تجاهله الخليفة فى البداية ثم استدار وأشار إليه. الشخص الذى ينحنى ظهره مثل السرطان جاء يعدو إلى الأمام عيناه تبرزان من مقلتيهما وتتحركان يسارا ويمينا، ويكاد لا يقوى أن يظل واقفا.

"عبد القادر" حيا الخليفة الرجل بطريقة جافة بالاسم الذى اختاره. "لا شك أنك تفتقد مركز حاكمك فى دارفور؟".

"سيدى" أجاب الرجل وهو يحنى رأسه: "أطلب منك فرصة واحدة أخرى لأخدمك. يمكننى أن أكتب لجوردون وأقنعه بالاستسلام".

حك الخليفة بطنه. "ما زلت تنظر إلينا على أننا حمقى وسذج. لقد حاولت مرة ورفض الإجابة، إن هذا شأنه وشأنك. فأنت لن تصدق أننا نعرف ما نتكلم عنه عندما نتحدث عن الله".

"سيدى". تلعثم النمساوى الضئيل. "لقد أقسمت على الإخلاص لله. أنت تعلم ذلك" .

"إن الله يعلم كل شىء ويرى كل شىء". أصبح الوجه ذو ندب الجدرى مرعبا بينما عبد الله مال مقتربا، وهمس "يمكنه أن يعرف ما فى قلبك عندما تكذب". انحنى رادولف سلاتين أكثر وانسحب خطوة. أتى حارس وتحدث: أحد الأسرى طلب رؤيته. ابتسم عبد الله لحاوى. "هل ترى يا حاوى كيف تقفز البراغيث عندما أخطو إلى مخابئها؟ تحرك وتم إحضار الأسير المطلوب. جوبته ممزقة وملطخة ويكاد لا يقوى على الوقوف.

سأله الخليفة: "ما اسمك؟". ترنح الرجل إلى الخلف وإلى الأمام مثل عود قصب مع الريح، وغمغم بشىء ما، وعيناه على الأرض. مال الخليفة إلى الأمام وقال بحدة: "ماذا يقول؟".

اقترب حاوى أكثر، رائحة النتانة المنبعثة من الرجل قلبت معدته. استمع إلى الصوت المثير للأعصاب، "ش.. ش....إر... و..." تراجع حاوى وتم استدعاء سلاتين للتقدم مرة أخرى. الخليفة: "هذا الرجل يود أن يقول شيئا" قال: بينما سقط الرجل المترنح على كومة على الأرض. "أخبرنى ما هو".

مال حاوى ليسمع بينما انحنى سلاتين إلى جانب الشخص وحاول أن ينتزع منه بعض الحياة. كان حاوى قد استمع إلى لغة الفرنسيين فى القاهرة. "ربما مع بعض الماء؟" نظر سلاتين بأمل. أومأ الخليفة عبد الله بموافقته وعاد أحد الحراس بسرعة بإبريق. حاولوا أن يدخلوا بعضا منه فى فم الرجل. بعض منه لا بد وأن يكون دخل جوفه؛ لأنه بدأ فورا فى الغمغمة والكحة.

بصق عبد الله على الأرض. وأعلن بازدراء: "لا أثق بأى من هؤلاء الناس".

أومأ حاوى بموافقته الضمنية. الرجل الآن يتقيأ وينبش بأظافره فى الأرض. ولوث قدم أحد الحراس الذى بدأ حينئذ فى ركله بوحشية. مد حاوى يده ليمنعه. قال: ببساطة: "سيموت إذا واصلت". خطا الحارس إلى الخلف بسرعة وهو ينظر إلى الخليفة قائلا: "أقدم اعتذاراتى يا سيدى".

مال سلاتين على الرجل الساقط على الأرض. "تكلم الآن يا رجل لأن حياتك تتوقف على ما تقول". ثم قام وذهب إلى الخليفة. قال: "سيدى، إن هذا الرجل يود حقا أن يقول شيئا". غطت وجه عبد الله محمد آدم نظرة ملل وخطا إلى الأمام. ساعد سلاتين الرجل الساقط ليقف على قدميه وعرجوا معا مقتربين من الخليفة.

"ماذا يقول؟".

ترجم سلاتين. "يقول: إنه رسول ملكة الإنجليز الملكة فيكتوريا وإن الملكة سترغب جدا فى الانحناء أمام قدرة المهدى. ويرغب فى أن يحمل

رسالة لها من المهدى". تنهد سلاتين وهو يجد أنه من الواضح أن الأمر صعب الحدوث "ويشعر أنها ستستمع إلى صوت العقل".

ضحك الخليفة. وصاح بأعلى صوته "هذا الكلب يعرف ملكة إنجلترا؟". "سيتكلم نائبا عنها؟". اقترب وسحب الرجل من قفاه حتى تلامس وجهيهما. "إن الله يعلم ما فى قلوب الذين يعلنون الإيمان ولكن لا يشعرون به". استدار للحارس وأخبره بأن يعطى الرجل مائتى جلدة بالكرباج. "وترى إذا ما غير قصته".

وجد حاوى نفسه يتحرك. "سيدى"، قال: لاهثا وهو لا يكاد يدرك أنه يتحدث. "سيدى، هذا الرجل لن يتحمل مائتى جلدة". تحدث بصوت منخفض يستحثه محاولا ألا يجذب الانتباه لطبيعة حوارهما. "إذا كان يكذب فسوف يلقى عقابه، ولكن إذا أعطيته فرصة ليسترد عافيته حينئذ سيعرف أن الرحمة هى أكبر قوة للمؤمن".

بنظرة حيرة، وقف عبد الله لحظة طويلة يحملق فى حاوى. "أنت طائر غريب"، نطق أخيرا. وأشار بإصبعه إلى الحارس. "اعطهم جميعا وجبة طيبة وملابس نظيفة" أعلن بصوت عال. "احترس جدا" همس فى أذن حاوى. "إذا عارضتنى بعد ذلك أمام الناس، سوف أقطع رأسك". ومع هذه الجملة مشى خارجا من الجمع.

وقف حاوى مزروعا فى الأرض مدركا الآن فقط أن ساقيه ترتعشان. نظر أسفل إلى الشخص البائس شيروود لوث، الذى لم يكن يدرك أن مصيره قد تغير بفضل هذا الرجل وغمغم لنفسه " كان الله فى عوننا جميعا".

٢٠- الخرطوم حصون النيل الأبيض

٢٥ / ٢٦ يناير ١٨٨٥

بومة بيضاء وحيدة تنعق على النهر. النجوم قطرات صغيرة جدا من الزجاج المتوهج خرجت من بعض الليالى الداكنة - متشظية إلى ملايين الأجزاء التى تفقد العقل. بعيدا تنام الأفيال وتوقف المطر. بدأ النهر المتزايد فى الهبوط وبينما هو كذلك اختار القمر مسارا بطيئا وتوقف؛ لينير طريقا عبر الخنادق المليئة بالطين المحروق وكأنه لحم دافئ.

الجنود الأشباح ينامون الآن. بطونهم منتفخة مثل الطبول تؤلمهم من كرات اللبان والخيش والرماد الذى يأكلونه - ويبتلعون بعض حفنات من الأرض ولحاء النخيل والصراصير، وأعمدة صابون كاربوليك فينول، والخشب القديم، والحبوب الشوكية، وأوراق الأشجار من أى نوع. إنهم حتى يمضغون حواف أسرتهم الجلدية. ينامون غير مستجيبين للعالم، غير مستجيبين لجوعهم وغير مستجيبين أيضا لصوت الأقدام الحافية التى تزحف عبر الحصون.

جاءوا الآن عبر طمى النهر: فرادى وأزواجا، فى مجموعات غير منظمة يندفعون وينطلقون ليكونوا فى المقدمة يلهثون من جهد تلاوة ألف صلاة. بتعويذات الحجاب لجلب الحظ معلقة بين أسنانهم والبنادق مغطاة بآيات من القرآن. بالسيوف والرماح، وبنادق النعام القديمة، والتروس

المصنوعة من جلد وحيد القرن. يحملون الأعلام والندبات وشرائط القماش، يأتون صامتين وينظرون حولهم بينما هم يسيرون حتى ينالوا لمحة من ملاك يدور أعلى رءوسهم أو فارس على حصان أنيق يطفو فى الأفق.

لم يسمعوا سوى صيحة البومة والتى تخبرهم أنهم ليسوا وحدهم بينما هم ينزلقون وتزل أقدامهم يغرسون الآن حتى كواحلهم فى الطين الذى يشبه الصلصال الذى يبقبق ويسعل مثل حيوان قديم ضخم ينام. رجال عرضة للاختفاء دون سابق إنذار. وآخرون سقطوا جانبا يصرخون فى ألم حيث تعض أسنان النباتات الشائكة أقدامهم. تشرح فى جلد النعال واللحم الحى وتعوق الخيل والرجال سواسية دون تفرقة. إنهم ليسوا جسدا بل روحا، ليسوا عظما بل إيمانا. وهكذا جاءوا مثل فكرة واحدة متواصلة فى تيار ليس له نهاية ينطلق جنوبا متتبعًا غموض النهر إلى منبعه.

ينادى الآباء على أبنائهم فى هذه الليلة الحالكة السواد؛ خوفا من التضحية التى قد تتطلبها المهمة التى يقومون بها. عندما تأتى الساعة ستزداد الصواعق ويدمر المطر كل الأبنية ما عدا الخيام المتواضعة. وستشرق الشمس من الغرب والزلازل ستهز العالم. وبهذا سنعرف قدوم الساعة. سيتصرف الناس كالجراد الذى يبتلع الضعيف حتى تحين الساعة.

طنين أجنحة الجيش يعلو ويشتد. مدفع رشاش ينطلق على بعد حيث يتم تبادل الضربات الأولى. سلت السيوف من الأخصر والسترات،

تشرح البطون وتملأ الجو بأنهار الدم. شفرات حدود السيوف تغنى وهى تشرح الشرايين بعذوبة وكأنها قصب السكر. الأكباد تتمزق والرئات تثقب، والأعصاب تقطع. هكذا تختفى الحياة - تبتلع نفسها، تحجب نفسها فى النخيل المتزايد للسهل الرطب المتلألئ.

أتت الخيول، الأعلام الممزقة والأشرطة ترفرف، تسن أسنانها على حديدة اللجام. بعضلات مشدودة وأعين بارزة تهاجم. صيحات ركابها ليست من أجل هذا العالم ولكن طلبا للعالم الآخر. إنهم هنا لينظفوا العالم. إنهم اليتامى غير الشاكرين يسيرون لقطع الروابط التى فرضها هذا التبنى غير المقدس.

ما كان إستراتيجية عسكرية مخطط لها أصبح حشدا من الرجال والصبية الذين يصرخون ويجرون بعيدا عبر الشوارع أعينهم مفتوحة وأياديهم ممتدة تضرب أى شىء يتحرك. تتملكهم أرواح الموتى والراحلين والذين سوف يموتون الليلة، أرواح كل الأبناء والبنات، الأمهات والزوجات اللائى ماتوا أو نقلوا إلى أماكن أخرى فزعا من السلطان، من الخديوى، من السردار. هناك، المسلسل الرائع الآن أمامكم أسرعوا. البوابات مفتوحة. هرب الحراس. هناك ضوء يخترق تحت جرس الفجر الرمادى المتحطم ويعرفون من الذى يحوم كاللصوص على أطراف أصابعه إلى داخل كهف الجن. مروا بالمكان الذى عاش فيه الدجاج الذى تقف أقفاصه الخالية الآن مفتوحة، عبر المكان الذى ما زالت تسمع فيه خطوات الطواويس إذا أنصت المرء بعناية، عبر أشواك الصبار الطويلة الشاحبة وأوراق البوغنفيلية الرقيقة، وأشجار الجوافة والنيم، التى تهتز

أوراقها وتصفر عبر قرون الخروب وعبر اهتزاز ثمرات التمر هندى المستديرة غير الناضجة، حتى وصلوا إلى السلم الحجرى الذى يقود إلى شرفة الطابق الأول، وهنا، هنا توقفوا ليحملقوا فى وجوه رفقائهم.

أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض ورأوا فلاحين ورعاة وتجار وناس بسطاء. وقالوا: هكذا نحن. هذا ما فعلناه. لقد أتينا من أماكن بعيدة عن التخيل إلى هذه القصور الراقية، أماكن نادرا ما يراها الفرد أو يسمع عنها. لقد أتينا لنثبت حقنا.

ولكن فى هذه اللحظة أتى صوت من أعلى. إنه صوت يعرفونه. أتى من خلف الحوائط التى بنيت لتجعلهم يظلوا خارجها، من وراء الحدائق والحراس، من الداخل، وهو الصوت نفسه الذى أعطاهم كل طفل ولد ميتا كل ماعز مريضة، كل قطرة من الحمى، كل عام صعب، كل ابن مفقود أو أخ سقط فى المعركة، كل فرسخ يمشونه، إنه الصوت الذى يحددهم ويقيدهم. ولذلك هبوا هبة رجل واحد ليمحقوا الانعكاس على هذا الزجاج المشوه وهم يعلمون أنه ليس لديهم خيار، إن الاختيار سلب منهم قبل أن يولدوا قبل تسميتهم. صعدوا السلالم فى اندفاعه واحدة دون توان هناك فى الوهج الدخانى لمصابيح الزيت والتبغ، سحلية ثابتة فى منتصف الطريق إلى أعلى الحائط، لا تتحرك.

شخص واقف يرتدى الملابس البيضاء هادئ ومذهول إلى حد ما وهم يتسلقون بعضهم فوق بعض ليصلوا إلى الباب، وكأنه كان ينتظرهم منذ شهور وفعلا كان كذلك. إنه أيضا يعرف هذه اللحظة لأنها أيضا لحظته. رفع يده مترددا، بشكل غريب سواء للأمر أو للتحية لم يكن ذلك

واضحا. سألهم، طلب منهم، إنه قائدهم. ولكن كلماته كتمت. التراب ملأ فمه وآذانهم. بدا وكأنه يستدير بعيدا، فيما بدا أنه إشارة قلق. راقبوه وأسلحتهم معلقة تترنح إلى جنابهم. هذا هو الرجل الذى كانوا يخافونه لمدة طويلة جدا؟ هذه هى الجلبة الشريرة تكمن فى قلب الحيوان؟ كانوا ينظرون باستمتاع بينما هو يخطو بعيدا عنهم إلى الشرفة. العالم ساكن. النخيل لم يعد يهتز مع النسيم الرقيق. ثم خطا رجل إلى الأمام مستعيدا الغضب الذى أتى بهم إلى هنا وتبعه آخران. اندفعوا معا ودفعوا سيوفهم إلى الأمام. سحبوا الرجل الذى يموت وهو يئن عبر السلالم فى نوبة غضب واحتقار ودفعوه ليلتف على السلالم ويسقط متكوما تحت أقدام الآخرين الذين كانوا ينتظرون.

الأجنحة داكنة اللون تمر بين الأشجار والسكينة تنزل عليهم وهم يحدقون مندهشين فى شخص الغريب التافه الذى ظل يؤذيهم لسنوات طويلة. وعبر الثقوب التى صنعتها السيوف التى اخترقت جسده تفر الحياة الآن منه وهى تهسهس .

بعيدا عبر النهر، فى تلك اللحظة سرت رجفة فى جسد محمد أحمد المهدى حيث يجلس فى انتظار الأخبار والابتسامة التى كان يراها الكثيرون تزين وجهه اختفت. يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة وكأنه فى حلم، ويلمح بومة بيضاء وهى تطير بسرعة عبر الأشجار. كان يعرف بينما الظل يمر بقلبه أن الأمر انتهى.

٢١- الخرطوم

٢٦ يناير ١٨٨٥

فى الغسق، مجموعة من الملثمين منشغلين بإلقاء أجسام فى المحرقة. أعينهم غائمة من التعب. تؤلمهم من الحرارة والرائحة النتنة. النار تستعر والخشب يطقطق، الأخشاب تسقط من المنازل والعربات الكارو تميل إلى جوانبها. المدينة منقطة بتلك النيران؛ لأن من ماتوا وهم يدافعون عنها كفارا ولن يدفنوا فى اتجاه مكة. لم يرفع الرجال بصرهم عندما مر بهم شخص نحيف داكن البشرة وهو يقود حصان أبنوس ويتحرك ببطء، دون حاشيته وأعلامه. يتعرف المرء بصعوبة على أمير الأمراء. ولكنهم ينفذون أوامره والمدينة يتم إخلاؤها بشكل منظم بيت بيت وشارع شارع. تجمع النساء فى مكان والثروة فى آخر والطعام يتم إرساله إلى الثكنات العسكرية.

وجه نجومى كئيب وقلق رغم أن الأشياء سارت بشكل رائع. لقد ساعدتهم الفيضانات الأخيرة التى محت الحصون فى الجانب الجنوبى الغربى للمدينة. عندما دخلوها لم يواجهوا سوى مقاومة ضئيلة. بعد شهور من الاستعداد للأسوأ كان الأمر هبوط مفاجئ من السيء إلى البسيط: فى أماكن عدة القوات التى تدافع عن المدينة بدأت حتى فى حياكة الأجزاء الممزقة من ملابسها استعدادا للاستسلام. ولكنها ليست

مدينته، وبالنسبة له فالنصر له دائرة مفرغة. وكأن المدينة تحمل شرا يلوث كل من يدخلها.

بينما يسير يعطى أوامر هنا وهناك مرت مجموعة كبيرة من الجنود الذين أسروا. كانت حالتهم يرثى لها، جلودهم منتفخة من أكل اللبان من على الأشجار. والأمر الساخر أنهم اكتشفوا طعاما كثيرا جدا مخبأ فى الجدران والحفرات تحت الأرض. الطعام الذى خبأه أصحاب المحلات والتجار، وخزن بعيدا فى منازل موظفى الحكومة وكأنه ليس لديهم أى فكرة عن مدى خطورة المحنة التى يمرون بها. وتساءل: "ما نوع هذا المجتمع الذى يعيش فى رخاء بينما الذين يدافعون عنه يكادون يموتون جوعا فى الشوارع؟" تساءل.

وصل رسول إلى جانبه، بحث عنه فى المدينة كلها. جعله نجومى ينتظر بينما سأل مجموعة من الأنصار الصغار الذين يقودون أسيرا مقيدا بالسلاسل. "إلى أين تأخذونه؟" بدا الصبية حائرين، وكأن السؤال لم يخطر ببالهم. "ماذا فعلت؟" سأل نجومى الرجل الذى وقف ورأسه محنى ويداه مربوطتان خلف ظهره. قال: الرجل ببساطة: "أنا نجار". وجه نجومى كلامه إلى الصبية "كل الحرفيين وأى شخص له أى فائدة لنا يتم اصطحابه خارج المدينة إلى المعسكر. خذوا هذا الرجل إلى هناك وأعطوه بعض الطعام إذا كان جائعا".

خطا الرسول إلى الأمام وأومأ نجومى له ليقرأ الرسالة. سينتظر المهدى كلمته قبل أن يعبر النهر. إنه حريص على زيارة قبر والدته وسيدخل المدينة عندما يكون كل شىء تحت السيطرة. وافق نجومى وأرسل الرسول فى الطريق إليه.

وهو يتحرك فى اتجاه النهر، توقف دقيقة ليتفحص بعض البيوت الراقية. ذكَّر نفسه أن الحرب لم تنته بعد. حملة النجدة الحربية من القاهرة كانت منذ أقل من أسبوع. يجب أن يتعلموا إطلاق المدفع بدقة من أجل حماية المدينة.

رجل ضخم له شارب كان يقف فى الشارع يصيح فى مجموعة من الرجال. حياه نجومى وسأله عن الأمر. كان هناك بعض القلق فى هذا القطاع، قال: الرجل القوى: وجدوا كيسا من المجوهرات والذهب تحت بئر سلم وعدة مخابئ للطعام. ضحك. الشيء المضحك أنه، قال أن الرجال: وجدوا دولابا مليئا بالخبز وسيأكلونه فقط بقليل من الزيت، محاولة للزهد والتقشف مثلما يفعل حبيبهم المهدى. لم يشاهد طمعا بين رجال يعلم جيدا أنهم سرقوا جداتهم.

"إنه الروح" كرر نجومى بشكل غير واضح "وهم الجسد". ابتسم الرجل الضخم وربت القائد الأعلى بحماسة على ظهره قبل أن يدرك خطأه وهمهم بالاعتذار. سار نجومى وهو يهمهم لنفسه " اللى يعيش ياما يشوف".

"وصل الآن إلى بوابة مقر الحاكم العام السابق المفتوحة. لقد تخيل كثيرا كيف يمكن أن تكون هذه اللحظة ورأى نفسه يتجه إلى سراى السلطان وسيفه مرفوعا فوق رأسه، وألف من الفرسان يمتطون الجياد من خلفه والسحاب يتكتل كالقطن مع الريح. ابتسم لنفسه. هذا الدخول البسيط فى صحبة جواده فقط مناسب أكثر.

الحديقة منظرها جذاب. ترك جواده ليأكل العشب وبدأ نجومى يتسلق شجرة جوافة قوية ثمارها تتمايل بين الأوراق الخضراء التى تميل إلى الاصفرار. مثل طفل لبى نداءها وازن ساقيه وقفز للأغصان حتى ارتفع مع الاهتزاز المشوش للثمار المتراقصة. جعله الجهد الذى بذله يضحك. جلس ليلتقط أنفاسه وهو يتعلق بفرع فوق رأسه. يداه تؤلماه من الخشب المتموج. يقضم فى أول ثمرة ويملأ فمه طعم سكرى. هنأ نفسه على حظه وأخذ يمضغ بسعادة لوهلة. ثم بدأ يحشو جوانب ملابسه بالثمار وكان فى طريقه للنزول عندما ناداه صوت: "لا بد أننى أخطأت السمع، ولكنى أعتقد أن الأمير أوضح أن أى شخص يقوم بنهب غنيمة سيتعرض للقتل".

سقط نجومى على الأرض بجانب مدنى وناوله جوافتين. "لم تخطئ أيها الرجل العجوز ولكن فى هذه الحالة الخاصة أرى أنه من المناسب أن استثنى نفسى من اللوم".

تثاءب الطباخ العجوز بشدة. "سمعت أبواب جهنم النارية تفتح".

قال: نجومى بصوت يشبه صهيل الخيل: "جهنم دائما معنا". أومأ تجاه بقايا المبنى أمامه. "ربما أتيت لترى بيتك القديم؟".

أشار مدنى بيده طلبا للصمت. وقال: وهو ينظر حوله: "ليس بصوت مرتفع هكذا". كان بعض الرجال يحملون أكياسا من مخازن القصر. كل شئ يمكن رفعه تم نقله. رجلان ينقلان أريكة طويلة ينزلان بها على السلم. نادى نجومى وهو يخطو بعيدا عن الأشجار. "إلى أين تأخذون

هذه؟". نظر الرجال إليه ثم نظروا بعضهم إلى بعض وكأنهم يسألون نأخذ ماذا؟ أشار نجومى بيده. "إننا لا نحتاج هذا النوع من الأشياء، لا تضيعوا وقتكم معها ابحثوا عن أى شىء مفيد: خرائط، أوراق ... إلخ وليس أثاثا. "بدأ الرجلان يصعدان مرة أخرى بالأريكة".

صعد نجومى السلالم بعد أن تجنب بحذر بركة من الدماء المتجمدة. نسمة رقيقة هبت عبر الأشجار الطويلة ومرت بسرعة عبر الشرفة. سار على امتداد المنزل ثم عبر الباب المزدوج الواسع. هنا إذن تم مناقشة مصيرهم، تم إقرار كل شىء، الأوراق تتحرك مع النسيم.

كل شىء مزق إربا: اللوحات على الحوائط شقت، المنضدة قلبت، المصابيح كسرت. فأر صغير يزحف عبر الحطام، يتوقف هنا وهناك لاهثا يحاول أن يعرف فى أى اتجاه يسير. رفعه نجومى بحذر وعبر الحجرة إلى النافذة التى تفتح على النهر. تبعه مدنى صامتا ووقف الآن عند الباب وهو يتفحص الدمار. هز رأسه. آخر مرة رأى فيها هذه الحجرة كان العالم يدور فى اتجاه مختلف. همهم لنفسه: "لعل الله يهدينا".

"لم يكونوا حتى يعرفون أننا هناك" غمغم نجومى.

جذب نظره شيئا أسفل فى الأشجار الخضراء الداكنة. استدار واندفع بسرعة عبر الحجرة مسقطا الفأر المنزعج فى عجلته. نزل السلالم وأخذ الممر ذا الأقواس الذى يؤدى إلى النهر. مجموعة من حوالى عشرة وقفت بجانب كتلة من اللحم ليس لها شكل محدد فى الطين. اثنان منهما

يركلانها، ويقلبونها مع كل ضربة. بينما الآخرون ينظرون. مشى نجومى بخطى واسعة إلى وسط المجموعة.

وسأل: "فكرة من هذه؟". حملقت الوجوه القاسية مقطبة الجبين بتجهم. "هل تعنوا أنكم تقومون بذلك دون فكرة، لماذا؟" لا إجابة. حاول نجومى أن يتحدث بهدوء ليحافظ على صوته متوازنا ولكن وقعت يده على مقبض سيفه وعرفوا أنه على استعداد لاستخدامه. قال: نجومى: "الفرق بين الرجل والكلب أن الكلب يعتقد أنه ليس لديه مسئولية عما يفعله أو لا يفعله. الرجل يعرف غير ذلك". ظل الرجال صامتين. نظر نجومى حوله إلى المجموعة باشمئزاز وقال: "عودوا إلى أى مكان يجب أن تكونوا به. إذا رأيت أحدا منكم مرة أخرى، سوف أقتلكم". اختفى الرجال بين الأشجار دون كلمة.

جاء مدنى من خلف حائط السراى حيث كان يقف ليراقب وقال: حزينا: "إنه أمر سيئ" قال: حزينا "سوف يرتد بالشر علينا".

نظر نجومى إلى بقايا الجسد تحت قدميه. "لقد طلب منى المهدى أن أحضره حيا".

همهم الطباخ العجوز وهو ينظر بعيدا " لم يكن رجلا سيئا".

"هذه هى الحرب أيها الرجل العجوز" بصق نجومى على الأرض وثنى كتفيه. "الآن تعالى وساعدنى على دفنه بسرعة".

حملا معا الجثة عبر الأشجار إلى مكان بارد وخال.

حفرا وهما يحفران الأرض بسيف نجومى واستخدما يديهما وأصابعهما حتى حفرا حفرة عميقة فى الأرض. ألقيا بالجثة البالية فى الحفرة وغطياها بشكل جيد.

"لا كلمة واحدة عن هذا الأمر ولا حتى إلى روح".

سارا حول الحديقة وعبراها. نظر الطباخ إلى الشرفة حيث كان يسير كثيرا من قبل، وسأل: "وماذا عن هذا المكان؟. ماذا سيحدث له؟".

هز نجومى كتفيه مستنكرا. "يجب أن نحرقه ونسويه بالأرض" صعد فوق صهوة جواده. "هذا مكانهم أيها الرجل العجوز والصحراء لنا".

تلاشت المدينة بين الحطام والنسيان. عبر النهر المهدى يزرع أعلامه فى الرمال. إنه العام الأول. العالم أعيد تسميته مرة أخرى.

٢٢- أم درمان

٢٢ يونيو ١٨٨٥

جاءت الساعة، كما أنها لا بد وأن تأتى لنا جميعا. الفئران تأكل خلال الطين لتصل إلى حزم القش المخبأة فى الحوائط.

يصرخ فى الضوء الضعيف. عيناه على الظلال المتمايلة فى الخيال الدخانى لمصابيح الزيت. الفئران ستقرض عظامه. الدود سوف يزحف فى مقلتى عينيه.

اعطنى علامة حقيقية، شيئا ألمسه.

"أين عبدالله؟" أين أخى؟".

الرجال الذين تجمعوا حول السرير جفلوا عندما سمعوه يتحدث. تداولوا فيما بينهم. مثل باخرة اقيانوسية ضخمة تعود إلى السطح من الأعماق، هبطت لحظة صمت طويلة على الحجرة. أصر على الحديث. قرر الرجال ألا يفعلوا شيئا. جلسوا، بالنسبة لهم الصمت مريح، إلى درجة الاطمئنان.

مرة أخرى سرت رجفة عبر الجسد النحيف الذى يرقد تغطيه ملاءة رقيقة على سرير منخفض روابطه غير محكمة. شعر الرجال الذين يراقبونه بالقلق، تهيجوا وأخذوا يهمهمون. مد يده وتعلق بأقرب يد له.

"عبد الله" تأوه، ولأنه يبدو أن الأمر يريحه لم يقل الرجل الذى يمسك المهدى يده شيئا.

ابتسامة خافتة تومض بضعف عبر الوجه المتجعد الذى أصبح جلده فجأة متهدلا وجافا مثل الورقة القديمة. أصابه العجز فى ستة أشهر أكثر مما يحدث للناس فى ثلاثين عاما. بالنسبة للرجل الذى يمسك اليد الضعيفة، وكأنه قد يلجأ إلى الهواء ويطير فى أى لحظة. ينبض مثل عصفور صغير فى راحة يده.

قال الرجل بصوت يتضاءل: "حينما كنت صبيا صغيرا"، فحاول ثلاثة من الرجال أن يمنعوه من الحديث، وأن يخبروه أنه بحاجة إلى كل الراحة التى يستطيع الحصول عليها، وأنه لا يجب أن ينهك نفسه فى حديث لا فائدة منه، ولكن أحدا منهم لم يتكلم.

تنهد الرجل تنهيدة طويلة واستطرد قائلا: "حينما كنت طفلا صغيرا فى لاباب Labab، كـــانوا يريدون أن أعــمل فى المراكب، وأن أقطع الأخشاب بالفأس وأسويها بفأرة النجار، وأن أستخدم المطارق"، بدأ الصوت وتوقف. الكلمات تصدر بصوت خفيض أجش أعلى قليلا من صوت النقيق. يميل الرجال إلى الأمام، أعينهم مثبتة بشكل مقصود على بعضهم. حتى يصبحوا يقظين لفهم الرسالة من وراء الحكاية. "لقد أخبرتهم، قلت: يداى ليست مثل أيديكم". ضحكوا على وقالوا لى: "أخانا الصغير يداك سوف تصبح خشنة وقوية مثل أيدينا". قلت: لا هاتان اليدان لم تخلقا لهذا العمل إن لهما غرضا آخر". عاد الضحك إلى همس خفيض. "كنت أعرف" وإيماءة من الذقن الرفيع المحدد، مصراً وواثقا من

نفسه، ومضة من الشخصية القديمة. "حتى حينئذ كنت أعرف" واصل حديثه.

"رفضت تناول الطعام يومين". تحركت الشفتان الجافتان، ولكن لم يصدر عنهما صوت. حاول أن يبلل شفتيه. "بعد ذلك قالوا: إنه ليس من الضرورى أن أعمل فى المراكب".

صمت مرة أخرى.

الرجال حاضرون لا حول لهم ولا قوة. لم يقولوا شيئا. الظلام يزحف عبر شقوق العنكبوت الذى يجرى بأسلوب مجنون أعلى الحائط.

سقط فى النوم والليل يدخل ببطء، فى اتجاه النهار الذى لن يأتى. فى الخارج، المدينة، التى تحمل الآن اسمه حيث أعلامه التى ترفرف فى نسيم النهار، تحبس أنفاسها. حتى فى نومه لن يدعه عقله يرتاح. علامة، ليس أكثر من أى شىء آخر.

اختفاء الملائكة. الفئران تسن أسنانها الصغيرة فى الحوائط، وهى تحفر طريقها خلالها. هناك فوضى عند الباب والحكماء الثلاثة، لا يتخلون عن الانتباه، ويشعرون مثل المجرمين. الحجرة الصغيرة ازدحمت فجأة. يبدلون أماكنهم بعضهم مع بعض باحثين عن مساحة دون أن ينطقوا بكلمة. الحكماء والعلماء ورجال من العصور الغابرة يشقون طريقهم عبر الباب مثل الصبية السعاة الذين يتم إرسالهم إلى السوق لإحضار خبز. على رأسهم الثلاثة: الخلفاء - الأعلام الأحمر والأخضر والأسود. الصمت الذى جاءوا به فظيع. إنه صمت هؤلاء الذين يخشون أن يتركوا وحدهم، صمت له عبء سيلقى على عاتقهم.

دون إنذار أفاق من إغماءته مرة أخرى. العناكب تغزل شباكها. "بابا؟" سأل وهو يظن خطأ أن عبد الله والده.

عبد الله يبكى. عالمه يسقط. يميل إلى أسفل ويهمهم "إنه أنا".

"أخى؟" الأصابع الضعيفة تمتد فى الظلام محمومة وتتشبث بقماش أحد الأكمام. "أنت وأنا يا أخى. أنت وأنا...".

"سيدى كلنا هنا: على واد هيلو ومحمد شريف. كلنا معك". الصوت يرتجف بالمشاعر، والملامح الخشنة التى تميزها ندبات الجدرى ترتجف بطريقة لا يمكن السيطرة عليها. الخيط الرفيع الذى يربط العالم بعضه مع بعض على وشك الرحيل بين هاتين اليدين الكبيرتين اللتين نسجتهما الحبال والجلد. عبد الله يداه يدا راع وقدماه قدما بدوى متجول لا تعرف سوى الأرض الخلاء. فى هذه الحجرة جسده مثل لعنة، ثقيل مرهق ولا يحتمل. يتوق إلى الخفة، إلى الراحة. يبدو أنها أطرافه تتضخم لدرجة أن أقل حركة تشعره بالارتباك والثقل. الأثر الوحيد للفضيلة فى حياته مستلقيا يموت أمام عينيه.

الصوت يهمس: "ليس لدى إخوة، فقط رفقاء".

عبد الله يومئ عبر كتفه "ماء" يحثهم. "احضروا له مشروبا".

"عندما كنت صبيا" قال: الرجل الذى يموت: "اعتادت جدتى أن تقول لى عندما أعود إلى المنزل بعصفور اصطدته، اعتادت أن تقول: "إذا تركت العصفور يطير، سوف يسقيك الله ماءا باردا عندما تصل إلى الجنة". الصوت يخفت تدريجيا ويعود. أصابعه تتشبث بيد عبد الله.

"من أجل أن تكسب شيئا لا بد وأن تتخلى عن شيىء" ولهذا تم اختيارى الآن".

الآن اضطر عبد الله إلى الحديث. دخان من المجمرة علق بحلقه وجعله يسعل بشدة. بين الجمرات والبخور يلقون صفحات من القرآن الكريم. الحجرة تملؤها علامات شرف رمادية للكلمات الميتة، ضبابية ومتحيرة. "نحتاج أن نعرف" يبكى وتسقط الدموع على اليدين الكبيرتين فى قطرات كبيرة. "من سيكون؟" يشعر بالآخرين خلفه، يضغطون على ظهره، أنفاسهم فى أذنيه وأعينهم على رقبته. "أخبرنا يا سيدى من سيكون وكيلك؟ من سيحل محلك؟ من سيكون خليفة الصديج (الصديق)؟"(*).

يهمهم الآن، يهذى محموما، يحرك رأسه من جانب إلى آخر وكأنه يهز عفريتا من صدره. جبهته باردة كحجر فى قاع النهر. يحاولون الاقتراب منه أكثر.

"أنت وأنا يا أخى معا سنركب الجياد إلى مكة والمدينة. سوف نصلى جنبا إلى جنب. سيسقطون أمام سيف الحق القوى". وبدأ يضحك، صوت طويل ينتابه يجعل جسده يهتز ويحول دماء الحاضرين إلى دماء باردة. الضحك يتناقص تدريجيا وحينئذ انفتحت الأعين وانسحب كل شخص فى الحجرة مفزوعا.

(*) إشارة إلى أبى بكر الصديق خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام. (المراجع).

"عــزرائيل؟... لا... ليس بعــد، ليس مــبكرا هكذا". ثم بأنين، "ماما...؟" وسقط إلى الخلف ورقد ساكنا.

انتهى الأمر.

مرت لحظة وكأنها الدهر. لم يجرؤ أحد على الحديث حتى خطا أحد الوجهاء - قصير قوى بأذنين تندفعان إلى الخلف كالبومة - إلى وسط الحجرة ورفع راحتى يديه إلى أعلى وبدأ يتلو الكلمات الأولى من الصلاة. لحق به الآخرون، وشفاههم تتحرك، وأعينهم مثبتة على السرير.

"من هو الذى حدد اسمه؟" سأل محمد شريف بعد فترة. لم يقل عبد الله شيئا، لم يستدر حتى لينظر إليه. الآخرون يغيرون مواضع أقدامهم ويتحدثون فى همس خافت. تندفع العيون كالسهم نحو الحجرة ذات الضوء الضعيف محاولين أن يقدروا إلى أين ستكون التقسيمات. من يدخل ومن يخرج.

أخيرا، كان صوت الوجيه صاحب الأذنين المدببتين الذى قرر الأمر. "سمعته يقول شيئا متعلقا بك يا خليفة عبد الله. وهذا كان كافيا؛ لأنه لم يكن يشك أى امرئ فى ذلك. جاء صوت آخر يقول: "كان يحبك مثل أخ".

وشعر عبد الله بالحشد بدأ يتجمع حوله. استمع إليهم عندما بدءوا يمتدحونه ويحثونه على الاستمرار فى الكفاح. همست الأصوات: "بالتأكيد إن لله حكمة فى هذا الأمر". "والأمر يرجع لك يا عبدالله أن تكتشف ما الحكمة من ذلك".

رفع عبد الله يده وأفسحت الأصوات له مجالا. "سمعته يحكى" بدأ يتكلم "عن حلم أتى له فيه الرسول وأخبره أنه مطلوب بشكل ضرورى فى العالم الآخر وأنه يجب أن يترك مهامه هنا". وتدفقت الكلمات بوضوح ودون تردد تأتى من مكان ما داخله. "والرسول عليه صلاة الله وسلامه قال: إنه كما أن محمد أحمد هو خليفة رسول الله فعبد الله التاعيشى هو وكيل المهدى المنتظر".

وهكذا كان الأمر. علامة المعارضة الوحيدة ترقد دون حديث فى عينى محمد شريف.

دفنوه حيث يرقد. بنوا حائطا من الطوب حوله ليحفظ السر فى الداخل والعناكب فى الخارج.

الجزء الرابع

الخليفة الجديد

٢٣- أم درمان

١٨٨٦

منذ أن أظهر الخليفة عبدالله ميلا إليه، وجد حاوى أنه يستدعى بشكل متزايد؛ ليؤدى دورا فى أمور الدولة الجديدة. ظل سبب هذا الإصرار غامضا. مر عام على وفاة المهدى. العتبة البيضاوية البيضاء الرائعة لقبره ترتفع بشكل مهيب فى المدينة وهى تضفى جوا من التصديق والثقة على الأحداث. غموض موته المفاجئ يظل دون تفسير. الخليفة عبدالله، كما عرف حاوى مباشرة، شخص مندفع يفضل الثقة بغرائزه أكثر من عقله. منذ وفاة حبيبه وأستاذه، حياته قد تكون مضطربة من الداخل، ولكن من الخارج كان صارما ولا يغفر، طالبا احترام المهدى بأسلوب مختلف. فى الأيام التى تلت الساعة المصيرية جعل عبدالله كل امرئ يقسم على الولاء. كثيرون نصحوه بألا يفعل ذلك؛ لأنه مبكر جدا بعد موت الرجل الذى ألهب وبارك البلاد كلها بوجوده. قال البعض: إن الأفضل مواصلة الأمور لفترة دون إعلان وفاة المهدى، لأن مثل تلك الأخبار قد تفقد كل شىء استقراره. لأنها تأتى بعد ستة أشهر فقط من سقوط الخرطوم. تمت السيطرة على الاعتراضات، وقرر

عبد الله أن إرسال أخبار وفاة المهدى واسم خليفته لكل مكان فى البلاد أمر له أهمية قصوى.

فى هذا الوقت اختير حاوى ليشرف على الأخبار المطبوعة. أوضح عبد الله سبب ذلك: "لديك تفكير غريب يا صديقى" قال: الرجل الضخم الجسم، واضعا يده الكبيرة على كتف حاوى: "تستطيع القراءة، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد أنا لست مؤهلا لذلك".

"أوه دائما لديك اعتراض!". قال: الخليفة شاكيا. العينان المستديرتان المنتفختان دامعتان وقلقتان. كان يوما حارا وحبات العرق تتدفق على رأسه الحليق. كان يشبه عفريتا ينبثق من نهر من البخار. "إذا كان علي أن أتحدث بما يدور فى ذهنى، فإنى أحتاج إلى رجل يستطيع أن يفهمنى". هز رأسه وحك جبهته بإصبع لتجف. "أحيانا أذهب بعيدا جدا. سوف تخبرنى بما تفكر فيه ولكن لا تحكم علي، مثلما يفعل بعض الآخرين. إنهم لا يعرفون معنى أن تأخذ الفرصة، لم يفعلوا أبدا أى شيء غير عادى. أنت العالم الوحيد الذى لديه من الثورة ما يؤهله لهذه الوظيفة".

وكما تتطلب مهمته الأولى فى هذه الوظيفة الجديدة كان على حاوى أن يساعد عبد الله على كتابة رسالة إلى أهله فى دارفور، موضحا لهم الخلافة. "كل الأسرار المقدسة تجمعت فى حرف الباء. والله وضع هذه العلامة النبيلة فى رجل كما قال: المهدى. أتى أخ لى وأشار إلى وجنتى اليمنى. وتجمع آخرون حولى واكتشفوا الحرف هناك".

لا يهم عدد المرات التى تم فيها استدعاء حاوى إلى منزل الخليفة، لم يهرب أبدا من اضطراب فى معدته والذى يخبره أنه ليس حياته فقط المعرضة للخطر، ولكن أيضا شيئا أكثر أهمية، شيئا يمكن وصفه بأنه غير ملموس معرض أيضا للخطر. وجد الرجل الفظ لا يخلو من جاذبية، اجتماعياته تثير الإعجاب. لا يمكن التنبؤ بتصرفاته فهو عنيف وداهية جدا وبطريقته الخاصة أمين جد. حجرات المنزل، وهو الأكبر فى وسط المدينة، كانت تتغير من أسبوع لآخر، كلما خطرت له فكرة جديدة. بدا مناسبا بشكل مدهش أن رجلا ينحدر من البدو المتجولين فى الصحراء الغربية يكون مهووسا إلى هذا الحد بالأثاث والأشياء الثابتة والمناضد والكراسى والسرج والسجاجيد. كان يغير رأيه بشكل متواصل ويأمر النجارين بالبدء فى شق شىء جديد له وقطعه. عندما يحضر زائر من بلاد بعيدة، يتم استدعاؤه ليبدى رأيه فى الصنعة. كيف، تساءل، يمكن أن يقارن الإنتاج المحلى بهذا الذى يرى فى القصور فى الشمال والشرق الأقصى؟

الوجوه فى منزل الخليفة تخضع أيضا للتغيير المستمر. الخدم الذين يجيبون الباب ويدخلون حاوى نادرا ما يراهم هم أنفسهم فى زيارتين متتاليتين. غالبا ما يرى أطفالا يجرون فى الفناء خارج البناء ذى الطابقين، ولكن حاوى لا يرى أبدا الأطفال أنفسهم. ليس لديه فكرة كم امرأة تنتمى إلى المنزل، والمكان دائما يجتاحه تيار من الأقارب القريبين والبعيدين الذين جاءوا من دارفور.

كان من الواضح لحاوى أن وقوفه بين مجموعات العلماء الثابتة جعله صديقا حميما للخليفة، أمينا وجديرا بالثقة. إنه منعزل فى الواقع، وليس للآخرين علاقة به. إنهم يجتنبونه مثل المنبوذ. لم يشنق بسبب اتهامه بالردة عن الدين طوال السنوات الماضية، ولكن فيما يخص الحكماء ومجالس المستشارين، فهو قد شنق.

الأحلام النبوية مثل ذلك الذى أوحى إليه برسالة دارفور، بدأت تحدث بشكل متزايد، وجد حاوى نفسه يتم استدعاؤه فى كل ساعات النهار والليل ليأتى ويدون ما حدث. حتميا التفاصيل ستتغير عندما يجهز حاوى لفائف أوراقه وريشة الكتابة والحبر. بينما الخليفة يتحرك إلى الخلف وإلى الأمام خلفه، طالبا من الخدم أن ينهضوا من النوم ليحضروا له لبنا دافئا بالعسل. عندما بدأت عملية الكتابة تقدموا باحتراس شديد وهم يجدون الكلمات المحددة التى يحتاجونها؛ لأنه أمر ضرورى ألا تخذل هذه الإلهامات أو التنبؤات أى شخص.

بعد ذلك يرسل حاوى مباشرة إلى المطبعة ليوقظ الذين يقومون بالطبع من أسرتهم. تشعل المصابيح الزيتية التى تطلق الدخان بينما الصبية الذين تمتلئ أصابعهم بالحبر يزيتون الآلات ويبدءون فى تحريك المقابض الثقيلة لتدور حتى تنطلق الطبقات الصفراء من بين آلات الطباعة لتشق طريقها فى كل ركن من البلاد. الخليفة حلم وكل امرئ سيشاركه هذا الحلم.

"أنا الخليفة، بوضوح. لا أحد كان أقرب له منى. الشخص الضخم يطوف بحجرات ديوانه. تغضن وجهه إلى ابتسامة. "لماذا قارننى بأبى بكر، رفيق الرسول محمد. هل تعلم ذلك؟".

همهم حاوى "لا يا سيدى"، رغم أنه بالطبع سمع بذلك يقال: فى العديد من المناسبات. ولكن فى العام الأخير لم تكن الأمور سهلة بالنسبة لابن التاعيشى. كان هناك العديد من الاضطرآبات فى الداخل وأيضا على الحدود الضعيفة للدولة الجديدة. جلس الرجل القوى إلى جانب حاوى تحت الساتر. قمم النخيل الباسق تتموج فى الريح العاصف، مثقلة بالتراب الأصفر الخفيف.

همهم الخليفة "أعرف أن هناك خلافا". "بعض إخواننا غير راضين وبخاصة محمد شريف".

"من الطبيعى أنه كان يجب أن يكون الخليفة" أشار حاوى "إنه من أسرة المهدى".

ضرب عبد الله بيديه على ركبتيه. "إنه صغير جدا على أن يفهم".

"هل تعتقد أنه يتآمر ضدك ؟".

عبد الله أمسك حاوى من ذراعه ومال مقتربا منه. الريح تشتد وفناء المنزل أصبح خاليا، وأغلقت كل النوافذ. "أراد الله أن يسير الأمر هكذا" بدأ صوت عبد الله يتلعثم "الله...خطط الأمر لنا بهذه الطريقة. لقد أراد لنا أن نمر بوقت من الآلام" أصابعه تنغرز فى ساعد حاوى. "هل يعنى هذا شيئا لك كعالم؟ هل يمكن أن تكون هناك علامة فى كل ذلك؟".

تساءل حاوى لماذا لا يدخلون إلى المنزل لمناقشة ذلك. وقال: وهو يسعل: "أنا حقا لست خبيرا".

وقف الخليفة متذمرا لا يصبر على الأمر. وسأله بفظاظة: "إذا لم تكن أنت، من إذن؟". "هؤلاء الحمقى الخرفون العجائز من العلماء؟". أزاح الفكرة جانبا بضربة من يده. "لا" هز رأسه. "لا نستفيد من هذا التفكير الساذج إنهم ينظرون إلي كراعٍ بدائى. معظمهم كانوا ضدنا منذ البداية". نظر إلى النافذة المفتوحة للديوان، التى يملؤها الضوء والسماء "لا" همهم بصوت خفيض: "إنه وقت التغيير. إنه وقتنا".

٢٤- أم درمان

١٨٨٧

على عكس مهامه ككاتب ووظيفته فى المطبعة، كان كرسى حاوى فى مجلس أصحاب الرؤية مريحا راحة تامة. لم يكن معظم الوقت يستدعى ليقوم بأى شئ، ما عدا المشاركة، أن يجلس فى مكانه ويستمع لأية أفكار يتم طرحها. اتسع المجلس مع الوقت؛ لأن كل شخص كان يريد أن يكون هناك من يمثل أهله. فهناك الحالمون كثيرو الرؤى والعرافون والمتنبئون وأصحاب الأفكار الرومانسية والمنجمون والمتنبئون بالطقس ومحللو مبادئ العلوم والعدادون وصانعو المطر وضاربو الودع. كانوا يطلقون على أنفسهم مجلس الرؤية. اجتماعهم الأول عقد فى خيمة الخليفة منذ حوالى عامين، فى الصيف الحار قبل سقوط الخرطوم.

الاجتماعات تعقد داخل المجمع المركزى فى الفناء المفتوح خارج مكاتب حكومة الخليفة. تحيطهم من كل جانب المبانى البسيطة المصنوعة من الطوب اللبن التى يجلس فيها الموظفون والقضاة نهارا. ما عدا القضاة، من المدهش عدد الوظائف الحكومية التى يشغلها الأفراد أنفسهم الذين كانوا يشغلونها أيام الاحتلال التركى. هؤلاء الموظفون يحملون ثقل السلطة أكثر مما يمكن أن يحمله أى جيش. فى المساء مع النور المنبعث من النجوم ونار موقد صغيرة، يهمس أعضاء المجلس كل واحد إلى الآخر احتراما للحوائط الصامتة غامقة اللون التى تحيط بهم.

"إخواني، إخواني!" صفق الشيخ بلدى بيديه طالبا الانتباه. مجموعة الصوفيين والعلماء (لا يمكن أن تحتشد مجموعة أكثر تنوعا من هذه سواء للمعرفة أو للضرورة) بدأت تستقر. الشيخ بلدى كان رجلا ضئيلا متفاخرا يحاول أن يخفى ضآلة معلوماته بالتعصب. يأخذ نفسه بشكل جاد جدا ويميل إلى اعتبار أى عناد أو جموح تفاهة شخصية، ببساطة لأنه كان قد تم انتخابه كرئيس. رفع يديه عاليا فى مناطق عمل الجمرات. "إخوانى لدينا قضية مثيرة وهى التى حيرت أذهان أفضل العلماء والأطباء فى البلاد". نظر حاوى إلى وجوه الأقران من حوله. هل كان الأوحد، فكر مع نفسه، الذى تضايق من الأسلوب المبالغ فيه للشيخ المتفاخر بأهمية مهام هذا المجلس؟ السبب الوحيد لوجودهم وهو الذى يدركه أى امرئ لديه فهم عام، هو قرار تم اتخاذه منذ سنوات استحثته اللحظة كمحاولة لإرضاء الزعماء المحليين ومخاوفهم من المجهول. إن الخليفة نفسه يشعر بالارتباك؛ لأنه كان له علاقة بهم ويتظاهر معظم الوقت وكأنهم غير موجودين. إنهم هيئة استشارية ليس لها سلطة حقيقية. يتقابلون، استنتج حاوى منذ زمن، من أجل أن يشعروا بالزهو.

"هذه الفتاة ولدت وتربت فى بيت دعارة وسكر. لم تتلق أى تدريب بناء أو دروس فى الأمور الدينية. أشار الشيخ بلدى إلى حارس فى مدخل الفناء. كان أعضاء المجلس يتحدثون كل واحد إلى الآخر. "يقال: إنه يستحوذ عليها جن عنيد وشرير جدا". أدخل الحارس فتاة ضئيلة نحيفة ترتدى أسمالا بالية سوداء إلى الفناء. "أنا متأكد أنه مع فهمنا جميعا لمثل هذه الأمور يمكن أن نشفى هذه الفتاة من أى شئ يمرضها".

طلب من الفتاة أن تقص حكايتها، وهو ما قامت به ببساطة وصراحة. وجد حاوى نفسه يميل إلى الأمام ليستمع إلى كل كلمة. بدت ضئيلة وخفيفة كالعصفور. استعادت المعاناة التى تحملتها فى صغرها وذكرت رحلة طويلة تصف كيف تركت منزلها. أخبرتهم عن صبى من قوات الخديوى المفزعة الباش - بوزوك. قصتها غير العادية تصنع شبكة كالأوراق على سطح النهر. بدأت تتحدث عن كيف أحبت ركوب المراكب والاستماع إلى الريح والشعور باندفاع الماء من تحتهم.

أخبرتهم عن وصولها الخرطوم منذ شهور طويلة. عندما هبطوا المدينة قيد الصبى بالسلاسل وأخذ بعيدا وتركت وحيدة فى الشارع. أغلقت فى وجهها بوابات الثكنات على الرجل الإنجليزى الذى كان يود أن يحبها. عندما رأى الحوائط الحجرية العالية والبنادق أصبح يشعر بالخزى منها. ابتعد عنها ببطء وهز رأسه بالرفض عندما سأله الحارس هل يدخلها. وبينما اهتزت الأبواب الكبيرة معا رأته من خلال الفتحة الضيقة فى الضوء اللامع، خفض رأسه وسار بعيدا عبر الغبار، وملابسه أسمالا بالية، نحو مجموعة من الضباط الذين انتظروا فى ظل الشرفة فى الجانب البعيد من فناء العرض. كانوا يبدون قساة متجهمين بل أغبياء فى ملابسهم المتيبسة التى تعوق الحركة. الأبواب العالية أغلقت على الحياة التى كانت قد بدأت تحلم بها لنفسها.

انجرفت عبر المدينة بسرعة تكاد لا تلمس سطح الأرض. ليس لديها شىء. كانت تنام فى الشوارع، تحت أشجار الحدائق، إلى جانب النهر حيث الطيور تغزل أعشاشها فى النخيل. تشحذ الطعام فى السوق.

والناس يشفقون عليها. قبل تحرير الخرطوم سلمت لبمباشي كريه في الجيش وهو الذي حبسها في حجرة في منزل صغير مليء بالسيدات الذين حبسوا لتسلية القوات. كان المنزل نفسه بسيطا جدا حوله فناء مزين بنخلة صغيرة وفتحة في الأرض يملؤها الماء وسمكة ذهبية صغيرة تعوم وهي تتلألأ في الضوء. المكان جميل ولكن كل أسبوع يفتح الباب ويسمح لهم بدخول حديقة على النهر تنيرها الأضواء وتزينها فوانيس ورقية ملونة وترى الألعاب النارية ومجموعة لعينة من الموسيقيين الذين لا يسمعون النغمات، يسيرون وهم يعزفون على الآلات النحاسية والكمنجات والسيدات يقفن قريبا تحت الأشجار وينتظرن عندما يشعر الضباط بالثمالة التامة ليعانقونهم. معظم الرجال المحترمين غادروا منذ مدة طويلة، الباقون هم اليائسون الذين ليس لهم مكان آخر يذهبون إليه. وهم الذين أتوا إلى هنا؛ لأنه ليس لديهم خيار. الرجال المطلوبون بأسماء أخرى لأنهم ارتكبوا جرائم فظيعة في مدن بعيدة. الموظفون المحتالون والمراهقون المحبون والقتلة والمغتصبون والرجال ذوو القلوب الشريرة حبال الشنق المحترقة تلتف حول رقابهم وشرائط الخيانة السوداء ثبتها حول قلوبهم القادة المكلفون بتنفيذ حكم الإعدام، وكل منهم لديه أسراره. بعض الفتيات داعرات ماكرات تعلمن هذه المهنة في بيت الدعارة الشهير سلامات الباشا. أخريات مثلها أتوا من أماكن أبعد. بعضهن حتى أصغر سنا منها: فاغرات الأعين وفزعات مما ينتظرهن. بعضهن فقدن عائلاتهن أثناء الرحيل أو تم القبض عليهن وهن يسرقن حفنة من الذرة أو بعض التمرات في السوق. على كل حال فقد انتهى الأمر بهن في مكان السيدات الذي أكدوا لهن أنه أفضل من السجن.

وعدت نفسها أنها ستهرب عند أول فرصة. لم تكن تدرى إلى أين تهرب بالضبط، ولكن بشكل ما سوف تقوم بذلك. قررت، وهى تستلقى تحت ملازم أول من سلاح المدفعية ينخر وهو مبلل بالعرق وتصدر منه رائحة البصل والسمك الميتان أن أى شئ سيكون أفضل من ذلك.

مثل هذه الأشياء، رغم ذلك، لا تتقدم عبر أقصر الطرق وإلا أين سنذهب جميعا؟ وبعد وقت ظهيرة غريب ملأت الحجرة الصغيرة رائحة ماء القناة الراكدة في المكان الذى كانت تعيش فيه، استدعاها سانجاك من المشاة لتؤدى فعلا مخزيا مع إسكندر كلبه المهجن ذى العين الواحدة. كان الكلب بريئا تماما من الموضوع وربما انزعج من الفكرة مثله مثل الفتاة، التى قررت أن هذه هى النهاية. قبل أن يعرف المهجن الحائر أين هو، رفعت الفتاة مجمرة فحم وبخور وبعثرتهم على السرير مما أشعل النار فورا. امتلأت الحجرة بالدخان والصرخات بينما ضرب السانجاك بيديه يحاول أن يطفئ اللهب الذى أمسك به. وقفت نون فى الجانب البعيد من الحجرة، حيث النسيم الذى امتص من خلال النافذة أبعد الدخان عنها وكانت تراقب بينما الرجل يترنح ويسقط، وجلده يطفو من جسده وهو يحترق.

نبهت الصرخات الموجودين بالمنزل ولكن نون أخبرتهم أن يظلوا بعيدا ولأنهم لا يودون التدخل فى متع الضابط الحسية لم يفعلوا شيئا بل وقفوا بالخارج وآذانهم ملتصقة بالباب وقد تجعدت أنوفهم من الرائحة الغريبة، حى فتحت أخيرا نون الباب وخرجت. سألت الفتيات لماذا، لم يكن الرجل قادرا على النهوض من السرير المحترق؟ نظروا إلى

نون التى هزت كتفيها بلا مبالاة. ماذا عرفت عن ذلك؟ ثبتت مكانها من الخوف غير قادرة على الحركة. بقية القصة لم تظهر للعيان رغم وصول الجنود بأقدامهم الثقيلة كالعادة وهم يسقطون الأشياء أثناء سرعتهم الخرقاء، يجرون هنا وهناك وهم يهاجمون ويلعنون فى الفناء الصغير. تم اصطحابها بعيدا. قال بعضهم: إنه يجب أن تحاكم كساحرة لولا أن السلطات فكرت فى أن هذا الأمر من الصعب قليلا تسجيله فى محاضر جيش الخديوى، ولذلك أخذت إلى مستشفى كان فى الحقيقة سجنا للنساء اللاتى إما فقدن عقلهن أو لم يعدن جميلات أو شابات وهنا أخبروها بأمر الطفل الذى تحمله وهو أمر كانت تعرفه.

وفى هذا المكان الفظيع كانت تعيش تحت رعاية الأب فنتورى، وهو رجل لطيف عيناه تتدليان من جانبى وجهه وتحملان ابتسامة حزينة. أخبرها أنه سينقذها. تحدث إليها عن المسيح وأراها كتابا مغلفا بغلاف جلدى به رسومات يدوية عمرها أكثر من مائة عام (رفع إصبعه ليريها المدة الزمنية). كانت الرسومات تظهر المناظر الدينية. ولد الطفل تحت نجمة لامعة مثل المهدى ونجمه المذنب. فكرت. الحكماء الثلاثة (مثل الخلفاء الثلاثة). الرجل على الصليب. لم تكن تهتم كثيرا بالدين، ولكنها أدركت أن الأمر مهم بالنسبة للقسيس وكانت تحب صور الرضع البدناء ذوى الأجنحة الذين ينفخون الأبواق.

أخذها الأب فنتورى إلى الكنيسة مع بعض النساء الأخريات يصطحبهن عدة جنود؛ لكى يضمنوا ألا يهربن أو يتصرفن بطريقة غير لائقة. كانت الكنيسة باردة ومظلمة والحوائط الحجرية تشعر بالراحة.

رائحتها خشب مطلى وتراب وهى الرائحة التى تخللت الجوانب ودعامات السقف المرتفعة. علمها كيف تصلى. لصقت يديها معا وركعت عندما طلب منها ذلك. كانوا يأكلون جميعا وجبة بسيطة من الخبز وعصير الجوافة المكبوس وجبنا أصفر جاف أعده الأب فنتورى بنفسه. أحبت نون هذه النزهات، لأن القسيس ذا العينين الحزينتين كان الإفرنجى الوحيد الذى لديه ما يكفى من طيبة القلب ليأخذ وقتا كافيا وهو يتحدث إليها.

وفى أحد الأيام بينما كانت تمر بإحدى نوبات مرضها، استيقظت لتجد نفسها مستلقية فى حجرة تضيئها الشموع مائة أو أكثر. لم تستطع أن تتذكر كيف أحضرت إلى هذا المكان وتساءلت إذا كانوا يظنون أنها ماتت. يجلس بجانبها القسيس، وهو الآن نائم. تستطيع أن تتذكر رائحته. قفزت من فوق المنضدة واحتقرته.

بعد ذلك، طلب الأب فنتورى، الذى له اهتمام بالطب، من الجندى المسئول عن الشئون الطيبة أن يأخذ نون إلى الكنيسة كل يوم لتقوم بأعمال خدمة مثل كنس الحديقة الصغيرة ورعايتها؛ أملا فى أن يعطيه ذلك فرصة لإجراء تحليل طبى شامل لحالتها.

تدريجيا وقع فى حبها. نون بالطبع كانت تعى اهتمامه المتزايد وتساءلت كم سيستغرق الأمر قبل أن يكشف عن نياته. ولكن الأب فنتورى كان يتحرك ببطء ويعيش فى صراع مع ضميره. فقد كان يلهو لمدة طويلة بخطة هجرة الكنيسة والفرار إلى ساحل البحر الأحمر ليحيا حياة بسيطة فى الهواء النقى الذى يهب مع الموج.

وفى النهاية ولأنه غير قادر على أن يتخذ الخطوة الحاسمة وفى الوقت ذاته غير قادر على احتمال العذاب لأكثر من ذلك شنق نفسه فى أحد الدعامات الأفقية القوية.

فى اليوم الذى توفى فيه استيقظت نون لترى القمر يبدو للعيان من خلال أوراق نخلة خضراء مدببة. كن ينمن فى شرفة المشفى على أى شراشف يمكن النوم عليها؛ لأن المشفى مكتظ إلى درجة الانفجار بالمرضى من كل الأنواع. الجنود الذين كانوا يعيشون تحت السلالم فى خلفية المبنى لجأوا إلى أكل الحبال القديمة وذيول الكلاب ويغلون جلود بنادقهم ولحاء النخيل، وكانوا يموتون تحت ضغط تناقص الغذاء. ويستلقون وهم يسعلون طوال الليل. ويتقيأون العصارة الصفراء. والمرضى العقليون فى هذه الأثناء كانوا يتجولون بحرية، يقودهم النور الغامض الخاص بهم.

الجنود فى ثكناتهم نحفاء وجوعى أيضا، وجوههم مبهمة مثل الكلاب المهجنة. يسحبون الناس بعيدا بانتظام وهؤلاء الذين يؤخذون لا يعودون أبدا ويقول بعضهم: إنهم لا يعودون؛ لأنه يتم تقديمهم غذاء فى الثكنات فى المساء، وأنه كان هناك كومة من الجماجم تحت المنضدة الكبيرة التى يجلس عليها الجنود يأكلون فى المساء.

عندما جاء الأنصار كان الجميع نائمين. قالوا: إنهم جاءوا ليحرروهم جميعا. وعندما تسلقت نون الحائط لترى المدينة من أعلى، رأت الدخان يأتى من اتجاه الكنيسة وعرفت أنه ما كان إلها لم يعد موجودا، وأنه كما أن الشمس تدور فى السماء، فإن الأرض تدور أيضا،

وأن ما كان خيرا أصبح شرا، وأن ما كان شرا أصبح خيرا، وأنها قد تصبح بسهولة ملكة لأرض بعيدة غنية بشكل خيالى أو داعرة مجنونة لا تملك سوى بعض الملابس على ظهرها. جمعوا كل النساء معا وقادوهن خارج المدينة. زوجات التجار، الشحاذون واللصوص، من هم مثلها، المجانين والعاقلات - أخذوهن إلى معسكر المحارب الشهير واد النجومى الذى يشبه فى رأيها أى قاطع طريق أو لص عربى آخر. أعطوهن طعاما ومكانا ينمن فيه. أخبروهن أنهن الآن أحرار، واللاتى ليس لديهن رجال لرعايتهن سوف يتم تخصيص منزل لهن ليعشن فيه. لا نساء غير متزوجات أو ليس لهن إخوة من الذكور ليعيلهن سيسمح لهن بالتجول فى الشوارع أو أن يعشن بمفردهن. إنها قواعد المهدى للمجتمع الجديد وفيه قانون الشريعة أساسى.

أول زوج أعطوه لها كان رجلا طيبا، شخصا بسيطا قام بعمل عظيم والآن أعطوه منزلا كبيرا. الكل مشغول طوال الوقت. لديه عشرة من الخدم يهتمون بأمر كل شئ. كان كبيرا فى السن إلى حد ما ولكنه كان غنيا ولم يكن يطلب منها شيئا. كانت سعيدة لفترة وجيزة حتى جاءها الجن مرة أخرى فى يوم ما. سقطت على الأرض وبدأت ترتعش. عضت لسانها حتى سال الدم من فمها. بدأت النساء فى المنزل يصرخن يجذبن شعورهن وعندما عاد زوجها للمنزل رأى الأمر من وجهة نظر قاتمة. حاولت أن توضح أنه شئ ما فى رأسها وأنه لا يحدث إلا نادرا وأنها لا تؤذى أحدا أبدا. ولكنه لم يقتنع. همست السيدات الأكبر سنا أن الأمر بدا وكأن الجن يأخذها كرجل وكان هذا كافيا بالنسبة إليه. طلقها فورا.

انتهت القصة، وقف الشيخ بلدى وبدأ يحاول التفكير فى شىء يقوله. "منذ هذا اليوم يا إخوانى وهذه الفتاة تعيش فى الشوارع مثل الحيوانات. الآن، ماذا يمكننا أن نفعل لننقذها؟". كان هناك عدة حركات نصف مشفقة ودارت مناقشة.

معظم الحاضرين وجدوا القصة تسلية جيدة، ولكن بالنسبة للوصول إلى حل لهذه المخلوقة، فلا يوجد. حاوى، أيضا، أسرته القصة. شعر بنوع غريب من التعاطف مع المخلوقة المسكينة التى نظروا إليها بوصفها خطرا؛ لأن جسدها يصدر عنه سلوك لا يمكن التنبؤ به. العالم يحكمه الإقناع. السبب وراء اتباعهم للمهدى؛ هو أنه كان يرضيهم أن يتبعوه. إن الناس لم تعد تقتنع بالرؤى. إنهم يفعلون ما يشعرون أنه يؤكد سعادتهم أو يزيدها. الفتاة الضئيلة صغيرة السن لم تتردد أثناء وصفها لما حدث. ابتسم لنفسه بينما خطا عبر باب منزله. فكلاهما لا يختلف كثيرا عن الآخر. فقد كانت تتحدى الناس بالسقوط على الأرض وهى تركل سيقانها، أما هو فعقله أو الطريقة التى يفكر بها يثيرا الذعر والاستياء.

٢٥- أقصى الشمال

النوبة سبتمبر ١٨٨٨

قد تكون المعركة انتهت ولكن الحرب مستمرة. مجموعة من راكبى الجياد القلقين تحركت عبر المدينة دون أن يلاحظها أحد. لم تكد رأس تستدير نحوهم وهم يشقون طريقهم ببطء تجاه الطريق المتجه إلى الجنوب؛ لأنه لا يمكن تمييزهم عن آلاف الأنصار الذين اجتاحوا المدينة الصغيرة. لا يتذكر أحد أنه رآهم يصلون منذ يومين، متربين ومثارين بعد رحلتهم الطويلة من العاصمة. فى وسط المجموعة، التى لا يزيد عددها عن ستة عشر، المفوضون الثلاثة. وبفحص أدق نرى جوباتهم من أفضل أنواع القماش يركبون جيادا ضخمة ويجلسون على أفضل أنواع السرج. من هناك لاحظوا باستنكار حالة من الفوضى بدت أنها تسود بين الأنصار الذين احتلوا المدينة. لم ينظر أحدهم إلى الوراء على مجموعة السواتر المبعثرة عبر التجويف الضحل للأرض المستوية، فى اتجاه الغابة المتيبسة التى تميز النهر إلى الغرب، حيث ثبت الأمير نجومى خيمته.

داخل خيمة القيادة، كان واد النجومى مستغرقا فى حوار مع حليم، أكثر صديق يثق به. يجلسان مقتربين حتى لا يسمع صوتهما من الخارج.

قال: حليم: "افرض أنه لم يرسل أى طعام".

رفع نجومى يديه ببؤس. "ماذا يمكن أن نفعل؟ إذا لم يوجد شيء، يجب أن نأخذ ما نحتاجه".

"ولكن القرى خالية. المتاجر يملؤها التراب والفئران.الأمطار كانت قليلة والنهر أكثر انخفاضا مما رآه أى امرئ من قبل".

منذ عودته من أم درمان من أسابيع قليلة، كان نجومى يذهب هنا وهناك باحثا عن حل لمشكلة الطعام.

"يجب أن نستمر فى التحرك سواء لدينا طعام أم لا.

"إلى الشمال؟" سأل حليم "ولكن ليس لدينا عدد كاف من الرجال".

"إذن يجب أن تجد أكثر. اذهب إلى القرى. ارسل عملاء لتعزيز الجيش بالجنود. خذ أى امرئ يستطيع أن يحمل سيفا أو سكينا. تمطى على البطانية التى ينام عليها، حيث شعر فجأة بالتعب. "إننا وحدنا فى هذا الأمر. لا نتوقع أى مساعدة. لن أعطيهم الرضا لرؤيتى أخفق". ضحك ضحكة مكتومة بها قليل من الفكاهة. "لدينا بنادق وقذائف ومدفع أكثر مما يطلبه أى جنرال، ولكن لدينا رجال قليلون ليطلقونهم وما لدينا من رجال يموتون جوعا". حملق فى حليم مرة أخرى. "كم نفقد من الرجال كل يوم؟".

أمال الرجل الآخر رأسه إلى جانب واحد لا يرغب فى أن يجعل الأمور أسوأ. كان الجنود يختفون ليلا بمعدل مقلق. عشرة رجال مرة واحدة، أحيانا أفرادا، وأحيانا مجموعة معا. ولأنه يعلم ماذا يعنى صمت

مساعده، مال نجومى إلى الخلف ووضع يديه خلف رأسه وهو يتنهد. "زودوا الخفر ليلا. لا يمكن أن نسمح لهم جميعا أن يختفوا ببساطة كالرمل فى النهر. الله يعلم أننا جميعا تعبنا من الحرب". ثلاث سنوات مدة طويلة، كان يفكر. عندما سقطت الخرطوم بين أيديهم، كان يعلم أن روح القتال ستتسرب من المحاربين. لقد كانت الخرطوم هدفا لهم. أصبح الأمر أكثر غموضا، الآن إلى أين سيذهبون؟ ماذا سيفعلون عندما يصلون إلى هناك؟ ولماذا يسأل مثل هذه الأسئلة ومن المفترض أنه القائد؟

نقص المؤن ليس المشكلة الوحيدة. كانت هناك أحداث أخرى هزت تدعيم الأنصار. كان يفكر فى البطاحين، الذين استطاع أن يحشد جنودهم فى طريق عودته من العاصمة. كانوا سيقتلونه فورا لولا بعض الرجال الذين حاربوا معه فى الخرطوم.

"أنت تعرفنا" قالوا: "أنت تعلم أننا نحارب وأننا لا نخاف الموت".

"أعرف" كل ما استطاع نجومى أن يقوله.

"إذن لماذا يعاملنا الخليفة عبد الله بهذه الطريقة؟". إن المدينة فى حالة حداد. "لقد ذبحوا إخواننا، وآباءنا، وأبناءنا، لماذا؟ لأننا قلنا إننا تعبنا من هذه الحرب، إن أهلنا يحتاجون إلى الراحة، لقد ارتدينا ثياب الحداد بما فيه الكفاية. وفى المقابل، ذبحنا كالماشية". لقد أرسل الخليفة رسالة إليهم يطلب من رجالهم أن يحاربوا.

عندما نظر لمجموعة الرجال الذين يقفون أمامه شعر بالخزى لما أصبح عليه. هؤلاء الرجال بسطاء، يعملون فى الأرض. لقد أرسلوا

رجالهم ليحاربوا مع المهدى وسقط كثير منهم. الآن يقولون إن هذا يكفى. لقد قالوا: إن الخليفة ليس المهدى. وفى المقابل اتهمهم بالخيانة وأعدم خمسة وستين من إخوانهم فى يوم واحد فى أم درمان. من قاموا بإعدامهم أخذوا يضربون بسيوفهم الثقيلة حتى أصبحت أذرعهم متعبة لدرجة أنها لا تقوى على حمل السيف أكثر من ذلك.، حتى غطاهم الدم من رءوسهم وحتى أصابع أقدامهم وفرشت الأرض بحصاد من الرءوس المتجهمة والأطراف الغريبة. تتدلى المشانق فى مجموعات من ثلاثة وأربعة فى منظر مروع دعيت إليه المدينة كلها.

"لم يستجد أى منهم الرحمة، لم يصرخ أحد منهم". قال: رجل عجوز وهو يلصق وجهه بوجه نجومى: "إنه ليس أسلوب البطاحين".

"إخوانكم لم يموتوا دون فائدة" قال: نجومى وهو لا يعرف من أين يأتى بالكلمات. خطا إلى الخلف ورفع صوته: "أنتم أيها الرجال تعلمون من أنا. إنكم تعلمون كلمتى. لن أرسل أى إنسان إلى مكان لن أذهب إليه، لن أرسل رجلا إلى المعركة إذا لم أكن مستعدا أن أقف إلى جانبه". نظر حوله إلى الوجوه المحتشدة. "أنتم تعرفون ذلك جيدا. إذن اعلموا هذا أيضا سوف أركب جوادى إلى الشمال لآخذ حلفا Halfa ومن هناك إلى مصر". رفع كلتا ذراعيه فوق رأسه. الشمس ساحقة. وقفوا هناك متجهمين، غير مقتنعين. فسوف أتبع النهر حتى مصبه؛ لأن هذا ما طلبه منى المهدى بنفسه قبل أن يموت. سنأخذ معنا كلمة الله لنهدى هؤلاء الناس غير السعداء الذين يعيشون دون إيمان، فقد سرقت أساليب الأتراك الفاسدة الإيمان منهم. ترك يديه تسقطان إلى جانبيه. "أنا لست

رجلا من الرجال الذين يحبون الخطبة، أنتم تعرفونني من أفعالي. ولكنني رجل عادل..." ظلوا يحملقون فيه بهدوء، "أحتاج إلى مساعدتكم".

وقف نجومي الآن ورفع براية الخيمة إلى أعلى. "أعتقد أنه يجب أن نتحرك إلى داخل المدينة لقد تعبت من العيش كبدوي". كان المعسكر يبدو متهدما مضطربا. قال دون أن يستدير: "لقد ضحكوا عليَّ يا حليم". كلهم يجلسون بجانب هذا الكلب المتفاخر الأحمق". استدار الآن حيث خطر له شئ آخر. "هل سمعت قصة الشعرة يا حليم".

مرت بوجه الرجل نظرة حيرة. ضحك نجومي باستخفاف وجلس على البطانية مرة أخرى. "يبدو أن هناك شعرة أحضرها شخص ما لخليفتنا قائلا: إنها شعرة كانت تزين رأس محمد أحمد المهدى، وقدم يده هكذا". مد نجومي يده. جلس حليم فاغرا فاه، لا يدرى ما سيأتي بعد ذلك. "حينئذ" أغلق نجومي يده " خليفتنا النبيل الصديق خطف الشعرة من يد الرجل غير المحظوظ... ابتلعها".

تجهم وجه حليم "أكلها؟ الشعرة" أومأ نجومي بالإيجاب.

"لماذا؟".

تعب واد النجومي من الحكي. خفض صوته درجة. "قال: إن نور المهدى دخل جسده مع الشعرة وهي الآن تنمو هناك مثل شمعة من الشمع الحيواني" تنهد ولدقيقة لم يزعج أحدهما الصوت البعيد لطائر حباك صغير على سطح الخيمة.

"لقد ضحكوا علي وأرسلوني بعيدا لأموت. وكأنني لم أثبت قيمتي بالفعل من قبل". الغضب والإحباط يتدفقان من الرجل قليل الكلام.

قال: حليم بطريقة فلسفية: "البجارة Baggara كلهم هكذا". "يأتون من الصحراء ولا يعرفون شيئا. الآن يعتقدون أنهم اشتروا البلد كلها لأن أخاهم يجلس على حصان المهدى.

ضحك نجومى قائلا: "ربما".

تذكر زيارة أعضاء اللجنة الذين رحلوا مؤخرا. الأكبر سنا منهم، رجل وقور وعيناه غير واثقتين تعكس عدم ارتياحه للحقيقة، بدأ بسؤاله للتحقيق.

"سمعنا أنك تعسكر إلى الشمال من المسجد وجيش مساعد قويدام Musaid Quaydum إلى الجنوب منه".

أجاب نجومى بإيجاز وكأن الأمر غير مهم قائلا: "هذا ملائم أكثر".

واصل الرجل الحديث وكأن أحدا لم يقاطعه. "عبد الله التاعيشى يخشى أن هذا الأمر سيضعفنا فى عيون أعدائنا. يجب ألا تظهر أى علامات صراع من جانبنا".

"إننا هنا ببساطة لنضمن أن التعاون بين كل الجوانب سلس". قال المفوض الثانى بطريقة رتيبة: "إن النصر هو ما يهم".

رد نجومى بحدة: "إذا كان النصر هو ما يهم، إذن ارسلوا لى طعاما ورجالا؛ ليحاربوا بدلا من إعطاء كل شىء لجيش الزكى alzaki فى أبيسينيا Abyssinia". غير المفاوضين الثلاثة مواقع أقدامهم. واصل نجومى حديثه، وهو يقترب من الشخص الأكبر سنا. "كيف يتوقع منى أى شخص أن أستطيع الاحتفاظ بهذا الجيش متحدا بينما ليس لدى دعم مرئى منه؟". أجابه المفاوض بنظرات خالية من التعبير.

الليل يهبط. خطا نجومى وحليم إلى الخارج ليصليا قبل أن يجلسا على الأبسطة المصنوعة من القصب. قال: النجومى وهو يختتم قصته: "بالطبع لم يحضروا لى شيئا". ذكرى إهانته من قبل الخليفة عبد الله ما زالت تحرقه. "انظروا هنا" الخليفة الفظ احتكم إلى ضيوفه فى هذه المناسبة "أبو غانو قبض على شاكا. أبو أنجا أعطى الإثيوبيين علقة ساخنة، وعثمان دجنا فى طريقه إلى سواكن، ولكن أنت يا أمير الأمراء يا عظيم تجلس فى دنقلة منذ عامين لا تفعل شيئا".

بعد فترة صمت، قال حليم: "أخبرنى عن محمد الفحل".

"لا شىء يمكن فعله". قال نجومى: "يداى مغلولتان".

"لم يكن رجلا سيئا".

"لقد كان غبيا. يستحق أن يشنق فقط على النطق بهذه الأشياء أمام الآخرين. لم يكن يجب أن ينطق بهذه الأفكار بصوت عال. ولا حتى فى نومه". نظر حليم إلى الأرض "لا يمكن الوثوق بأحد إذن". بدا أن نجومى يفهم تغيرا فى نبرة صوت صديقه نظر نجومى عبر الظلام. "سيكون هناك حالات إعدام مشابهة. وبينما الوقت يمر سوف ندير اهتمامنا من أعدائنا البعيدين هناك إلى هؤلاء داخل منازلنا. هؤلاء الذين نطلق عليهم إخواننا وأسرتنا وأصدقاءنا".

"ولكنك لم تكن لتفعل ذلك إذا لم تكن الأخبار قد انتشرت بهذه السرعة".

تنهد نجومى وفحص الأفق بعينيه.

هنا وهناك رءوس برتقالية - زرقاء من البريق المهتز كالريح ترقص عبر سهول المساء. "خطأى الوحيد كان عدم قتله مباشرة".

كان يعلم أن حليم يجد ما يسمعه صعبا. ولكن ما لا يفهمه حليم أن الأشياء تغيرت. لقد مرت الأيام التى كانوا يستطيعون فيها الحديث عما هو خطأ وصواب. ما يهم هذه الأيام هو الطاعة. فالطاعة صواب وعدم الطاعة خطأ. الفرق بينهما مثل الفرق بين الحياة والموت. الصراع بين نجومى وقويدام أصبح أشد مع كل يوم. مراكب العدو تسافر ذهابا وإيابا فى النهر إلى الشمال ويتم إرسال الخفر ليقدروا قوتهم. أحد هؤلاء الخفر أرسل رجلا مشى مضطربا إلى المعسكر ووجد نفسه أمام نجومى.

"كلهم ماتوا" بكى وهو لا يعرف أنه الأمير.

نظر إليه الأمير لحظة دون أن يستدير. وسأله ببساطة: "ولماذا أنت ما زلت حيا؟".

زاد عدد الخفر الفرسان الذين أرسلوا لمراقبة المعسكر.

"الغذاء يسرق بمعدل مفزع. فإنهم يموتون جوعا. ليس لديهم خيارٌ إلا السرقة ليطعموا أسرهم". هبط النهر وفسد المحصول. إنه عام المجاعة الكبرى.

يونس الديكيم، الذى تسبقه شهرته بالوحشية من أبيسينيا، حيث استعاد جلابات Gallabat من الأثيوبيين، وصل من أم درمان ليتولى مسئولية الأمور فى الأوردى Urdi. وفى تجمع كبير فى ميدان المسجد

بعد صلاة الظهر قرأ أوامره للجيش المحتشد. كان عليه أن يرعى الأمور. مساعد قويدام وواد النجومى كانوا بالنسبة ليونس مثل جثة يغسلها بين يديه. بشكل شخصى، رغم ذلك، فهو متحيز مثله مثل أى شخص آخر هذه الأيام. لقد اعترف لنجومى بكراهيته لقويدام: "إنه صبى عبد صغير من البجارة الجهلاء وأهميته تتعلق بقرابته من حماقة الخليفة. لا تلتفت إليه. أنت يا نجومى من أول أتباع المهدى وبالتأكيد فإنك أعظم الرجال العسكريين لدينا" ابتسمت الملامح المتجهمة بطريقة متباعدة. لديه جلد مثل جلد وحيد القرن، ولكنه غير مؤذ، طالما أنه بجانبك. كان يقول: "كم من انتصار ندين بالفضل فيه لك".

يبدو أن تفضيل يونس الشخصى له، أنقذ نجومى من مصير كريه. لمح كيف يمكن أن تكون الأمور فى المعسكر الثابت لقويدام الكريه. عندما أرسله يونس يجرى حول الميدان حاملا سيفا ليوضح كيف يمكن أداء العهد وكاد نجومى يشعر بالأسى من أجل خصمه.

جاء حليم إلى نجومى، وهو يبدو ضعيفا ومنهكا.

"سوف يصبحون حالا ضعفاء جدا لدرجة ألا يستطيعون السير" أوضح "يجب أن نأخذ حلفا من يموت، يموت". على الأقل الأحياء سيتم إنقاذهم".

تنهد نجومى. اللحظة التى كان يخشاها جاءت. ذهب إلى يونس الديكيم وأخبره بقراره. قال: يونس ضاحكا: "إذا كان أى امرئ يستطيع النجاح فهو أنت".

استغرق الأمر ثلاثة أشهر قبل أن تصدر الأوامر لتسمح للجيش بالرحيل.

استيقظ المعسكر في إحدى الليالي على صوت الطبلة الكبيرة. رفعوا سيوفهم ورماحهم، جرى الرجال نحو الرمال في وسط المدينة وبحثوا عن قائدهم. خطا من يدق الطبلة إلى الأمام، لقد كان نجومي نفسه. وبينما هم يراقبونه رفع يديه وتلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾(*) "وهكذا يجب أن يكون الأمر بالنسبة إليكم". وقفوا يسحرهم ضوء القمر واللمعان الفضي لشخص قائدهم أمامهم، كلماته أربكت نومهم وأذهانهم المفزوعة وكأنه حلم.

أخذ نجومي رجاله في الصباح التالي وعبر من المدينة إلى الضفة الغربية ليبدءوا السير نحو الشمال. الإبل والخيول والماعز، نساء وأطفال يجرون عبر النهر مثل مجموعة مؤمنين تتجه إلى صحراء الشمس. لم يكن قائدهم نبيا ولكن رجل واضح وبسيط، مثلهم تماما ومصيره كمصيرهم. جيش واد النجومي لا يتعدى خمسة آلاف محارب وثمانية آلاف من المرافقين في المعسكر.

(*) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

٢٦- توشكى، الصحراء النوبية

يوليو ١٨٨٩

استيقظ ليجد رأسه ملفوفا بقماش، تساءل لحظة إذا كان قد مات وتم دفنه بالفعل. القماش مترب ورائحته تنتمى إلى الرائحة الدنيوية وبدا غريبا بالنسبة إليه أن رجلا يمكن أن يكون ميتا ويظل يشعر بإحساسات العالم المادى. هذا لم يكن يشبه ما تخيله عن الأمر. ربما لم يعد مخلصا بعد فى أفكاره والله بحكمته قد حكم عليه بأن يكون فى أحد المستويات السبعة للمطهر القريبة من العالم الأرضى، لتستمر هذه المعاناة حتى يوم القيامة.

الأصوات تأتى إليه الآن، ليست بعيدة، أصوات الرجال والنساء وحتى الأطفال. جلس مترددا، ورفع الساتر المؤقت، الذى أقيم الليلة الماضية من سعف النخيل ولفاع قديم، وهو الذى سقط على رأسه أثناء الليل. نظر حوله إلى المعسكر فى الصباح الباكر. هذا أكثر عذر يثير الشفقة لجيش خلقه الله على الأرض، هذه الكثرة مؤكدة. كان الأطفال يتجولون وهم ينتحبون حول الكبار الذين يبدون أنهم أصيبوا بالدوار وممددين على الأرض. كل وجه تكسوه نظرة التعب الكئيبة. لم يأكلوا وجبة جيدة منذ أيام. لقد ذبحوا أكثر عدد استطاعوا أن يذبحوه من الحيوانات. أكلوا إبلا وحتى خيولا وقال أحد الأشخاص: بغالا أيضا،

رغم أنه مرض فى هذه الليلة بالذات. بجانبه جندى بعيد لم يعد يتذكر اسمه كان يطحن تمرا متحجرا بين صخرتين منبسطتين. كانوا سيصنعون نوعا من الدقيق ليخلطوه بالماء ويخبزوه كخبز بلدى.

إلى أى مدى تقدموا! وهم يشقون طريقهم عبر بطن الأحجار إلى أبعد من ساراس Sarras ومعتوقة .Ma'tuqa. الآن هم شمالى حلفا ذاتها. شمال الجبهة الأمامية المصرية، يتجهون نحو أسوان وبعدها بنبان .Binban . كان يبدو الأمر كله كحلم وكأنه لا يحدث على الإطلاق. الحراس القائمون على العمل فى الحصن الأمامى فى حلفا لوحوا لهم بالأيدى واكتفوا بأن يروهم وهم يسيرون إلى داخل الصحراء، إنه ليس غزوا ولكن نزهة من خلال سماح الناس الذين أتوا لغزوهم لهم بالدخول.

فى متمة Metemma عبروا هياكل البواخر المعدنية المقلوبة الصدئة التى تركتها القوة البريطانية المنسحبة التى جاءت لنجدة المدينة المحاصرة منذ ثلاث سنوات. وهى التى يتبعون طريقها الآن. المركب المفكك الذى تم اكتشافه صدفة، يرقد على المياه الضحلة، على الرمل مثل شهادة غامضة على الإله الحديث للصناعة .

بينما هم يتجهون إلى الشمال أكثر فى اتجاه معسكر الحد الجنوبى فى وادى حلفا، ابتعدوا عن النهر. إنهم يتحركون الآن؛ آملين أن يصلوا إلى شىء أفضل وأبعد. حتى البلح على النخيل غير ناضج ولكنهم أكلوه. الجنود يحملون أطفالهم على أذرعهم بينما يسيرون لساعات يتبعون القمر.

كانت معتوقة مخيبة للآمال، حتى هذا الوقت يعلقون معظم أملهم على أن إخوانهم فى الشمال سوف ينضمون إليهم ويثورون باسم الإيمان ضد قامعيهم. ولكن المصريين، فيما يبدو، لم يكونوا مهتمين بالأمور الدينية وليس لديهم إحساس بالقمع. "لديهم إدراك مختلف عنا" كما لا حظ حليم بطريقة جافة. سار نجومى وحليم إلى مدينة بالوجا Balluga مع مجموعة قليلة من أفضل رجالهم من أجل أن يخبروا أهل مصر برسالتهم السامية. ولكن حتى عندما كان يتحدث لاحظ نجومى النساء والأطفال من المعسكر يتحركون عبر الحشد وهم يشحذون الطعام.

أخذوا موضعا فى وسط المدينة الصغيرة وطرقوا الأمبية ombeya لينادوا على الناس. خاطب نجومى الحشد من فوق جواده وذراعاه مرفوعان عاليا.

"أهالى بالوجا" بدأ قائلا:" اعلموا أننا جئنا إليكم كأصدقاء وإخوة لأنكم مؤمنون مثلنا" "أيها الناس اجعلونى أخبركم أن الأتراك والفرنجة فروا من قوة سيف المهدى. لقد جئنا إليكم الآن لنخبركم أن الوقت قد حان لتنضموا إلى هذه الحركة العظيمة. دعونا نذهب معا. إن شعبينا أخوان منذ البداية. دعونا نذهب إلى القاهرة ومن هناك إلى القدس والأراضى المقدسة فى بعثتنا للحرية. لقد فقد العالم احترامه للإسلام، لطريقتنا البسيطة فى الحياة، لمدة طويلة جدا. لقد فسدت قوانينكم بسبب أفكار الفرنجة الكفار". وبينما هو يتحدث، أصبح نجومى مدركا للمسافة بينه وبين الحشد. إنهم ينظرون إليه ليس كمحرر ولكن كشىء أقل أهمية بكثير، أكثر تسلية. أصبح يشعر بالخجل من مظهره وبدأ يتمنى لو كان

قد ارتدى شيئا أكثر جاذبية من جوبته المتربة، حزامها لم يربط بإحكام منذ عشرين يوما . قدماه متقرحتان من طول الرحلة وتنزفان من الجروح. شعره طويل، وذقنه أيضا كانت تحتاج إلى تشذيب. "هؤلاء السود ليسوا إخواننا" صاح أحد الأشخاص وهو يشير إلى الجهادية" إنهم يبدون أقرب إلى العبيد فى نظرى".

"أى نو ع من الجيش أنتم، تحتاجون إلى نساء وأطفال إلى جانبكم؟".

بدأ نجومى يتلعثم "أنتم تعرفون انتصاراتنا" توقف وحجب الصخب على صوته. ثم عاد يصيح بأعلى صوته "عندما ذهبنا إلى أرض المعركة فى شايكان Shaykan كان هناك ألف ملاك إلى جانبنا. الرسول نفسه كان هناك على جواد أبيض له أجنحة". هنا بدءوا يضحكون بصوت عال وعرف أنه خسر المعركة.

"تبدون كعصابة غجر وليس كجيش غاز".

"أين مدفعكم وخيولكم القوية؟".

"انظروا إلى تلك البغال، ليس بهم عضلات إنهم مجرد جلد وعظم".

"مثل بقية قطاع الطرق".

"إننا نحتاج إلى الطعام" صاح نجومى بصوت أجش. "المؤن والذخيرة من أجل الرحلة إلى الشمال" بدأ الحشد يتفرق الآن. وقف هناك يرتعد دون كلمة ثم أخيرا أمسك يد حليم لينزل من فوق المنصة.

همهم "أفضل أن أواجه مجموعة من أعنف الفرسان على أن أخوض مثل هذا الأمر مرة أخرى".

"ولكن عندهم حق، إننى أبدو كرجل مجنون أحمق". معا قادوا الرجال بعيدا ليعودوا إلى الخلاء.

كان الأمر نفسه يتكرر أينما ذهبوا. بدلا من تحيتهم بأذرع مفتوحة، كأبطال غازين، كان الناس يغلقون أبوابهم فى وجوههم ويحدقون من النوافذ الطينية الصغيرة بأعين مكفهرة متشككة. كانوا يبصقون من فوق الأسطح على الصف المتبعثر ويصرخون مندهشين بسخرية، "هل هذا جيش الغزو العظيم للمهدى؟". ألقى شخص بقطعة من الخبز اليابس وسيدة تزحف فى الخلف جرت لتلتقطها لتطعم أطفالها، كانت أكثر صلابة من الحجر.

سأل الناظرون: "انظروا إلى هؤلاء الغجر. هل من المعقول أن يرسل الله جيشا ملعونا كهذا ضد قوة الخديوى؟".

"ربما أيضا يرسل جيشا من الفئران". ركب نجومى جواده عبر وابل من الفاكهة المتعفنة والبلح المتحجر وروث الماعز، برأس محنى لاعنا اليوم الذى شن فيه هذه المعركة.

ناموا هذه الليلة فى الصحراء، وفى الفجر وصلوا أركين Arqin ولكن البواخر كانت هناك وانطلق المدفع دون رحمة ليفرقهم. أجبروا على الحرب؛ لأنهم يحتاجون إلى الماء ولا يستطيعون أن يواصلوا السير أكثر. بدءا من هذا الوقت ستتحرك سفن المدفعية معهم، تعس فى النهر وتنزل

قوات جديدة على الشاطئ لتهاجم فى سلسلة من المناوشات الخفيفة. حاربوا ثلاثة أيام قبل أن يستديروا متوجهين إلى داخل الصحراء مرة أخرى.

انخفض عددهم إلى أقل من نصف قوتهم الأصلية، وصلت رسالة تعد بقدوم قوات جديدة من الجنوب. عندما جاءوا، بالطبع، اتضح لهم أنهم صبية صغار لدرجة أنهم لا يعرفون شيئا عن الحرب ورجال عجائز لدرجة لا يمكن الاستفادة منهم.

"انظر" لا حظ حليم بينما هما يراقبان أوراق الوافدين الجدد" إنهم حتى أحضروا جنودهم لرعايتهم.

من خمسة وثلاثين رجلا فى سلاح المدفعية، تبقى لديهم ثلاثة فقط. هذا ليس له إلا أثر بسيط، إلا أن البغال التى تجر المدافع ماتت لتتركهم أيضا، فعليا بمدفع واحد يجره الرجال خلفهم. لديهم ذخيرة حربية تكفى ليوم جيد واحد من الحرب، هذا كل ما لديهم، تركوا الباقى؛ لأنه بدون بنادق وقناصة بالبنادق لا يساوى شيئا. حاملى البنادق من الجهادية كانوا يتركونهم فى جماعات. "أول رؤية لسادتهم القدامى وذهبوا" أشار نجومى فى إحدى الليالى. "ليسوا مثلك يا مدنى أيها الرجل العجوز؟".

سعل الطباخ العجوز سعالا جافا يمكن اعتباره ضحكة. أربطة حلقه تبرز مثل حبل متصلب. جلده مثل قربة ممزقة. لقد أصيب بالعمى عندما انفجرت قذيفة فى مؤخرة أحد المدافع منذ أسابيع وقماشة قذرة تلتف حول عينيه. مشى يتعثر، وهو يستند إلى آخر عربة من نوات

العجلتين. "انتظروا حتى تشفى عيناى" قال ضاحكا: "حينئذ سأريكم كيف أتعامل مع هذه القرود" ثم جف حلقه واستدار ليبصق، لتصل إلى ساق حليم. مسحها حليم ببساطة فى جوبته دون أن ينطق بكلمة.

كانوا يجلسون فى الشمس، يعبثون بخيامهم. المعسكر بأكمله أقيم من هذه الأشياء المهلهلة. كلب يعوى عن بعد. الإبل ترقد على الرمل نصف ميتة. سيدة على وشك الولادة هنا، الآن؟ دهش نجومى أنه حتى فى مثل هذه الأوقات تستمر دورة الحياة. وبخ الجندى لإحضاره زوجته بهذه الحالة. "لم أستطع أن أمنعها يا سيدى" وأوضح له "أن أفرادا من عائلتها يعيشون فى الشلال".

وصلت رسالة اليوم من الجانب المصرى من الضابط الإفرنجى المسمى جرينفيل: جلس حليم ونجومى محبوسين فى الرمال، تحت قصاصة صغيرة من الظل يقرآن الرسالة معا. كلب كان يتجول بدأ يلعق أصابع أقدامهم.

ولذلك أتيت وبعدى آلاف وآلاف من القوات الإنجليزية والمصرية على وشك الوصول. كنت أفكر فى محوكم ومحو آثاركم، ولكن مع وصولى نظرت إليكم ورأيت حالتكم الضعيفة التى تثير الشفقة. وجدت أنكم تموتون من الجوع والعطش. أشفق عليك واد النجومى؛ لأن مطالبتك بعرش للخليفة ليس من حقه وضعك فى هذا الوضع اللعين؛ لأنها الطريقة الوحيدة التى يستطيع أن يذبحك بها. وضع ابن أخيه يونس فى مكانك ليتخلص منك ومن أصدقائك. لا أصدقاء ينتظرون وصولك فى بنبان، فقط الجيش الإنجليزى والمصرى. ينتظرون قدومك، بساعة

بساعة، ليشربوا دمك ويرسلونك إلى الهلاك. الطرق مسدودة أمامك، بينك وبين بنبان مئات الأمتار من الرمال والصخور، وليس بها ماء. إذا تقدمت تنتظرك الجيوش المنتصرة. إذا استدرت عائدا، الجيوش فى حلفا تقف لتراقبك وإذا ظللت حيث أنت، الجوع والعطش والطاعون يهددونك. أطلب منك أن تستسلم، حياتك وحياة قوادك سوف تكون فى حماية من أى شر.

تنهد نجومى ووضع الرسالة فى الرمل. مد يده ليبعد رأس الكلب المهجن المليئة بلسع البراغيث. "لا يمزج الكلمات هذا الجرانفيل". وافق حليم. "بالتأكيد لا يقوم بذلك". كان يركز جهوده ليمسك الرمح الذى يدعم سترهما. القماش القطنى يرفرف وظله يهتز مثل روح غير مرئية تمر عبر الأرض. بدأ حليم يرى الجن فى كل مكان. همهم بصلاة لتحميه.

"قد يموت المرء من الحزن وهو يقرأ رسالة كهذه".

سأل حليم: "ما الذى أتى بهم إلى هنا فيما تظن؟".

فكر نجومى" أظن أن ما جاء بهم هو نفسه ما جاء بنا".

"سمعت أنه فى بلادهم لا يمكن للرجل أن يتزوج سوى امرأة واحدة فقط، ولا يوافقون على استعباد البشر. ولذلك إذا أراد أن يكون فى أحضان امرأة أخرى عليه أن يترك بلاده ويسافر بعيدا. ويقولون: إنه عندما تمطر فى بلادهم، فإن المطر صلب كالأحجار الصغيرة وأبيض وأكثر برودة من قاع بئر فى الشتاء".

كان نجومى يراقب صقرا يدور بشكل رائع عبر الهواء الساخن. كان يشعر بالحر والعطش، لا يستطيع أن يركز تفكيره فى موضوع البرد الشديد. مد ساقيه بكسل وأغمض عينيه. قام حليم بالشئ نفسه وحاول كلاهما النوم.

عندما بدأت الشمس تتوهج. حك حليم عينيه وجلس. شخص ما كان يسلخ كلبا فى مكان قريب. مس نجومى برفق ليوقظه. "يجب أن تكتب لترد على هذا السردار جرينفيل وتخبره أن يذهب لوطنه ولأمطاره".

أجاب نجومى وهو ما زال نصف نائم "قررت ذلك فعلا، ليس لدينا ما نفقده. إذا انتصرنا سنكسب أشياء عديدة، طعاما ومأوى وذخيرة. ولكن إذا انتصر هو فلن يحصل على شىء سوى هذه الجوبا القديمة ورمح مكسور".

فى هذا المساء استدعى نجومى كاتبه. ربت على كتف الصبى واستدار لصديقه. "أنت تعلم يا حليم حارسى الشخصى هجرنى، فر هاربا. حتى حامل الماء الخاص بى أخذ البغل وهرب ذات ليلة فلتفطر ابن آوى على عظامه. الوحيد الذى ما زال معى هو الكاتب الصبى".

عندما انتهى من الإملاء، انشق وجهه عن ابتسامة خشنة ولعق شفتيه الجافتين. "عندما ينتهى العالم كل ما يتبقى لدينا هو الكلمات على أيدى صبية كهذه". سأل الكاتب الصغير أن يقرأ الرسالة، بينما جلس يحملق فى الرمل عند قدميه، ذراعاه يلتفان بلطف حول ركبتيه وتوهج النار التى تومض فى الظلام يصنع حفرة فى عينيه.

قرأ الصبى: "نقول لكم إن الله أرسلنا فقط لندعو الناس والمسلمين. ما ذكرته عن كثرة جنودكم وقرب وصولكم لا يرعبنا، ولا يخفينا وليس هو المكان الذى يضم عالمى البشر والجن". من الظلام تسللت الوجوه تحتشد حول هذا الصبى البرئ الذى يعلو صوته الصغير غير المنتظم من الرسالة ويتحدث عن قلوبهم وشوقهم للعالم البعيد. فيما بعد التلال والنهر، بعد سفينة المدفعية والصحراء هناك رجال مثلهم ينتظرون ليسمعوا، ينتظرون ليعرفوا لا يودون أن يموتوا فى حالة من الشك. فيما بعد آثار الأقدام والنجوم، هناك الاستقامة والعدل والخير. كانوا يقفون صامتين فى الظلام مقيدين مثل زوج من الأيدى حول الصوت الضعيف الذى هو صوتهم. "لا نخاف شيئا إلا الله فى علاه. لن تنفعكم أى كمية من البودرة والطلقات دون مساعدته. ولهذا هلك جنرالاتكم هيكس وجوردون وجيوشهم، رغم عددهم. إنه أمر حتمى، إرادة الله".

عندما انتهى الصبى من القراءة وقف نجومى. نظر حول الوجوه المنعكسة فى ضوء النجوم الأزرق. بدأ قائلا: "أيها الناس إنهم يريدون أن ننسحب مع اتهامات بالجبن. يحاولون أن يطفئوا نور الإيمان بجهلهم". لوح بيده تجاه السهل الذى يمتد خلفهم منبسطا ومتواصلا نحو القمر. "هذه بلادكم. إنها بلاد آبائكم وأولادكم. الله معنا لأننا على حق. ما الله إن لم تكن الاستقامة؟ هل يستطيع أحد أن يخبرنى؟". لم يكن هناك أى صوت، لم يتحرك طفل واحد فى نومه، لم ترتفع يد أو يتنحنح حلق، يمسك الناس أنفاسهم وكأن سربا من الطيور يطير فوق رءوسهم. "هؤلاء الناس يريدون أن يأخذوا أرضكم، ويقولون إنها ملكهم.

إنهم يدعون الحق ليقوموا بذلك فقط لأن لديهم أسلحة أكبر وأفضل، لأنه في بلادهم التي لم نراها أبدا لديهم أموال وذهب ورجال، آلاف وآلاف من الرجال الذين سيحاربون من أجلهم. لديهم سفن محملة بالبنادق بينما لدينا بغال لها عظام حادة. جذب ذلك الضحك المكبوت وشعر نجومي أنه أيضا يبتسم. أخذ نفسا عميقا. "إنهم ينتظروننا ونحن سنذهب إليهم. سنذهب ونحن نعلم أن الله معنا لأنه بدون إيماننا ليس لدينا ما نواجه به الكفار. اعلموا إذن أن قلوبكم خيرة واذهبوا" صرفهم وذابوا بهدوء في سواد الليل. جلس نجومي على الأرض ولاحظ أن الصبي يحك عينيه ويتثاءب. مد يده وضربه وكأنها لعبة ولكن بحزم على ظهره. "عملك لم ينته بعد". وهكذا أعد الصبي دواته واختار ريشة بعناية وهو يرفعها في الضوء. ثم جلس القرفصاء وبسط ورقة وأومأ: إنه مستعد. أملاه نجومي رسالة إلى الخليفة في أم درمان. جلس بالقرب من الصبي وشفتاه تكادان أن تلمسا أذنه. على الأرض الصلبة بجانبهما، حليم ينام قلقا، يتقلب ويستدير ويئن. تثاءب الصبي وحك أذنه. وسأل: "هل هذا هو السطر الأخير؟".

كرر نجومي، "بالنسبة للمصريين فالتقارير التي تؤكد أنهم في أعماق قلوبهم تابعين للدين الحق ومؤمنين برسالة المهدي، غير صحيحة. لم يستقبلني أحد في أي مكان سوى ككلب منبوذ. كثير من الشيوخ يمكن أن يخوننا من أجل حفنة ذهب من الأتراك". الآن توقف. "مهمتنا هنا تحمل صعوبة مضاعفة وفرصنا تقل مع مرور الأيام. أكتب هذا لك لتعلم أن الإيمان في قلوبنا هو الذي يعطينا الشجاعة لنستمر. عبدك

المخلص ورفيقك، عبد الرحمن واد النجومى. أضاف الصبى التوقيع بزخرفة رغم تعبه، وهو الأمر الذى أضفى ابتسامة على وجه نجومى. "كم عمرك أيها الصبى؟ ولا تعبأ بالكذب علي. إن الأمر لن يضيف شيئا الآن".

مسح الصبى ريشته بدقة وأعادها إلى الكيس الجلدى. سد الدواة بسدادة وربطها بشريط جلدى. ثم وضع ريشته ودواة حبره فى الكيس الذى يستخدمه كوسادة عندما ينام والذى لا يفارق جنبه وهو مستيقظ. "أخبرتنى أمى أننى ولدت فى قمر شهر شعبان فى العام الهجرى ١٢٩٤ . رفع قماش كيس كتابته المتدلى ليظهر التاريخ المنقوش عليه." كتبت التاريخ لأى شخص يجده إذا قتلت "أومأ نجومى: أنت تكتب جيدا بالنسبة لعمرك". كان متعبا الآن، وأشار إلى الصبى بالانصراف. "اذهب ونم أيها الصبى، ينتظرنا يوم طويل". تمدد على الأرض وسحب الغطاء القطنى الرقيق عليه كملاءة. "ألديك سلاح أيها الصبى؟". غمغم وهو نصف نائم.

"بندقية والدى".

"حسنا فقط تذكر عندما تتوقف البندقية عن العمل أن الأتراك لم يعودوا يقتلون أسراهم لا تدع نفسك تقتل، إلا إذا كان ذلك حتميا".

"أفضل أن أموت شهيدا من أن استسلم للكفار".

"حسنا أيها الصبى. تثاءب نجومى:" أحيى شجاعتك. ولكن شخص ما يجب أن يخرج من هنا حيًا حتى يعرف العالم قصتنا. استدار على جانبه "فكر فى ذلك".

الإمدادات العسكرية التى تم إرسالها من أم درمان كانت مخيبة للآمال. كانوا ضعفاء بسبب نقص الغذاء الجيد والرحلة الطويلة البعيدة عن منازلهم جعلتهم غير أمناء. دهش نجومى عندما اكتشف أن الكثيرين منهم كانوا فى السجن فى أم درمان. سأل عبد الحليم: "لماذا يرسل الخليفة الشريف قتلة ومغتصبين؟ هل يفكر بشكل سامى فى شخصيتى؟".

"لا بد أنهم كل من تبقى لديه".

فى الأيام الثلاثة الأولى فقدوا رجلين فى نزاعات تافهة. "إذا استمروا هكذا لن نحتاج إلى أن نحارب العدو. سوف يقتل الرجال أحدهم الآخر هنا" زمجر نجومى عندما وصلته الأخبار.

بعد ستة عشر يوما تحركوا من بالوجا فى اتجاه توشكى. تجنبوا النهر. ما زالت سفن المدفعية تمثل تهديدا واعتاد الأتراك أن ينصبوا كمائن على الضفاف، فهم يكومون البلح ليجذبوا الجنود الجائعين ثم يطلقون النار عليهم بالمدافع أو يأسرونهم بينما هم مشغولون بالطعام.

المحنة أصبحت أشد وأشد. هناك قصص عن آباء هجروا أطفالهم على الطريق حيث لم يعودوا قادرين على حملهم أكثر من ذلك. ولأنهم كانوا قد أكلوا إبلهم ومعظم بغالهم وبعضهم حتى أكل عبيده. الرجال يختفون من المعسكر ليلا تاركين خلفهم زوجاتهم وأطفالهم الرضع.

وصلوا السهل فى توشكى وكان العدو ينتظرهم. سدت الأفق سحب التراب حيث الفرسان يهاجمون. برعوس خفيفة بسبب نقص الطعام،

رأوا الدراويش يرقصون فى الريح بينما سقطت رماح العدو لتقسمهم إلى نصفين. جرت النساء وهن يصرخن، زحف الأطفال تحت حوافر الخيول المهاجمة. تبعثر الأنصار مع الريح مثل حفنة تراب. أطلقت النار على جواد نجومى من أسفل وجرح فى كتفه. استطاع أن يسحب الرجال إلى الخلف ومجموعة صغيرة منهم وصلت إلى الأمان على أرض مرتفعة. رقدوا هناك يحملقون فى الجثث المبعثرة لأصدقائهم وأسرهم. يشد النسيم ملابس الموتى وكأن أطفالا غير مرئيين يحاولون أن يوقظوهم من النوم.

صوت نحيبهم تحمله الرياح. استدار نجومى وأغلق عينيه فى مواجهة الشمس. بجانبه يرقد عبد الحليم وهو يلهث. لديهم بنادق وذخيرة حربية. قال: أحد الرجال: "إذا أتوا سيكون الله مستعداً لقبض أرواحهم"، فى اللحظة التالية ألقى على ظهره ونصف رأسه منفجراً؛ بسبب قذيفة طائرة ليكشف عن الجزء الأحمر الذى يرشح من مخه. الذباب يطن أسود متكاثر، ذباب الصحراء العنيف.

ذقن نجومى الدقيق يتناثر عليه الغبار الأحمر وكان هناك ألم فظيع فى صدره. "عبد الحليم" همس "يبدو لى أنه بما أننا لسنا فى وضع يمكننا من التراجع يجب أن ننتظر حتى يحل الظلام لننفذ هجمتنا الأخيرة على مصر".

ابتسم عبد الحليم بأفضل شكل استطاعه. "أعتقد أننا فى الحقيقة فى مصر ولهذا يا سيدى لا بد وأننا قمنا بغزوها".

"إذن فنحن محررون" ضحك نجومى. وهز إبهامه خلف كتفه فى اتجاه خطوط العدو. "من سيذهب ويخبرهم؟".

الهجمة الثانية جاءت مبكرا بعد الظهيرة. نجومى، على ركبتيه أطلق بندقيته على الجهادية التى تتقدم، تلقى طلقة فى صدره. اخترقته الطلقة مباشرة وارتطمت بصخرة سوداء تبرز من الرمال. ارتدت القذيفة إلى أعلى مع صوت نحيب فظيع. ملأت الدموع عينى حليم. وقال: "إنها روحه تصعد إلى السماء".

التقطوا الجسد المكسور وربطوا معصميه بحبل شديد جاف وربطوه على ظهر جمل نصف ميت ووثقوه بقوة، وهم يرسلون بطلهم الصريع فى رحلته الأخيرة إلى أرض الوطن.

٢٧- أم درمان

١٨٩٠

بينما يسرع عبر الشوارع المظلمة، غمغم حاوى لنفسه، رأسه يملؤها الحديث الغاضب الذى استمع إليه هذا المساء. المؤامرات تدبر وحبائل الحيل يتم تشكيلها. الناس يبزغون من الظلال. الرجال أنفسهم الذين تعهدوا بالولاء للخليفة الآن يشقون طريقهم إلى القمة. بعضهم لديهم شكاوى حقيقية، أشار آخرون بحسد إلى الطريقة التى يفضل بها الخليفة أهله على الآخرين جميعا. داخل معسكر الخليفة ذاته، لا تسير الأمور بسلام. الرسل الذين تم إرسالهم إلى الغرب إلى تاعيشا فى دارفور بوعود بطريق آمن إلى العاصمة قتلوا. أهل الخليفة أنفسهم ينقلبون ضده، قال: التجار: "والده راع مجنون لديه رؤى هل هذا يمثل أى أساس للدولة الإسلامية؟".

الاجتماع السرى الذى يعود منه الآن حاوى حضره أكثر من خمسة عشر وجيها. كثير من الذين كانوا يجلسون فى مجلس الدولة نهارا، يبتسمون ويوافقون على ما يقوله الخليفة، تجمعوا ليلا حول الأشراف الذين فقدوا الكثير من مكانتهم بعد موت المهدى. سحبت منهم ألقابهم ومحمد شريف قائدهم غير الصبور، الذى عينه المهدى أحد الخلفاء الأصليين يعيش الآن فى فقر. إذا كانت الشائعات حقيقية يمكن

أن تقوم ثورة في أي يوم. يتم استهلاك الموارد بشكل زائد بسبب مشكلة في الشرق مع الإثيوبيين واضطراب في المراكز الغربية.

الشوارع يغمرها اللاجئون. الذين اضطروا لترك منازلهم لمواجهة الموت جوعا، اندفعوا أفواجا من الأقاليم نحو العاصمة؛ بحثا عن العمل والطعام. ولكن لا يوجد ما يكفي، ولذلك يعيشون في الشوارع، يبحثون عن الطعام بقدر استطاعتهم. يطرقون بابا تلو الآخر، وهم يحملون سلاطينهم.

لعن حاوي غباءه حيث تم تأخيره مدة طويلة بعد هبوط الليل. إنه أمر احترس منه في مواقف عديدة؛ سحب اللفاع حول وجهه وسار بخطوة ثابتة، لا يستطيع أن يجري بكل قوته كما كان في الماضي. استدار عند أحد الجوانب؛ ليقترب من مجموعة من الناس تجمعت مثل حشد من الغربان على الأرض. أبطأ خطوته محاولا أن يفكر في طريق آخر، ولكنه كان متعبا، وأي التفاف سيؤدي إلى مشي أكثر. تقدم بحذر، خفاه يضربان بخفة أخمص قدميه. لم يكن يحمل أية أسلحة ولا حتى خنجر في جيب جوبته. وبينما هو يقترب لاحظه المتجمعون. أوقفوا ما يقومون به. استمر حاوي في السير. ثم دون كلمة، تفرقوا جميعا، وهم يجرون ويقفزون، يفرون على ظلال الحوائط. على الأرض ترقد جثة البغل المشوهة والمتعفنة. لا بد وأنه قد مات منذ عدة أيام. فالرائحة فظيعة. لقد قلبت معدة حاوي، واندفع محاولا ألا يتقيأ على ملابسه. سوف يموتون بالتأكيد من أكل لحم كهذا. سار المسافة الباقية بسرعة وضرب قلقا على الباب حتى يدخله الخادم. ذهب حاوي في اليوم التالي باحثا عن

القاضى ليقدم خدماته. لم يجرؤ الرجل أن يرفضـه، ولذلك بدءا من هذا اليوم كـان حـاوى يذهب لمكاتب الحكومـة بالقرب من المجمـع المركزى. أعطوه حجرة وسجادة للأرض وصندوقا مغطى بجلد الغنم ليجلس هنا كل يوم يسمع قصصا عن الضياع والآلام، عن البؤس واليأس. كل يوم يقول لنفسـه: "يجب أن أحاول المساعدة" يصر على أسنانه ويغلق عينيه وهو يعيد هذه الكلمات لنفسه: يجب أن أحاول.

ليس لديهم شىء. ينامـون فى الشـوارع التى يسكنهـا آكلو لحم البشر والكلاب المفترسة، بأذن تستـمع لنداءات التحذير: أن المجانين قـادمـون "جاياكم!"يصرخـون إنهم قـادمـون إليكم. يلتقطون أطفـالهم ويطيرون. فى الصباحات يأتون إلى مكتب الحكومة ليجلسوا فى صف يلى صفـًا فى الشمس وينتظرون دورهم رأوا الأنصار الصغار، شبابا صغارا جدا على أن يتذكروا شايكان. هذه الطواويس تتبختر فى ريشها الجميل، سادة العهد الجديد. أصبح الشباب يوثق بهم بدلا من الكبار لأن الشباب يعرفون فقط ما تقوله لهم، بينما الكبار يتذكرون ومن يتذكر يستطيع المعارضة.

يوما ما ماتت سيدة أمام حاوى. كانت امرأة من الزغاوة، زوجها جندى لدى الأتراك ولكنه انضم إلى قوات المؤمنين المسلحة عندما سقط حصن بارة وأرسل يستدعيها بعد الحرب، لم تستطع أن تجده. وسافرت عامين حتى تصل إلى هنا. اغتصبتها عصابة من قطاع الطرق، واحد وثلاثون رجلاً، لقد عدتهم. سبحت فى النهر وابتلع التيار طفلها. الآن لم يعد لديها شئ فى العالم سوى زوجها. أشار حاوى إلى الكاتب. أن يدون

اسمها والقرية التي جاءت منها وأن يضمن أن تعطى معاش أرملة جندي. ولكن لم يكن للأمر أهمية، إذ بينما تحاول الوصول لكوب ماء تشربه سقطت المرأة على الأرض مثل حزمة من العظام في كيس. نظر الحراس وحاوي والكاتب بعضهم إلى بعض. أخيرا أشار حاوي بيده إلى الحارس الواقف عند الباب. " تأكد لو..." ركع الحارس إلى جانبها، ولكن لم يكن هناك دليل على الحياة. "انظر كيف تنسل الحياة بسهولة خارجة من الباب" فكر حاوي "حركتها أقل اضطرابا من حركة عصفور".

هذا الصباح، كعادته الآن، شق حاوي طريقه كالعادة لمجمع الخليفة، مركز القيادة للحكومة ومكان يعده الناس الآن ضريحا مقدسا. كان عليه أن يكافح ليشق طريقه متقدما عبر ضغط الأجساد على البوابة. الرضع المنتحبون يتم حملهم في اتجاهه. "خذ طفلي" تصرخ المرأة "خذ طفلي فربما يعيش". يدفع الحراس الناس إلى الخلف بشدة والكرباج الطويل يسعى كالحية.

"لا تفعل ذلك" ينوح حاوي ولكن الجنود الشباب يسخرون من الرجل العجوز.

عندما دخل، عبر حاوي إلى الفناء الداخلي حيث توفر راكوبا بعض الظل لهؤلاء الذين وصلوا إلى المقدمة.

سمعت صرخات بينما يتم سحب رجل من الحجرة. كان الكاتب وهو شاحب ذو علامة على رأسه، يتعامل مع الأمر. لقد تم القبض على ابن الرجل وهو يسرق، كان سيعاقب بقطع يده. لا توجد فرصة للاستئناف، أوضح الكاتب، غير متأثر بنحيب الأب على ولده. القوانين

واضحة جدا جلس حاوى خلف المنضدة. المصرى، الذى ورث من حكومة الخليفة، كان موظفا بالفطرة، يعمل بطريقة هادئة دون تسرع وبجو يعكس دائما الاحتقار. حاوى يكرهه ولكن لا يستطيع العمل بدونه.

أدخلت أول حالة، رجل ذو وجه مربع كبير يعكس وجهه بساطة التفكير.

خاطبه الكاتب بسرعة "ما مشكلتك؟".

لمح الرجل عبر كتفه. أوضح "هذه سندات ملكية أرض" .

مد حاوى يده. "هل يمكن أن أراهم".

الأوراق ملوثة بالدهن وهشة. تمزقت الأوراق المطوية وهو ينشرها. كان الحبر باهتا. سأله "أين أرضك؟".

"جلابات" الرجل الذى يقف وكتفاه محنيان، يحدق من تحت حواجب كبيرة. "مشيت الطريق الطويل من هناك إلى هنا. مات بغلى. اخذوا جيادى. أخذوا زوجتى وأطفالى". "قالوا: إن الأرض سيشغلها الجيش والغذاء بمتاجرى سيقدم كطعام للجنود".

"هناك حرب يتم خوضها فى هذه الأقاليم" قال: الكاتب بإصرار وهو يذكرهم: "كن سعيدا أنك نلت شرف المساهمة فى الكفاح. هذا جهاد". كان على وشك أن يرفض الرجل وقضيته، ولكن حاوى رفع يده. قال: "انتظر". وقف ونظر إلى العيون الزجاجية للمصرى. "ألا يمكن أن نساعده؟".

لم يقل المصرى شيئا. وظل وجهه لا يتحرك. استدار حاوى إلى الرجل. "قلت: إن الجنود أخذوا أرضك؟ أومأ الرجل مرة واحدة. عيناه الحزينتان تتبعان حاوى حول الحجرة حتى توقف واستدار موجها حديثه إليه. قال: "اذهب إلى بيتك. لن يمكث الجيش طويلا وسوف تسترد أرضك قريبا". اقترب. تحرك فكى الرجل الضخم ولكن لم يخرج أى صوت، لف القلنسوة الصغيرة من فوق رأسه بين يديه. نظر إلى حاوى ملتمسا ولكن حاوى لم يكن لديه شىء يقدمه. قال: حاوى أخيرا: "عد إلى بيتك. الله كريم ليس لدينا هنا معجزات اليوم".

بعد ذلك مباشرة سقط حاوى مريضا بالحمى. ظل عشرة أيام بلياليهم معلقا بين الحياة والموت. جسده يؤلمه والعرق يتصبب منه. ينقع الخادم ملاءات فى الماء ويغطيه بها ليبرد جسده، ولكنه لا يكاد يشعر بالتغير. بعث الخليفة برسول ليظل مع حاوى ويخبره إذا مات. استدعوا كل من يمكن أن يساعد، الأطباء والعلماء اندفعوا إلى جانبه؛ لأن الأمر جاء من بيت الخليفة. تمت تجربة كل علاج. حملوا البخور تحت وجهه وطلبوا منه استنشاقه، احرقوا أوراقا مكتوبة من القرآن، تركوا صبيا ليقرأ آيات من القرآن نهارا وليلا بجانبه.

قال حاوى لاهثا: "إذا لم يقتلنى المرض، العلاج بالتأكيد سيقوم بالمهمة. إذا كانت إرادة الله فسوف أذهب". سقط إلى الخلف حيث هاجمته نوبات جديدة من الآلام. فى صباح اليوم الحادى عشر بدأ يسعل ويغمغم. التف وبدأ يتقيأ. شئ يتلوى فى حلقه وصل إليه، قذف إلى الخارج بدودة طويلة رمادية اللون. جرى الخادم فى دوائر وكأن جنا

أمسك به، يصرخ ويعول بصوت عال لدرجة أن الجيران وصلوا ليواسوا أهل البيت ظنا منهم أن سيده قد توفى. نظروا إلى الدودة المستقرة فى بركة القئ على الأرض وأومأوا برءوسهم. قالوا: "إن المدينة بأكملها ملعونة". "الماء تسمم، ضفة النهر تفترش بأجساد متعفنة ترقد موتى كالسحالى تحت الشمس. المدينة يملؤها المجانين الذين يأكلون أطفالهم".

وصل زائر فى إحدى الليالى بعد شهور، شخص أشعث وغير مهندم ومنهك وقد بدا غريبا فى البداية. أدخله الخادم بجو من الإنذار لدرجة أن حاوى تساءل ما المشكلة. ثم تعرف على الشيخ عباس. استغرق الأمر دقيقة ليفيق من رؤية عباس فى هذه الحالة. نجح الشيخ فى أن يبتسم ابتسامة ضعيفة. "عندما جئت إلي منذ سنوات طويلة ظننتك شحاذا عن طريق الخطأ. ولكن الآن أومأ إلى ملابسه، "انظر إلي". أوضح أنه تم القبض عليه بسبب جداله مع وجيه من أهل البلد، شفته ترتعش وهو يتحدث.

"ماذا، هل هذه أسرتك؟" جلس حاوى ومد يده.

هز عباس رأسه نافيا "أسوأ من ذلك. قالوا: إن كل الأعمال المكتوبة ما عدا مختارات من أقوال المهدى الحكيمة" هزة رأس وهو يذكر ذلك " مواد هدامة. منعتهم من دخول مكتبتى ولهذا أحرقوها".

قال حاوى مشدوها: "ماذا؟".

"لقد ذهب كل شىء" غمغم الرجل العجوز. رفع عينيه المحتقنة بالدم نحو صديقه. "نحن نعيش فى عصر تعد فيه القدرة على القراءة جريمة،

تستحق عقوبة الموت. يا بنى كلنا فى خطر داهم". فض خرز السبحة من معصمه وبدأ يديره حول أصابعه وقال:" يقولون: إن الحصار هو الذى يجوعنا حتى الموت". أدار وجهه إلى حاوى. "كيف يمنعون الناس من التجارة معنا؟ لا بد أن هؤلاء الفرنجة لديهم حكام أقوياء".

"لديهم أموال وبنادق" غمغم حاوى "هذه الأيام تحمل هذه الأشياء القوة نفسها".

"سمعت أنه يتم القبض على عدد أكبر".

ألقى حاوى نظرة عجلى جانبه. " قبض عليهم لماذا؟". هز عباس كتفيه استهجانا ولم يحول عينيه أبدا عن حاوى. "حديث غير دقيق جدا. فالناس يغضبون من شيء ويوما ما يتحدثون كثيرا جدا وشخص آخر يجرى فى الخفاء بعيدا ليلا الأمر التالى أن الرجل ذا اللسان الثرثار يستلقى فى السجن".

سأل حاوى بهدوء: "من؟، من يختفى؟". "كل شخص" كل أنواع الناس: حاملو برقيات، موظفون، مدرسون، شيوخ من الأقاليم، خبازون، رعاة ماشية، عمال السفن. نساء أيضا" خفض صوته. "هناك جواسيس فى كل مكان. إنه يخشى المؤامرة. مال إلى الأمام. "ولهذا جئت إليك. أنت قريب منه. والناس تغار. يجب أن تكون حذرا، يا بنى، لأن الكلاب جائعة".

٢٨- أم درمان

يوليو ١٨٩٤

"أنا محاط بأطفال كلاب وسيدات مقعدات" صرخ الخليفة عبد الله وهو يدفع ببذرة تمرة ضربت بقوة إبريقا من النحاس فى ركن الحجرة وارتدت إلى أعلى لتختفى بين الرافدات الخشبية المتربة للحجرة ذات السقف المرتفع. جرى الأطفال والخدم بعيدا ونزلوا السلالم، طار الحمام بسرعة وهو يرفرف بعصبية إلى أعلى الأسطح المشمسة.

وقف حاوى فى وسط السجادة الفارسية (التى أخذت كغنيمة من القصر بالخرطوم) ولم يقل شيئا، ليس متأكدا من سبب استدعائه. لم يعره الخليفة اهتماما. حالاته المزاجية السيئة أصبحت تتكرر بشكل أكبر. جانب شخصيته المندفع له اليد العليا. انشغل فى لحن حزين طويل النفس، يندب الهزائم الأخيرة فى الشرق وفقدان مدنه القيمة. "فى البداية هذا الأحمق ديجنا خسر توكار. ثم حليمة"، لوى شفتيه عندما ذكر لقب السخرية من مساعد قويدام، الجبانى قائد الجيش فى الشرق "ذهب وهرب".

ظل حاوى صامتا.

"لماذا" زأر عبد الله" هل أنا محاط بالحمقى؟".

وفكر حـاوى مع نفـســه؛ لأن هؤلاء الذين يمكن الوثوق بهم كـانوا أمناء، وهذا يجعلهم عرضـة للانتقـاد. الأقوياء، الشجعان، مثل نجومى، كنت تعدهم خطرا والآن ذهبوا. هذا عصر المتملقين. مسح الخليفة رأسه الحليقة بقطعة من القماش وجلس على كرسى كبير من الأبنوس له أذرع ومحفور على رجليه وذراعيه قدمى الأسد. أشار إلى حاوى ليجلس على أريكة خشبية فى مواجهته. ماذا؟ سأله بعد لحظة، "هل فكرت فى ركوبى الجـواد فى ذلك اليـوم؟" ضـرب حـاوى فى ذراعـه فى مـحـاولة للمـرح "ساحرة، ألا تعتقد ذلك؟".

فى اليوم الذى وصلت فيه الأخبار أن الإيطاليين هاجموا وأخذوا كسـالا، ركب حصانه بكل شرائط حربه وتروسه ثم ركب جواده وسيفه فى يده حتى النهر تحوطه مجموعة من الحراس الشخصيين والعبيد والخـدم يلوحـون بالبنادق التى لا يعرفـون كـيف يسـتـخـدمـونهـا وهم يصـرخـون ويهـتـفـون وينفـخـون البـوق ويضـربون الطبـول. ركب جـواده مباشـرة إلى داخل الماء وخمن أولا أن أهل البلد يتبعونه. ثم رفع سيفه عاليا وأعلن" الله أكبر من الإيطاليين!" وكان هناك تهليل عظيم كجواب.

حـاول حـاوى الآن أن يفكر فى شىء ليقـوله. "على أى حـال لقـد حققت التأثير المطلوب".

بصق الخليفة على الأرض فى احتقار. "حاوى، أنت تضايقنى عندما تتـحـدث بإيجـاز هكذا. هل أنا امـرأة تعـولهـا؟ قل لى مـا تعـتـقـده وإلا أخصيتك. ولا حتى هذا سيفرق بالنسبة لك" قال: مختصرا وهو يلمح إلى رفض حاوى أن يتخذ زوجة من الإماء الكثيرة اللاتى أرسلهن إليه. أخذ

الخليفة الممتلئ الجسم يذرع الحجرة جيئة وذهابا. وهو يستعد ليناقش ما فى ذهنه. "يتجمع الإيطاليون فى الشرق والبريطانيون يستقرون فى مصر" هز رأسه بأسف. "ماذا أفعل؟" سحب سيفا كبيرا من قراب معلق على الحائط، ولكز بطريقة خرقاء كومة أعلام غير مألوفة على الأرض. "البلجيكيون!" طعن "هم على بعد أربعة أيام".من السير من حفرة النحاس. هذه الأعلام أرسلها عربى دافالاح Arabi Dafallah. يقول: إن البريطانيين والبلجيكيين يتحاربون عند مستنقعات خط الاستواء". اهتز الفخذان الثقيلان بالمرح. "هل تتصور؟ هؤلاء الكفرة يحاربون بعضهم بعضا من أجل أرضنا". لوح بشفرة السيف بشكل مستدير. "فليعجل الله طريقهم إلى النار".

فكر حاوى فى الأمر. "هل تتوقع أن يعود الإنجليز". "حتى الإنجليز لا يمكن أن يستقروا فى القاهرة ويلمعوا أحذيتهم فيها إلى الأبد".

ذهب عبد الله ليقف عند النافذة وهو يزن السيف فى يده. "لا تبدو نهاية لرغبتهم فى أن يستولوا على أرض ليست ملكهم". استدار إلى حاوى بنظرة متحيرة على وجهه. "هل تعلم أننى كتبت لملكتهم لأخبرها عن رسالتنا" نظر بخيبة أمل. "لقد أخبرتها عن المهدى والرؤى وخيانة الإيمان الحقيقى، عن الفساد والقمع اللذين عانيناهما فى هذه البلاد".

فحص شفرة سيفه بدقة، وألقاه بعيدا. "المنافقون! إنهم لا يهتمون سوى بالاستعباد. لم أسمع عن تركى ليس لديه عشرون عبدا له وحده". •

تنحنح حاوى وسأل بحذر: "ماذا، سيحدث إذا عادوا؟".

"الإنجليز؟" رفع الخليفة حاجبيه فى بعض الشك واستبعد التهديد. "أنا أهتم أكثر بأمر الإيطاليين سأرسل خطا جديدا من الإمدادات العسكرية إلى عطبرة ليدعم حليمة. الله وحده يعلم ماذا يعتقد الإيطاليون أنهم يفعلون هناك".

فجأة جلس بتثاقل ومسح وجهه بيده. "لقد تعبت من هذه الحرب" تنهد "لا أحد من جنرالاتى ينفذ أمرا دون جدال. يتعاركون بعضهم مع بعض طوال الوقت بدلا من مواجهة العدو. استمع لأصواتهم"، واصل وهو يهمس. "أنتظر الرؤى لتقودنى، مثلما كانت تفعل فى الأيام الأولى". وقف وحك بطنه، محملقا فى قدميه بالطريقة نفسها التى قد يحملق بها فى بئر جافة. " أحببته كأخ. عندما التقينا، كأن كلاً منَّا تائه فى طريقه، غير قادر أن يجد طريقا يشقه وحده. ولكن معا كنا لا نغلب. سرنا فى شهر رمضان، عبر المطر من أبا إلى جبل جدير. كنت إلى جانبه. كل مكان نذهب إليه يأخذ الناس أيدينا ويعانقوننا. يسقطون عند أقدامنا يتوسلون إلينا أن نأخذهم معنا. لم يكن لدينا شيء، لا طعام ولا ملابس، ولا مال فقط قليل من بنادق أو ستريتش قديمة. صوته يضعف تدريجيا. من بعيد يستطيع حاوى أن يسمع صوت باخرة يدمدم عبر النهر. "لم يكن من المتوقع أن يموت، ليس مبكرا هكذا" سقطت ذراعى الخليفة منهكة على جانبيه وهز رأسه. "ليس مبكرا هكذا".

بينما خرج حاوى من الحجرة بسلاسة كانت يداه ترتجفان. نزل السلالم وعبر من ظل المنزل إلى الضوء القوى الذى يملأ الفناء. سمع أصوات النساء يتشاجرن فى مكان ما، بعض من الدجاجات تنقر فى الأرض الجافة. فتح الحراس البوابة ليدعوه يخرج وعبر وهو يتنهد مستريحا إلى الشوارع حيث يسير الناس.

الجزء الخامس

الردة

٢٩- القاهرة

١٨٩٦

الشموع تومض فى آنيتها الزجاجية الزرقاء وبدا أن الحجرة ترتجف. الساعات الأولى من صباح الثالث عشر من مارس ١٨٩٦، الفرقة الموسيقية تعزف طوال الليل معزوفة أصبحت شعبية بفضل رجل اسمه بلال عبد التواب يعرف باسم ساحر النوبة. لا أحد فى نادى أنوبيس تعرف على الأغنية إلا النادلين الذين يمرون بين المناضد وهم يطرقعون أصابعهم حماسة مع الأغنية الساحرة والموحية. ضباط القوات المسلحة لجلالة الملكة سكارى. الخلفية الموسيقية جزء من غطاء غامض هبط عليهم منذ وصولهم. إنه غزو نشيط: إنهم هنا باسم الله والاستقامة. فى وسط الحجرة تجلس مجموعة كبيرة سوقية تطغى على الأحداث. الملحقون البلجيكيون فى السفارة تركوا المكان سريعا مع زوجاتهم الرزينات اللاتى يرتدين الجلد، وهم يغمغمون مضجرين عن مؤامرات فى منطقة خط الاستواء، ويعلقون على الطبيعة الوحشية لأبناء عمومتهم عبر مجرى النهر. فى الجانب البعيد من الحجرة، المالك القبطى، شعره ينسدل إلى الخلف على هيئة قبة ملساء، يمتص بعمق من الشيشة التى تخرج منها الفقاقيع ويوجه حملقته الغاضبة إلى المجموعة الآثمة.

في وسط مجموعة الرجال السوقيين، رائد شاب قبل الأوان، تحيطه مجموعة من الشباب الخياليين يسليهم بقصص التظاهر بالشجاعة وسيفقدون وقارهم حالا ويعوون ضد التيار مثل كلاب الدموم المسعورة.

في أحد عشر عاما تغير الرائد هاميلتون قليلا في المظهر الخارجي. اكتست وجنتاه أكثر باللحم، ربما ثنيات أعمق تحت العينين، وعدد من الشعر الأشيب. لقد بلغ ستة وثلاثين عاما ولكنه غير مستعد تماما ليعترف بالهزيمة بعد. فهو أيضا لديه رسالة.

"إستراتيجية جوردون كانت بعيدة عن الهدف". شخص ما ينهق. إلزورث يتثاءب، ثمل من البراندي. الأصوات تضايق أذنيه.

"هدوء" جرس آخر يقرع. "عندما ذهب ولسلى إلى هناك، كان يجب أن يشنوا هجوما كاملا على الخرطوم ويردوا همج الصحراء على أعقابهم".

تذمر إلزورث وهو يقوم فجأة وقال: "نسيتم". فاستدارت إليه كل الأعين وتمنى ألا يكون قد فتح فمه. طرفت عيناه ولعق شفتيه. "خطوط الاتصال.. قطعت". دارت عيناه حول الوجوه الشابة يبدون بالشكل الذى كان يجب أن يبدو هو عليه. وأضاف: "لا دعم سياسى من الوايت هول". أومأ الراقصون بعضهم إلى بعض. "حسنا لقد كان طائرا غريبا فعلا" علق أحدهم. بدا الآخرون موافقون على رأيه. أحدهم بدأ يقهقه.

"وحدى" قبضة إلزورث تحطم المنضدة، وهى تجعل الأكواب والنادلين يقفزون. حدق بعينين نصف مغلقتين فى لهب الشمعة. "هجروه. تركوه وحيدا. وحيدا تماما".

تطوع هاميلتون إلزورث لهذه الوظيفة، رغم أنه لن يستطيع إذا سأل أن يوضح سبب ذلك بالضبط. حضر يوما منذ ثمانية شهور وبدأ يتسكع عند ضباط الأركان، ويزعجهم من أجل أن يعود إلى العمل. كل هذه السنوات وقليلون هم من يتذكرونه. كان يقطن فى مساكن رخيصة كريهة بالقرب من السوق. عندما سألوه لماذا يريد أن يعود فى هذه المرحلة من الحياة، قال بأمانة تامة: إنه ليس لديه شىء أفضل يقوم به.

بدأ يحلم بالنهر رغم أنه لم يحاول أن يوضح هذا للضابط المسئول عن التجنيد. لا يستطيعون أن يرفضوا رجلا لديه هذه الخبرة، ضبطوا درجته ومرتبه بحسب سنه ثم واصلوا تجنبه. قال بعضهم: إنه عاش طويلا فى الأحياء الفقيرة وأصبح من أهل البلد. همس آخرون، زوجته أصيبت بالجنون، وبالتالى هجرها. أصبح أصدقاؤه الضباط الأصغر، فهم شباب أكثر شغفا وأقل إدراكا.

فى الصباح التالى لجلسة الشرب فى النادى، استدعى القائد إلزورث لاجتماع عاجل لضباط الأركان. كانت الصالة مزدحمة؛ لأن الدعوة لهذا الاجتماع متوقعة منذ فترة. بعد الإجراءات الشكلية المعتادة أعلن أنه فى الساعة الثالثة من صباح اليوم السابق (تقريبا الوقت نفسه الذى كان فيه إلزورث يتقيأ فى درب بالقرب من المسجد الحسينى)، السردار لواء كيتشنر تلقى الأوامر التى كان ينتظرها. وصلت برقية من لندن تجيز التقدم إلى منطقة دنقلة التى تقع تحت سلطة المهدى البعيدة عند أكاشا، ومن المحتمل أنهم سيواصلون إلى الخرطوم. كان هناك تهليل ولكن إلزورث لم يتأثر.

إذن سيتم الانتقام لجوردون. منذ سنوات قليلة تذكر، كان سيبتلع ذلك. ولكن الآن يشك في الأسباب الخفية.

تأكدت شكوكه عندما، وكأنه يقرأ ما يفكر فيه، خطا كولونيل ونجت القصير القوى إلى الأمام. رفع ذقنه. "أيها السادة نعتقد أن المهديين عقدوا معاهدة فظيعة مع الملك الإثيوبى مينيلك. النيات واضحة - تحرير البلاد من كل المسيحيين". خفض صوته. "الإيطاليون يأخذون طعنات كثيرة من الدراويش ونحن نرغب أن نقلل بعض هذا الضغط بالتحرك عبر النهر إلى منطقة دنقلة". أشار إلى خريطة موضوعة على حامل إلى جانبه. "إن الإيطاليين يطلبون مساعدتنا منذ فترة وقد أنجزوا عملا مهما بتأسيسهم مواقع في إريتريا. الآن استولوا على كسالا لنا وأعتقد أنه يجب أن نعطيهم شيئا في المقابل". حملق نحو كيتشنر، الذى يقف ووجهه متحجر التعبير، وعيناه كالصينى المصقول يستمع لضابط استخباراته وهو ينفذ الأمر. مسد ونجت شاربه واستغرق ثانية ليفكر في موضعه، قرر أن يقوم بانسحاب تكتيكى. "تقاريرنا تقول: إن قوات الخليفة متناثرة، تواصل ضعيف، وروح معنوية منخفضة".

فى هذه المرحلة أعطى المنصة لكيتشنر، وهو الذى كانت رسالته قصيرة ومباشرة. "لا تقللوا أبدا من قوة هؤلاء المتعصبين" خفض صوته. "من منكم رأوا عمليات فى المناطق الجنوبية سيعرفون، ولكن كثيرا منكم جدد ويمكننى فقط أن أكرر ما قيل من قبل. الدرويش العادى مخادع مثل ثعبان زيتى وله قدرة مميتة مضاعفة. لقد كان الجنود يفقدون حياتهم عندما يذهبون لمساعدة زميل جريح. فالدراويش يمكنهم أن يختفوا تحت أصغر حجر وهم رشيقون كالقرود".

"مدفونون فى الرمال ونشيطون عندما يعودون إلى الحياة، وعادة ما يكونون سميكى الجلود عندما يموتون" أتى صوت من الخلف ليقابل بموجة من الضحك الخفيف.

صمت كيتشنر دقيقة قبل أن يجيب "خبير رسائل. حسنا السيد كيبلينج Kipling قد يريحكم بعض الشئ ولكن لن أحاول أن أقتبس كلامه لأهل البلد". من طرف عينيه رأى شيئا كابتسامة متكلفة على شفتى ونجت؛ خداع ضوئى، ربما؟ أدرك إلزورث حقيقة كل ذلك. الإيطاليون ينهزمون فى المعركة. لقد خسروا أدوا Adowa أمام الإثيوبيين، وإذا لم يرفع عنهم هذا الضغط، سوف يفقدون كل شيء. ليس للأمر إذن علاقة بجوردون إنه يتعلق بالأرض. اقترب من النافذة ليسمح للنسيم الذى يهب من النهر بأن ينعشه. حينئذ، وكأنه من مسافة بعيدة، سمع صوتا ينادى اسمه. استدار من النافذة ليجد أن الحجرة بأكمها تحملق فيه.

"رائد إلزورث؟" نادى ونجت .Wingate "ربما تود أن تضيف شيئا إلى ما قيل؟".

"ماذا؟".

ابتسم ونجت مشجعا. "باعتبار أنك من القلة المحظوظين الذين غامروا بالدخول فى منطقة المهدى وعادوا سالمين".

ذهن إلزورث مرتبك. تبين ملاحظة ساخرة فى الجملة الأخيرة، وتعلقت أفكاره بهذا الأمر وتشوشت.

هل يضحكون عليه؟

"أيها الرائد؟".

بدأ الحاضرون يلكزون بعضهم بعضا ويميلون ويتهامسون. هز رأسه ليحرر ذهنه. "أنا..." بدأ. حاول أن يبتسم، ولكن النتيجة كانت كما يعرف فظيعة. "إن..." همهم محاولا أن يحرر الكلمات من عقدة ذهنه. "لا شيء".

انصرفوا وتنهد تنهيدة راحة. وبينما صوت ضابط آخر يسرد بطرقة رتيبة اللوجيستيات إلخ، شعر بعينى كيتشنر عليه.

فى هذه الليلة جلس فى ركنه المعتاد فى نادى أنوبيس.. المكان شبه خال وبه جو هادئ وكأنه مكان مهجور. كان مستغرقا فى تناول زجاجة البراندى ووصل إلى مرحلة الشعور بالخفة عندما تخيل أنه يمكن أن يقود وحده القوة بأكملها عبر مجرى النهر ويستعيد الخرطوم دون أكثر من حفنة من الخسائر البشرية من الجانب المصرى، أوقظ من حلم اليقظة بوصول اثنين من زملائه برتبة ملازم أول لمنضدته. من خلال تحياتهم المألوفة ومزاحهم دون توقير قرر أنه لا بد وأن يكون قد التقى بهم من قبل. جلسوا دون أن يطلب منهم وبدءوا فورا ينادون بأسلوب فج النادل الذى كان نائما على كرسى عند البار. لم يكن إلزورث فى حالة تسمح له بالتسلية. لاحظ أن جو النادى تحول بوصول الأجنبيين صاحبى الصوتين الصاخبين. أعضاء الفرقة الموسيقية التى كانت تغفل، بدءوا يتحركون على مقاعدهم والمالك، بطريقة وقحة، يركلهم ويطلب منهم أن يقوموا بالمهمة التى يدفع لهم من أجلها.

هدأ الجنديان إلى حد ما عندما وصل البراندى، رغم أنهما ضايقا النادل عندما أطلقا مزحة خاصة عليه. رأى إلزورث المالك ينظر إليهم من الركن. مال إلى الأمام. "استمعوا يا رجال" بدأ، وهو يدرك فقط إلى أى مدى هو ثمل فى اللحظة التى فتح فيها فمه ليتحدث. "لقد رأيت الناس يتم طعنهم عند عودتهم إلى المنزل من هذا المكان لأنهم ضايقوا شخصا أو آخر".

"أول قرد دموى يحاول أن يفعل ذلك معى ستأتيه العقوبة" أجاب أحدهم وهو يسحب بصعوبة مسدسا كبيرا من جيبه. قهقه الثانى موافقا. نظر إلزورث إليهما وكأنهما من كوكب آخر. لا بد وأنهما أعتقدا أن تعبيره قصد أن يذكرهما برتبته؛ لأنه مع قدر كبير من تعديل وتسوية ستراتهم جلسوا وهم منتبهين.

"أعتقد أننا الجيش المحتل هنا" قال: الثانى وهو يعوى معاندا:

"إنه موقف مخادع. كما أننا لسنا كذلك أيضا. إن البلد ليست جزءا من الإمبراطورية البريطانية" إلزورث، الذى لم تكن حالته المزاجية تسمح له بالحديث، استبعد الأمر بحركة من يده.

"ولكننا تقريبا نمتلكها" قال: الرجل الآخر وهو ينظر إلى صديقه ليصدق على كلامه: "إلى حد إدراكى فإن الأمر كذلك".

أخذ إلزورث رشفة أخرى من البراندى وقال: "شىء من هذا القبيل". كان الأسهل أن يوافق.

الشخص الآخر تحدث الآن، وهو يدفع وجهه إلى الأمام، أحمر وغاضب من الشمس. "نحن الذين سنذهب إلى هناك لنقبض على تاجر

الموت الدموى، هذا الخليفة". كان إلزورث يجد صعوبة فى أن يركز أفكاره. "حسنا، من المتوقع أن يدفعوا التكاليف، سواء الآن، أو فيما بعد، جنودهم وضباطهم سيحاربون إلى جانب وحدات الجيش البريطانى النظامى". ضحك الرجلان على هذا واستدارا أحدهما إلى الآخر، وغمزا بعينيهما قال الأول: "أوه نعم، وسوف يكونون مساعدة دموية كبيرة".

أصبح صوت إلزورث أجشا. "إنه طريق طويل من هنا إلى هناك، يا سادة، وعندما يحين الوقت سنحتاج إلى كل رجل نستدعيه". أخذ نفسا عميقا، وهو يشعر أن الحجرة بدأت تدور. كان هناك صمت ثم مال الجندى الثانى. "أقول يا سيدى". قرقر."لقد كنت هناك. ما الحال حقا؟".

بعد دقيقة من التأمل، أجاب إلزورث: "لحظات الغروب تستحق أن يموت المرء من أجلها. إنها مثل الموسيقى الجميلة، الضوء يخبو بالطريقة التى يستنزف بها وجه المرء من اللون عندما يسقط وهو ينزف حتى الموت على الرمال". فقط عندما انتهى من حديثه أدرك أنهم يضحكون عليه – ينظرون إلى جانبهم ويجزون على أسنانهم، ويكشرون مثل صبية المدارس. ما حدث فيما بعد كان ضبابى. أمال إلزورث المنضدة الرديئة وهو يقف. استطاع أن يسحب مسدسه ويطلق رصاصتين قبل أن ينقض عليه النادلون والفرقة الموسيقية. لثانية سريعة انطفأت كل الأنوار ثم سقط على ظهره فى مجرى هزيل من ماء قذر يجرى عبر الزقاق فى الخارج. وقف على أقدامه وهو ينفض الغبار عن ملابسه. فى وقت تال بينما يتجول عائدا إلى مسكنه، استعاد بوضوح شديد تفاصيل عودته إلى مجرى النهر منذ أحد عشر عاما.

٣٠- النيل سبتمبر ١٨٨٤
(منذ أحد عشر عاما)

الليل مظلم. النهر يشق طريقه مثل أجنحة مخملية والمرء لديه انطباع أنه يجلس بطريقة مقلقلة على حافة الهاوية. الحديد يصر وضلع من أضلاع المركب يئن، الآلة ارتطمت صامتة فى رعب تام. الأصوات تكسر هذه الفترة متسائلة عن حجم الدمار. مقدمة السفينة تنتأ مشرفة على شفة الشلالات الصخرية. إلزورث هناك فى الهسيس الخافت الكئيب لأنوار العاصفة، هيكل إنسانى ضبابى فى الخلف يراقب.

الكابتن لديه مخاوفه. عيناه وأذناه تستمعان فقط للنهر الذى يدور كدوامة حولهم، فهو زوجته وعشيقته وسيده. يشعر أنه ينقلب ضده ويتساءل ماذا فعل ليخون ثقته. وعرج إلى حيث المراقب يمد عنقه إلى الأمام نحو مقدمة السفينة المقواة. استدار الصبى وهز رأسه. إنهم على الأرض. لا يمكن أن يقوموا بشىء.

"يجب أن ننتظر حتى الصباح يا سيدى"، يقول الربان الشلالى معتذرا، وهو يشعر بعظمة بائسة من الخزى تلتصق بحلقه: إنه آخر صف طويل من القباطنة الذين أبحروا فى هذه المياه منذ عصر كليوباترة

أو هكذا يقول. والصخرة التي يستندون إليها قررت هذه الليلة من بين كل الليالى أن تتحرك. لعن حظه.

صوت، كئيب وضعيف، يأتي من الضفة "كولونيل ستيوارت؟ ستيوارت باشا؟".

الجسد المتصلب لمقدم ستيوارت يتحرك إلى السور الجانبى للسفينة. حدق فى اتجاه المصباح المتمايل. حدد المكان ورفع منظاره. مجموعة من هياكل بشرية مبهمة، السحاب الرقيق الأزرق المتكتل فى ضوء النجوم، يحتشد حول مصباح زيتى مثل الفراش. "نعم" يرتد الصدى وكأن الظلام بئر عميق.

دار حوار بين القبطان والرجال على الشاطئ. يبدو الصوت شبه مألوف بالنسبة لإلزورث.

"هل أنتم غارزون؟".

" صخرة أعاقتنا".

"المياه ضحلة هذا العام".

"نعم والله هى كذلك".

"ماذا ستفعلون؟".

"ماذا بوسعنا أن نفعل؟ علينا أن ننتظر حتى الصباح".

"حسنا، لماذا لا ترسلون الآخرين إلى الشاطئ؟".

"لا، يجب أن يظلوا بالسفينة، فالوضع ليس آمنا".

"ما الذى ليس آمنا نحن أصدقاؤكم، كيف تعتقد أننا عرفنا أنكم قادمون؟".

"من يدرى".

"أنا أقول لك، أرسلهم إلى الشاطئ. لدينا طعام ونيران، ومكان لهم ليستريحوا فيه. أنتم ضيوفنا هنا ونحن نصر على ذلك".

"شكرا لك يا أخى".

"اسألهم فقط، قل لهم ما قلته واسألهم. قل لهم: إننا نصر على أنهم ضيوفنا. الرحلة طويلة والمرء يحتاج إلى الراحة. أليس لديكم نساء على سطح السفينة؟ لا يمكنكم أن تطلبوا من السيدات أن يقضين الليل على ظهر السفينة التى ربما تغرق فى أية لحظة".

"تغرق؟ من قال: أى شىء عن أنها تغرق؟ هذه سفينتى".

"حسنا إنها لا تبدو جيدة جدا من هنا. على أى حال، من الأفضل أن ننتظر حتى بزوغ الضوء".

ستيوارت يخطو جيئة وذهابا. همهم للجنود القلائل الذين يضعون البراميل على جانب السفينة قائلا: "سددوا بنادقكم على هذه المجموعة".

إلزورث يسأله: "شرك، يا سيدى؟".

ستيوارت عابس. إنه فى موقف صعب، السفينة تحتاج أن ترفع من القاع. كلما أزالوا الحمل كانت الفرص أفضل. أمامهم أقل من يوم رحلة فى النهر ليصلوا إلى معسكر كيتشنر ورجاله وليس بعيدا عنهم بقية بعثة

ولسلى للنجدة السحرية للمدينة المحاصرة. لن يجرؤ أى درويش على محاولة القيام بأى شئ مع مثل هذه القوة الكبيرة القريبة بهذا الشكل، بالتأكيد. "ليس لدينا خيار" قرر وهو يستقيم فى وقفته. "أخشى أننا سنضطر للثقة بهؤلاء اللصوص السود اللعناء هذه المرة".

هربن Herbin، القنصل الفرنسى، يقف فى أحد الجوانب. وضع يده وهو غير مكترث على سور المركب ويمكن للمرء أن يتخيله وهو يقف بالطريقة نفسها فى قاعة رقص فى باريس يرتدى بذلة حريرية ويمسك كوبا من الشمبانيا، وهو يسوى سبلته مثل قط. إنه ليس مجنونا. لقد عاش شهورا فى خطر. وعلى الرغم من أن أمامهم أقل من مائة ميل، فإنه قد تملكه الشعور بالخطر ونال منه القلق. لقد أثبت القباطنة أنهم رائعون فى عملهم. حتى استطاعوا أن ينزلقوا بسهولة عبر صخور الشلالات دون مشكلة أو عائق، هناك فقط واحدة من هذه العوائق متبقية وهذه كما يفهم بسيطة مقارنة بسبالوجا Sabaloga وبقية هذه الصخور التى اجتازوها. نادى على القبطان الشاب. يعلم أن ستيوارت، رغم أنه ضابط ممتاز وكفء، لا يحبه. وهو يرجع ذلك إلى كود عسكرى بريطانى غريب لن يفهمه أبدا. من الواضح أن الرجل شعر بالذنب؛ لأنه هجر قائده المحترم، الذى من المحتمل أن يكون نبيلا ولكن بالتأكيد شديد الحماقة جنرال جوردون. تركوه فى الخرطوم حيث أى امرئ يملك مستوى متوسطا من الملكات كان سيدرك أنه جنون خالص أن يظل محاطا مثلهم بمليون متوحش متعطش للدماء يعد كل الرجال البيض شياطين كفرة ويرى أن واجبه أن يقطع رءوسهم بسكين متبلد ويطعم بها قطعة قطعة أبناء آوى. لقد أوضح كل ذلك لإلزورث فى المساءات التى

قضوها معا فى الصالون المؤقت الضيق الذى تم إمداد السفينة به لراحتهم.

"أيها النقيب، ما تقييمك للموقف؟".

"حسنا يا سيد" وإلزورث يتحدث الفرنسية بامتياز - وهو سبب آخر يجعل هربن يحبه "كولونيل ستيوارت يرى أنه يجب أن نثق بهم".

ابتسم هربن للرجل الشاب "وأنت يا نقيب ماذا تعتقد؟".

لم يكن إلزورث يعرف ماذا يعتقد. لا يود أن يضع قدمه على الأرض خشية أن يتوه مرة أخرى. هز كتفيه "يمكن أن نحضر خيولا وإبلا ومرشدين ليأخذوننا بقية الطريق إلى ميرو **Merowe**. لا يمكن أن نستمر بهذا الطريق. السفينة قد يلحق بها دمار يصعب إصلاحه".

يقول هربن بابتسامة بارقة وهو يضرب بيديه على جانبيه مثل طائر البنجوين: "إذن، ليس لدينا خيار، كما تقول".

يرى فقط أن الرجال العسكريين قادرون فقط على العمل كروابط فى سلسلة القيادة. هذا رغم الصفات التى أظهرها إلزورث حتى الآن. "يا نقيب سوف أجمع أصدقاءنا اليونانيين وسوف نستخدم مواردنا". يغطى على الأمر وهو يستدير قائلا: "لم أعرف عربيا لا يبيع جدته، بالثمن المناسب". ثم اختفى داخل الصالون، حيث التجار لا يزالون منشغلين يقامرون بثرواتهم.

عندما سحبت السفينة الصغيرة إلى الجانب كان بها فقط ثلاثة رجال، اثنان عند المجاديف، ورجل أشيب أكبر سنا عند مقدمة السفينة

يحمل مصباحا صغيرا ساعدوه أن يصعد على متن السفينة. لاحظ إلزورث أنه لا يرتدى الجوبا الخضراء المرقعة الخاصة بالدراويش ولكن جوبا بيضاء نظيفة وعلى كتفيه شال حريرى ولفاع راق يلتف حول رأسه. كان يرتدى ملابس تليق بالموقف - متأنق بشكل زائد قليلا ربما ولكن فى نمط محبب. بدأ يتحدث رغم أنهم طلبوا منه أن ينتظر وصول مترجمين. "احضروا المصرى" استدار ستيوارت وهو ينطق بالكلمات للمرة الثالثة.

عندما وصل الضابط المصرى أخيرا، تفوح منه رائحة البراندى حيا كل الموجودين بأسلوب متغطرس قبل أن يستدير إلى الرجل العجوز، الذى يحنى رأسه فى صمت. نظر مندهشا إلى الضابط.

"حسنا أيها الرجل العجوز، ماذا ستقول؟".

بدأ الرجل يبتسم، ثم غير رأيه وتخلى عن الفكرة عندما رأى تألقا فى عينى الضابط. "أتينا فى حالة سلام" همهم وهو مذهول ينظر حوله إلى سطح السفينة. ولمس بيده قلبه ورأسه. "نحن لا نحارب المصريين، فهم إخواننا، ولا الأتراك ولا الخديوى ولا الإنجليزى أو الفرنساوى". تضاءل الرجل العجوز تدريجيا عندما شاهد عدم صبر المصرى. حينئذ تحدث فى الأمر مباشرة وبإيجاز. "لا تستطيعون البقاء على السفينة، سوف تغرق فى النهر قبل الصباح". استدار المصرى وترجم بدقة للآخرين.

"اسأله إذا كان لديه خيول وإبل تكفينا".

"كم عددكم؟ سأل الرجل العجوز، وهو ينظر إليهم من أعلى إلى أسفل مثل خياط يقيس زبونه. تلى ذلك جدل إذا ما كانت هذه المعلومات سرية أو لا.

"يجب أن يعرفوا إذا كانواسيساعدوننا".

"كولونيل، ليس لدينا خيار" تدخل هربن أخيرا. "إذا كان هذا الرجل صادقا إذن لا يجب أن نخاطر ونغضبه".

"سيدى" أجاب ستيوارت بأكثر أساليبه قسوة أنت مدني وهذه مركب عسكرية. أذكرك أنني سأظل فى القيادة وسوف أقدر إذا كنا نفشى معلومات قد تفيد العدو.

"بالتأكيد" بدا فرانك ياور مراسل جريدة التايمز فى الحديث "لن يؤذوننا. الصف الطائر على بعد أقل من مائة ميل". كان لديه عادة سرد الأشياء الواضحة، ولكن كان يتلقى احتراما فى فليت ستريت. "الكل يعلم أن الخطة سوف تخفق حالا. فى أسوأ الأحوال سيأسروننا، ولن يستغرق الأمر وقتا طويلا قبل أن يصل فرسان ولسلى ويحررونناً". ربما سحرته فكرة أن يأسر - رؤى تقارير تومض أمام عينيه. إلا أنه بالنسبة للآخرين فإن المسألة ليست لها الجاذبية نفسها.

استدار كولونيل ستيوارت إلى المترجم المصرى. "أخبر الشيخ أننى سأحضر إلى الشاطئ مع مجموعة صغيرة لنتفاوض حول التفاصيل وسوف نكافئه على أى مساعدة يقدمها لنا".

كان واضحا من عينى الرجل العجوز أن هذا الأسلوب الفظ لا يعجبه. أومأ بأسلوب الواثق وعاد المصرى بإجابته: "كلكم ضيوفنا

المبجلون وسوف نقدم لكم الطعام والمأوى حتى الصباح حيث يمكنكم مواصلة رحلتكم عبر أرضنا. حتى لا يقال إن أهالى سلامات لا يرحبون بضيوفهم".

"سنرى" أومأ ستيوارت الشكاك.

تمت الاستعدادات "سآخذ عشرين رجلا ومن منكم يحرص أن يأتى. إلا أن نصيحتى أنه فى هذه المرحلة من الأكثر أمانا أن يظل المرء على سطح السفينة العباس حتى نرى كيف حال الأرض". استدارت عيناه إلى شريط الشاطئ المظلم حيث مصباح وحيد لا يزال يومض فى العتمة. الصخور والسماء تبدو منحوتة من الحجر نفسه والنجوم تحدق فيهم مثل ألف زوج من العيون بعيدة ومجردة.

أسقط فرانك باور سيجارته على سطح المركب وطحنها بكفيه "لا تعتقدوا أنكم سوف تنصرفون وتتركونى على سطح سفينة تغرق". اكتسى وجهه بتكشيرة متوترة زاحفة لم تجعل أحدا يحبه. تنهد ستيوارت. خطا هربن إلى الأمام. "أنا أيضا يجب أن آتى، أخاف يا كولونيل".

"لا شيء تخاف منه، مسيو هربن" قال باور ساخرا: "تدريب رياضى قبل أن نقابل الصف الطائر سوف يفيدنا. نحن بين يدى أفضل ضباط الملكة". يبدو أنه فى هذه النقطة على الأقل كان كل الركاب الآخرين يتفقون معه. لقد اختاروا جميعا أن يرافقوا المجموعة. فقط إلزورث تركوه على سطح المركب مع حفنة من الرجال وطاقم السفينة.

سمع إلزورث الأصوات وهى تتلاشى فى الليل الأزرق المظلم وهو يراقب من الكوبرى الصغير. كانت هناك حركة من المصباح ثم ذهبوا. هب النسيم برقة عبر شعرات خلفية رأسه. طار خفاش وهو يصر عاليا.

زحف الليل ببطء، تطن الريح عبر الصخور. شىء لامع وأسود يتحرك عبر الماء جذب طرف عينه. "تمساح؟" فكر. صدر صوت ضحك من أسفل. قال له شخص ما: إن كثيرا من أطقم النهر لا يستطيعون حتى العوم. إذا أرادوك، جن النهر سوف يأخذونك، لا يهم كم أنت سباح ماهر".

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما بدأت السفينة تهتز. كان نصف نائم، مائلا على ضلع المركب الذى يدعم المقدمة. انتظر علامة أخرى، تأكيد. تمايلت مؤخرة السفينة مرة أخرى. الاتزان يتغير. شغلوا المحرك، صاح صوت فى رأسه. شىء ما يصطدم ببدن السفينة سمعه مرة أخرى. تميل مؤخرة السفينة مرة أخرى حيث أمسك بهم التيار، كانوا يغرقون ببطء فى الماء وصوت تحطم من أسفل. هل هذا الماء يندفع إلى مخزن السفينة؟ فجأة كان هناك اضطراب فى الدفة والقبطانان يتجادلان معا يعانيان لكى يتحكما فى العجلة. وقف على أقدامه "ارفعوا الباخرة إلى أعلى" نظر إلى أسفل حيث جذبت عينيه حركة أخرى. "الأضواء!" صاح. "نحتاج إلى الأضواء!".

يتحرك الآخرون عبر سطح السفينة فى اتجاهه. استدار وتلعثم، ركع وشعر بشىء مبلل ولزج. سحب مسدسه بالضبط حينما جاءت صيحة من مكان ما فى مقدمة السفينة. كيف جاءوا إلى سطح السفينة؟

أطلق رصاصة فى الهواء وأسرع إلى السلم القصير المؤدى إلى الكوبرى. اختفى القبطانان تاركين العجلة تتأرجح يمينا ويسارا. اهتزت المركب وترنحت، وهى تميل بقوة نحو اليمين. ثم سحبهم التيار فى النهر من مقدمة السفينة، تزيد السرعة وهم يذهبون. سمع طلقة من مكان ما، واستدار ليجد صبيا عمره ليس أكثر من اثنى عشر عاما، يحمل خنجرا فى يده ويأتى نحوه. رفع مسدسه وأطلق الرصاص. قبض الصبى على رأسه وصرخ. العجلة تطرق الآن، وكأن الشيطان يطرق بالعظام على جزع شجرة. هبط إلزوورث السلم ليجد المركب مغمورا بالماء ذى الرغاوى الطينية التى تصل إلى ركبتيه. كان هناك اصطدام فظيع لأنهم ضربوا بعنف فى الصخور. موجة من الماء ضربته لتلقيه على ظهره. ثم شعر بيد ترفعه، وتدفعه إلى الجانب، خفيفا مثل ريشة فى النسيم. مد يده بطريقة تلقائية لتقبض أصابعه على ضلع من أضلاع المركب، قطعة من الدرع مفككة. تشبث بها وهو يلهث يلتمس الحياة وطفا فى اتجاه مجرى النهر - عيناه متسعتان وأذناه يملؤهما صوت صخب وزئير العالم الذى أصبح مجنونا.

عندما عاد إلى إنجلترا، لم يذكر أبدا تجاربه، سواء بشكل عابر أو لزوجته. كان يتم تقديمه فى الحفلات على أنه الناجي من الخرطوم. الصحف تطلب قصته بشكل متزايد، ولكنه رفضهم جميعا. أصبح نكد المزاج كئيبا ومنطويا، وهى حقيقة سممت تدريجيا بقية حياته والمحيطين به. كان يتذكر وكأنه من مسافة بعيدة الأيام التى لم يكن فيها شىء أكثر أهمية من حبه لإميليا تماريند والدن. الليالى التى قضاها يتجول تائها

مع سبراتلنج. لم تكن تمر ليلة دون أن يفكر فيها ويتساءل إذا ما كانت ستنتظر عودته. لم يكن هناك أحد فى العالم أكثر منها يود أن يشاركه قصته، ولكن الآن، هل يمكن أن يتوقع منها أن تفهم ماذا كانت تمثل بالنسبة إليه؟ لقد كانت قلقة عليه عندما عاد حزينا وكئيبا ولكن كلما حاولت أن تعبر عن تعاطفها أدرك استحالة المهمة. محاولاتها لتهدئته تحولت سريعا لتعطيه إحساسا بالاختناق.

لقد انتظرته حتى عندما أعلن أنه مفقود. تزوجا بعد عام من عودته. كان والدها يموت ورغبت أن يراها مستقرة قبل أن يرحل عن هذا العالم، رغم حقيقة أنها كان يجب أن تشك فى بعض التغيير فى شخصية حبيبها حين عودته.

انتقلا إلى منزل كبير. وبميراث إميليا لم يعد لديهم حاجة إلى المال وسقط فى عادات كسولة. استقال من منصبه ومكث بالمنزل، يتفرغ لقراءة الكتب بمكتبة حماه ويظهر نادرا، حتى ليأكل. كانت إميليا تجلس فى الحديقة فى المطر وهى تبكى سرا. عندما مات طفلهما الأول أثناء الولادة أعلن أنه ملعون. ولكنها أصرت أن يحاولا مرة أخرى، رغم أن علاقتهما الزوجية كانت قد تدهورت لدرجة أن الفرصة فى حمل آخر بعيدة الاحتمال. فإنه من حسن الحظ شقت الطبيعة طريقها وأصبحت حاملا. فى هذا الوقت كان عقلها قد بدأ يضطرب حيث كانت تلوم نفسها وتعاقبها لعدم قدرتها على إنقاذ زوجها من شياطينه. كانت تجده نائما فى المكتبة وهو يتمدد على المكتب المغطى بالجلد الرائع، وزجاجة من البراندى مقلوبة على جانبها. اتجهت إلى الصلاة ولكن لم تريحها. التهمتها حالة القلق الذهنى دون أن يلاحظ حتى كان الوقت قد فات.

٣١- أم درمان

١٨٩٧

حدث فى يوم ما، أن جرى حاوى إلى الشيخ بلدى الذى لم يتصل به أبدا منذ أيام مجلس الرؤى الذى تم حله منذ وقت طويل. بدا الشيخ سعيدا برؤيته. فعلق قائلا: "يا لها من مصادفة". وسأل حاوى إذا كان يتذكر إحدى الليالى منذ حوالى عشر سنوات عندما قدمت للمجلس مشكلة غريبة، فتاة؟ حاوى تذكر قليلا. حسنا، يا لها من مصادفة، ضحك الشيخ؛ لأن الفتاة نفسها جاءت هذا الصباح أمام محكمته. "ربما تحب أن تأتى يوما وتراقب محضر الجلسة". ورغم أنه لم يكن حريصا على الفكرة، قرر حاوى أنه سيكون من الكريه ألا يحضر ليلقى نظرة على الشيخ فهو الآن يعمل قاضيا. وهكذا وجد حاوى نفسه يجلس داخل قاعة المحكمة فاسدة الهواء.

الأنصار ذوو العنق المتيبس يقفون أمامه. مد أنفه تجاه الرافدات.

"ماذا فعلت بالضبط؟" كرر القاضى.

غير الحارس اتزانه من قدم لأخرى. عيناه مثبتة أمامه مباشرة وبارزة مثل سمكة صغيرة فى مياه مظلمة. بدا من نظراته أنه مرعوب من القاضى. جلس حاوى مستندا إلى الحائط على مقعد قاض صغير.

فى أقصى جانب الحجرة تجلس السيدة، رأسها محنى. تذكر الآن أنه رآها. بدأ الحارس مرة أخرى. حاولت الفتاة أن تطعنه هو وجندى آخر. الأخير جرح جرحا غير خطير وذهب إلى منزله وزوجته فى دارفور ليشفى. عينا الجندى الآن تتردد بين مكان غير مميز عاليا على السقف خلف القاضى ومكان ما أعلى كتف حاوى الأيمن. بدا عصبيا كما بدا وكأنه سوف يغمى عليه. كان الشيخ بلدى متعبا من التأخير. تحرك، ضبط شاله وعمته. شعرات ذقنه الأشيب تهتز حول وجنتيه. "انه القصة أيها الصبى" قال متذمرا: " قبل أن نتعفن حتى الموت". أومأ الحارس بالطاعة، وابتلع ريقه وبدأ يتكلم. "كانت هناك عدة شكاوى من الجيران لوجود جلبة وعراك. كان زوجها مريضا يتألم كثيرا وقد مات تقريبا حينما وصلنا".

حينئذ أخذت الأمور منحى دراميا لأن الفتاة قفزت على قدميها. "ليس صحيحا" توسلت "كنت أمته لا زوجته".

"اهدئى أيتها الفتاة حتى نسألك. تذمر بلدى. ثم خاطبها وكأنه قد خطر بباله فجأة أن هذه حقا فرصة: "لماذا حاولت أن تؤذى هؤلاء الحراس؟". أحنت الفتاة رأسها مرة أخرى وقالت وكأنها تتحدث إلى قدميها: "كانوا يضعون أيديهم على جسدى". لاحظ حاوى أن الحارس يغير اتزانه مرة أخرى. "فليحمنا الله من الشيطان" زأر القاضى "ربما يجب أن أعطيك مائتى جلدة من الكرباج لتتعلم كيف تعامل النساء؟".

وقف الجندى مقطب الجبين وصامتا، وخفض عينيه. مال بلدى على حاوى وسأله: "ماذا ترى؟، ألم أقل لك إنه أمر مثير؟".

لم يعرف حاوى ماذا يرى. همس أخيرا: "يجب أن نعرف أكثر".

وافق القاضى وقال للجنود: "الوقت متأخر، أعيدوها إلى السجن ولتظل هناك حتى الغد. عودوا إلى هنا فى الوقت ذاته" وأشار بيده ليصرفهم.

"احضروا الشهود الآخرين" نادى عاليا. مال على حاوى. "نسمع ما سيقولوه ثم نذهب لتناول الغداء فى منزلى".

مجموعة من الرجال والنساء تبدو عليها البساطة. جاءوا يجرون أقدامهم إلى الحجرة. "هيا، هيا ماذا لديكم جميعا لتقولوه؟".

خطت إلى الأمام سيدة ضئيلة ليس لديها أسنان وقالت: "لقد قتلت طفلها". امرأة أكثر ضخامة جاءت لتقف بجانبها. وهمست قائلة وهى تبعد ذبابة عن وجهها بقبضة يد قوية قائلة: ما تقوله حقيقة. كانت هناك همهمات وإيماءات من المجتمعين خلفهم.

حرك بلدى يديه فى الهواء طالبا الصمت "كل فى دوره، من فضلكم! فليوضح أحد الأمر". تراجعت المرأتان وتفرق الحشد فجأة تاركا رجلا نحيلا غائر الوجه فى وسط الحجرة. لعق شفتيه ونظر حوله ليعيد طمأنة نفسه. "يبدو أن ذلك حدث منذ سنوات. حملت من جندى. وعد أن يتزوجها ويأخذها عبر البحر إلى وطنه. ولكنه أصيب باضطراب عقلى بسبب الشمس والمعركة، ثم عندما استعاد قواه العقلية عرف أنه لن يسمح له أبدا باصطحابها".

صفر الرجل وسعل وبصق كميات كبيرة من البلغم، ولكنه كان يتكلم بثقة امرئ يروى هذه القصة طوال حياته. "أدخلوها إلى مستشفى حيث جاءت إلى هذا المكان من العالم كان لديها مرض يشك كثيرون فى أنه من عمل الجن الذى يعيش فى رأسها. شاهدت الجندى يبحر بعيدا تجاه الشمال البارد، وحيدا ولم تستطع أن تفهم كيف يمكن أن يخون إنسان إنسانا آخر بهذه الطريقة، رغم أنها ليست حمقاء وتفهم أساليب الرجال. لقد وثقت بهذا الجندى". صوت نحيب هادئ يأتى من نهاية الحجرة الساخنة المزدحمة رفع حاوى يده وصمت الرجل العجوز. فسأله حاوى: "أيها الرجل العجوز كيف عرفت كل ذلك؟".

قال الرجل ببطء: "استمع بدقة". وأشار بيد ليسمح له بمواصلة الحكى. "عندما ولد الطفل، وسبب لها ألما كبيرا؛ لأنه كان طفلها الأول، رأت فورا أنه ليس طفلها ولكنه ينتمى إلى أهل الجندى الذى وضعه هناك. عرفت أنه سيذكرها دائما بخيانة والده ولذلك أخذته إلى النهر وأغرقته هناك، وهى تربط ذراعيه وساقيه إلى حجر قبل أن تسقطه ليهبط فى النهر. السيدات خلفه كن آنذاك، ينتحبن ويهززن رءوسهن من جانب إلى آخر فزعا من الأمر. واصل الرجل حديثه. "ولكن رآها صياد وأخبر عنها الأنصار الذين أخذوها إلى القاضى فى محكمة كهذه. أعطوها إلى إبراهيم الأجنبى الذى يمتلكها الآن وهم يظنون أن هذا سيسعدها ومن الواضح أن ذلك لم يحدث".

تم صرف الشهود من الغرفة. وقف الشيخ بلدى وأشار إلى الباب فتبعه حاوى. وضع بلدى ذراعه حول كتفى حاوى. فى يده الأخرى تدير

أصابعه حبات السبحة دون توقف. "ربما تتذوق هذا العمل. أرى اهتمامك". سارا عبر حرارة الظهر. كان منزل القاضى قريبا من مجمع الخليفة.

بينما هما يسيران عبر حشود البشر التى تزحم الميدان الرئيسى قرب ضريح المهدى، يلمسون الجدران ويركعون للصلاة سأله بلدى وهو يجعد أنفه فى ضيق: "لماذا يقومون بذلك؟".

دهش حاوى للسؤال. "يأخذون أطفالهم ليروا آباءهم وأجدادهم وأعمامهم وأخوالهم الذين توفوا". صمت "لا يريدون أبناءهم أن ينسوا".

"كل شئ سوف ينسى، حتى هم أنفسهم" توقف بلدى عن تحريك خرزات سبحته واستدار ليواجه حاوى. "هل هكذا ترى التفانى الدينى؟". فوق جلبة تجار البغال وبائعى الماء وصخب الحجاج عانى حاوى ليسمع ما يقوله القاضى. "...لا يستغرق وقتا أن تكسب معركة، ولكن يستغرق فهم نتائج هذه المعركة أجيالا. فالإنسان حيوان غبى". استدار عند زاوية. "لا ترى طائرا يتصرف هكذا". وصلا المنزل ودخلا.

أمسك حاوى فجأة بذراع الرجل الآخر، بعنف لدرجة أن الشيخ ذعر وقال: "لدي سؤال لك". حملق الشيخ فيه. أخذ حاوى نفسا عميقا وقال:

"هذه الفتاة إذا ضمنتها هل تطلق سراحها تحت رعايتى؟".

قال بلدى وحاوى يحدق فيه: "أنت رجل علم". "وأنت قريب من أذن الخليفة. لا أستطيع أن أرفض لك هذا المطلب". اعتدل وبدأ يفك ويعيد ربط لفاعه. "أى تأمين تفكر فيه؟". قال: حاوى: "سأضمنها".

رفع الشيخ بلدى حاجبيه. "حسنا" قال: وهو يبتسم "يبدو أنك أعطيت هذا الأمر بعض التفكير. وهذا يوضح بالتأكيد اهتمامك بالقصة". كان على وشك السير ولكن حاوى أوقفه مرة أخرى.

"سأزوجها" أفشى دون تفكير.

بدا الشيخ متحيرا. "تتزوجها؟" هز رأسه "امرأة كهذه؟".

"لخادمى بالطبع".

"لخادمك؟".

أومأ حاوى. "سيكون أمرا مناسبا له... ولها".

هز الشيخ بلدى كتفيه موافقا بلا مبالاة وصفق بيديه طالبا الغداء.

٣٢- الصحراء النوبية

١٨٩٧

مثل الزئبق السلس يتدفق الصف عبر السهل. بالنسبة لهم الأرض ميتة، تتكون من الصخور والرمال، والأحجار أصبحت صلبة وسوداء تحت آتون الشمس. يركبون جيادهم طوال اليوم، مثل الصليبيين في العصر الحديث داخل المدرعات التي تصلصل للعربات المنخفضة التي تضعهم في وسط الخلاء الصامت تحيطهم الريح، مكان سوف يزحفون منه مثل النمل تجاه... مكان آخر. إنه منتصف الصيف والصخور والأحجار ساخنة جدا لدرجة ألا يستطيع المرء أن يلمسها. الغبار يحرق عندما يلمس الجلد. كان الرجال يصابون بكل أنواع الطفح الجلدى والطاعون التى لم يصادفها أبدا الأطباء الجراحون: أنواع من الحمى والمغص الحاد وهجمات العمى وضربات الشمس وانتشار بثور قاسية تنتفخ فى الإبط قبل أن تتقيح وأخيرا تنفجر وهى تخرج صديدا مجزعا بالدم. أيديهم وأقدامهم منتفخة ومنهكة ومسلوخ عنها الجلد. كل يوم يصل امرئ تحت صخرة دون أن يديرها أولا ليجد عقربا. هناك ذباب الرمل والأشواك السامة التى تتلوى عبر نعل الحذاء ذى الرقبة العالية وإلى داخل القدم. فى المعسكرات الكبيرة هناك الدوسنتاريا وأشكال من الأمراض التناسلية التى انتقلت من بيوت الدعارة فى القاهرة.

كل هذا بالإضافة إلى العمل. المهمة التى أمامهم: هى بناء خط سكة حديد - لتحويل سطح هذا المحيط الجاف إلى خط ترام العاصمة؛ ليدفعوا بمليون قطعة حديد صغيرة عبر القلب المظلم للكائنات الغريبة التى اختارها الله بحكمته لتترك هنا بين عظام الأسماك والقلاع المفتتة. يتجولون من وقت إلى آخر، يبزغون من الخلاء، يخطون بخفة من ثنيات الرمل: عائلات بأكملها، الأطفال ذوو الأنوف المبتلة والرضع النائمون، الرجال الصابرون يقرفصون على كعوبهم يراقبون عن بعد. يراقبون ويسمعون، يسحرهم أن هناك إنسانا يعانى إلى هذا الحد ليعبر الصحراء.الجنود يغنون أغانى غريبة ليذكروا أنفسهم بالوطن. ورغم أنهم يلعنون هؤلاء الرجال المتجهمين الذين قادوهم إلى هذا الجنون، فإنهم جميعا يشاركون فى الإحساس بالإنجاز الذى يدعو إلى الافتخار. السردار كيتشنر يتجول وهو يطرق المسامير البرشامية فى أماكنها ويربت على أكتاف الرجال بحماسة.

طوال النهار والليل الآلات تمتد عبر الصحراء. العربات تنزلق على القضبان وهى تحمل صناديق من الذخيرة، والطلقات والمتفجرات، الألغام والبنادق، مدافع الميدان المحمولة على عربة ومدافع جيتلنج، الحراب وشراك الغفلة. لديهم سفن مدفعية مسطحة القاع مقسمة. لديهم رجال يركبون الإبل وكتيبة مشاة. ومعهم لحم بقر معلب وأحذية جديدة عالية الرقبة. يبردون رءوس رصاصاتهم لتحقيق أفضل تأثير، من أجل أن تدمر وتنفجر فى شظايا لزجة، أصعب فى الاقتلاع وأكثر إيلاما. خط سكك حديد الصحراء هو الشريان الذى يغذى. وخط السكك الحديد

الرفيع الفضى يزحف ببطء متقدما مثل الفقرات فى العمود الفقرى لحيوان مفصلى مجهول.

إنها الثالثة صباحا. القمر يشتعل عبر الليل المظلم مثل المعدن البارد. الفلاح قوى البنية يركل الحزم النائمة لتستيقظ. يبدو أنه يستمتع بكونه خارج سريره قبل الآخرين، ثم يذكرهم بهذه الحقيقة ليلة وراء ليلة. كادارو يتمايل حتى ركبتيه ويحك عينيه. جسده متيبس وكأنه شجرة، كل عضلة موثقة برباط صلب. السجناء يتنقلون ويسعلون ويبصقون ويستديرون ليحملقوا فى القمر بينما هم يبولون. الرجال هم مجموعة فظة: مجرمون، هاربون من الجندية، أحط أنواع الرجال، المرتدين والجبناء، قاتلى النساء ومعذبى الأطفال. سوف يهاجمون سادتهم فى أول فرصة يحصلون عليها.

سيعملون الآن حتى الفجر، يجرفون الأحجار الصغيرة والحصى حتى يصل قطار المؤن من حلفا. سوف يفرغون منه عارضات حديدية تلمع فى الشمس. يقومون بذلك مبكرا؛ لأنه فيما بعد أثناء النهار سيكون المعدن ساخنا جدا لدرجة ألا يمكن لمسه دون أن يحرق أيديهم. يتسلقون إلى أعلى وأسفل مثل الحيوانات الصغيرة تحت قيادة الضباط الإنجليز والفلاحين الذين ينبحون فى وجوههم مثل الكلاب. السكة الحديد تزحف إلى الجنوب بمعدل سرعة ميل أو اثنين يوميا. إنهم يتبعون خطا تم رسمه على ورقة، وهو الذى يجب أن يكون مستقيما مثل ماسورة المدفع. استقامة هذا الخط لن يتم التضحية بها لأى سبب. يقطعون عبر المنحدرات ويملئون الأودية التى جرفتها الرياح.

يكافحون عبر الغبار والرياح على نحو أعمى. كادارو يراقب المهندسين وهم يتأملون رسوماتهم التخطيطية، يكتبون ملاحظاتهم بسرعة ويأخذون القراءات. كانوا مساء خارج الصحراء، يزيلون الأركان والحواف المستديرة التي وضعها الله هناك بالطريقة التي يحرث بها المرء حقلا. لاحظ كادارو أن بعض الأوروبيين لديهم النظرة القلقة ذاتها التي تحملها أعين أهله، وكأنهم لا يرون هدف هذا المشروع، فقط كادارو يمكنه أن يراه. يمتدون خارج المعسكر في اتجاه الجنوب وهم يتعلقون بحافة العربة المسطحة والريح تضرب في وجوههم. إنها اللحظة التي يشعر فيها بأقصى استمتاع: يستلقي ويشعر بأن هذه الآلة جرفته. يضحك ويربت على أكتاف أصدقائه ويصرخ: "فكروا، إنهم يعانون كل هذه الصعوبات ليحضروا هذه الآلة هنا حتى نطفو فوق الصحراء كالجن".

يضحكون لأن بقية اليوم سوف يزيلون الدماء عن مسام جلدهم. رأى رجلا يفقد يده؛ لأنه كان بطيئا في تجنب عارضة معدنية متحركة. يجب أن تسرع مع هذا السحر الفضي؛ لأنه يمكن أن يهاجمك. كادارو لا يحب أن تأكله هذه الآلة، يريد أن يروضها.

أول مرة يرى كادارو الرائد إلزورث، كان يقف بالقرب من العارضات المعدنية الساقطة التي انحشر تحتها سجين زميل له سيء الحظ. انهار القضيب ولم يأخذ الرجل العجوز فرصة للفرار. كان يبقبق بالدماء وذهب أحدهم لإحضار ماء من العربات ذات الصناديق المعدنية المربعة التي تأتي من حلفا كل يوم ظهرا.

وصل الرائد فاتحا قدميه على عربة متنقلة تلتصق بقوة بقضبان السكك الحديدية ويغلفها الغبار الأصفر. نزل وسار نحو مكان الحادث تحيطه مجموعة من الضباط المصريين والملازمين الأوائل، والسائقين المعممين من السيخ وضباط الموقع. استغرق وقتا ليتفحص القرية التى تتكون من خيام هب عليها الغبار تضم ألفى وخمسمائة رجل وهى التى سوف يمكث فيها بقية الصيف. وقف كادارو بجانب مجموعة الرجال الذين يسحبون الأدوات الحديدية. لا فائدة، يفكر كادارو، الرجل كالميت. لم يستطع أن يرفع عينيه عن الشخص الذى يقترب منه إلى أن بدأ الرجل يصرخ بالأوامر. الوقت يضيع. أسرعوا. من سندات الآلة، يتفحص المهندسون الإيطاليون المكان. يضحكون بعضهم إلى بعض، وهم يعلقون بلغتهم.

بعد ساعة، توقفت صرخات الرجل. استمروا فى رفع القضبان الساخنة من الطريق. إلا أن الرائد استدار فى هذا الوقت. ذهب ليجلس فى الظل. حينئذ انطلقت الصفارة وأمروا بالعودة إلى العربات، حان وقت التقدم. تلقى كادارو ضربة إصبع فى ظهره ووجد نفسه يندفع إلى الخلف حيث صف الرجال الذى يجر قدميه.

سارت الأيام التالية على المنوال نفسه. كل مرة يرى فيها كادارو الرائد يصبح أكثر اقتناعا أنه هو الشخص الذى يعرفه. يقودون صف المعدن الفضى تجاه الأفق. يطرقون المسامير الضخمة للروافد المعدنية المتعاقبة. ثم يقفون جانبا بينما الآلة التى تتحرك متثاقلة تصر وتنوح وتسحب نفسها خطوة خطوة على خط السكك الحديدية الجديد. راقب

كادارو المهندسين وهم مرعوبون، يميلون من العربة المغطاة. بالنسبة لهم هى مثل عملية جراحية دقيقة، كانوا يحركون هذه الآلة الكبيرة وكأنها تجرى على صف من البيض. فى الصباح التالى سيبدأ مرة أخرى، يجرفون الحصى ويفرشون به الفجوات وهم يغزون المسامير الضخمة التى تثبت السلم المعدنى فى الأرض، السلم الذى سيتسلقه الجنود.

كثيرا ما كان يدور حديث بين الجنود عن الهرب، عن تخريب الماكينة، ولكنهم كانوا مرهقين لدرجة ألا يستطيعوا أن يقوموا بأى شىء. يجلسون حول نار صغيرة كل ليلة يراقبون عن بعد بينما الضباط الإنجليز يشربون الويسكى والمزر ويدخنون سجائرهم.

"هؤلاء الناس حياتهم طيبة" فكر كادارو "لا يحتاجون إلى أى شئ". لقد رأى المتاجر فى حلفا. جبال من كابلات الأسلاك وألواح وصل السكك الحديدية وفائض من الغلايات والماكينات، وعربات الترولى وألف شىء آخر لا يستطيع أن يفهم الغرض منه. لا يمكن أن تصمد جيوش الخليفة أمام هذه القوة. وفهم حينئذ أن المعركة ليست بين رجال لهم ألوان أو أديان مختلفة ولكن بين عصرين. العالم الآخر، عالم لا يعرفه، يوجد فى عصر مختلف - عصر أكثر سرعة وحكمة مما يعرفه بكثير. إنها حرب بين الأمس والغد.

وفى إحدى الليالى حيث كان القمر ندبة فضية رفيعة محفورة فى السماء المظلمة، تسلل من المكان الذى ينامون فيه وزحف على بطنه وهو يمسك بيده مسمارا حديديا ضخما. وصل خيام الضباط حيث تضىء المصابيح العتمة. استلقى هناك على الرمال يستمع إلى الحوار

الغريب من الكلمات التى لا يستطيع فهمها. يده تطبق بإحكام ثم ترتخى حول السلاح، وكلما فكر، أصبح أكثر حيرة. إنه يحب آلة خطوط السكك الحديدية اللامعة، ولكنها ستستخدم للحكم والسيطرة. اقترب زاحفا من خيمة الرائد.

فوجئ بالرائد يقف وظهره إليه، يبول على الرمال بينما يغنى أغنية دون لحن. ربض كادارو مستعدا للهجوم. ذكر نفسه بالوقت الذى قضاه فى السجن، بالفتاة، بهذا الصباح منذ مدة طويلة على ضفة النهر بين صرير أعواد قصب السكر. استلقى هناك وهو يشعر بضغط الأرض على بطنه ومرت اللحظة. أخيرا، من الألم، ارتخت أصابعه وسقط المسمار من يده على الرمل البارد. استدار وبدأ يجرى. غادر المعسكر دون صعوبة لأنه لم يكن يوجد سوى القليل من الحراس، أين يجرى المرء؟ فى الخارج الصحراء ولا أحد يمكنه أن ينجو فيها لمدة طويلة. ولكن كادارو يستطيع ويعرفها ولذلك استمر فى الجرى.

قبض عليه بعد أسبوع على بعد عشرة أميال من النهر، مجموعة من الكشافين الفرسان كانت تمسح المكان للقبض على مجموعات الجنود التى تقوم بغارات. كان يستلقى وأذنه على الأحجار الباردة لبئر يستمع إليهم وهم يقتربون، ثلاثين رجلا، يركبون الجمال. طاردوه على هضبة من المسكوفيط كانت تلمع فى ضوء الشمس. عندما وثقوه قال: لهم من أين أتى، وألف قصة عن زوجته المريضة. فضحكوا عليه. عاد. قالوا: إن خطوط السكك الحديدية مهمة جدا وإلا كانوا سيطلقون عليه النار كجاسوس.

كانت النيران مشتعلة عندما اقتيد كادارو بين خيام المعسكر المصنوعة من قماش القنب. أصوات الجنود تأتى من الأركان حيث اجتمعوا ليشربوا. خرج من العتمة شخص مألوف: الرائد، سترته مفكوكة الأزرار حتى الخصر. وقف هناك دقيقة، يميل قليلا مع نسيم الليل الصافى. رفع يده "دقيقة واحدة أيها الجندى". حياه الرجلان اللذان يصحبان كادارو وتوقفا. تقدم إلزورث. فى الضوء المهتز الذى كان يتسلل بين الحوائط المظلمة حدق فى وجه الشاب. استدار إلى الحراس، وسألهم: "إلى أين تأخذون هذا الرجل؟". سألهم. أوضح الجنود القصة فتراجع إلزورث خطوة ورفع إصبعه "ماذا حدث لساقه؟".

"كان على المجموعة أن تشل حركته يا سيدى. أعتقد أنه قد استهدفته قذيفة فى الركبة".

لم يقل كادارو شيئا. صرف إلزورث الحارسين. "لا تقلقوا بشأن هذا الموضوع، يا سادة، سوف أتحمل المسئولية كاملة. هذا الرجل لن يعيد الكرة، أؤكد لكم".

غادروا المكان وهم مترددون، واستدار إلزورث إلى كادارو. "لقد هربت، هذا يعكس الشجاعة... والذكاء". أومأ ونقر جانب جبهته ليوضح المعنى. "إن هذا الخط الحديدى يحتاج إلى بشر من نوعك. هذه فقط البداية. نحتاج إلى أشخاص يمكننا الوثوق بهم. يمكننى أن أثق بك، أليس كذلك؟".

استغرق كادارو لحظة ليفكر مليا. لم يقل شيئا، لا يود أن يوقف تدفق ما بدا أنه حظ حسن يحدث له. "ربما لن تفهم ذلك ولكنك تذكرنى

بشخص ما عرفته يوما منذ مدة طويلة". اقترب ومال تجاه كادارو، تفوح منه أبخرة الويسكى. كادارو لم يجفل "أعرفك أعرف أهلك ولذلك" خفض صوته "أعرف أنه يمكننى أن أثق بك".

ألقى بذراعه حول كتف كادارو، وهو يساعده ويجذبه إلى جانبه. "فى يوم ما سوف يعبر هذه الأرض آلاف الأميال من خطوط السكك الحديدية التى ستطير عليها أفضل أنواع العربات شمالا وجنوبا من القاهرة وحتى رأس الرجاء الصالح". غز بإصبعه صدر كادارو وخطا مبتعدا. "المهندسون، ورؤساء المحطة، الكباحون والمرشدون جميعا يدندنون سعداء". ابتسم مبتهجا وغمز بعينه. "لا أحد يود أن يبدأ تمردا بينما هم ينالون مرتبات جيدة واحتراماً" انفجر فى الضحك والذى تحول إلى سعال، ولوح بيده فى الهواء وهو يحاول أن يخرج الكلمات. صدمه قائلا: "يمكن أن تظلوا فى العصر الحجرى أو أن تتقدموا نحو البداية".

٣٣- معركة أم درمان

٢ سبتمبر ١٨٩٨

جاءت الساعة. تلك الليلة هطل المطر وكأنه لم يهطل قط قبل ذلك. جلس حاوى في حمى السقف الذى كانت القطرات تسقط من خلاله بكسل، لتزعج أفكاره. المياه الآن ترقص وتتساقط مكونة بركا يتزايد اتساعها بينما منذ ساعة كانت هناك أرض جافة صلبة. يمكنه أن يسمع صرخات الأطفال معبرة عن المتعة والبهجة من الشوارع والبيوت المحيطة. البرك الصغيرة تنتشر وتمتلئ. الماء يجرى فى جداول طويلة إلى أسفل الجدران وهو يأكل الطين والقش المكسو بالجص. استمر المطر ينهمر خلال الليل. استلقى فى سريره يستمع. شعر بالعجز وكأنه رضيع.

طوال الليل كان يسمع أصوات الرجال البعيدة عبر المطر، وهم يستعدون ويتناقشون، ويصلون. كل ما يمكن أن يقال قيل من قبل. المصير الذى يقترب منهم مع كل ساعة كان يأتى منذ مدة طويلة جدا. ورغم تأكيدات الخليفة ومستشاريه، كان هناك قليل من الأمل فى قلوب الناس. لقد عانوا طويلا، وهناك حرب أخرى تأتى إليهم.

تم حشد الجميع لهذه المعركة. لأسابيع كان يتدرب عسكريا تحت الشمس وعصا من الخشب على كتفه وكأنها بندقية، البنادق الحقيقية

مقفول عليها فى المستودع لدواعى الأمن. أدرك حاوى أن الأمر كله سخيف. تم الاستعداد لتنظيم استعراض عسكرى كبير. نفخت كل الأومبيات العاجية الكبيرة ودقت كل الطبول. حينئذ وفى وسط كل هذا وبينما الرجال يسيرون جيئة وذهابا، يهتفون ويلوحون بسيوفهم والفرسان يقومون بهجمات لا تنتهى جيئة وذهابا يسقط على واد هيلو من فوق جواده. أمام ضريح المهدى يسقط من فوق صهوة جواده وينزل على ظهره على التراب. تفرق جند الاستعراض غير مصدقين. بدأ الناس يضربون رءوسهم ويجذبون شعورهم فى يأس. واختفى الخليفة، وكأنه فى حالة حداد، داخل ضريح المهدى ومكث هناك ثمانية أيام للصلاة التى لا تنتهى.

يبدو أن كل شىء ينهار. وإذا كانت هذه هى نهاية العالم فإنها لا تحدث بالطريقة التى تنبأ بها المهدى. إن المعركة الأخيرة سوف تكون أكثر قربا من الوطن مما تخيل أى شخص.

استمع حاوى إلى الحوار وهو يربض فى مأواه. قال الرجال: إن الخديوى لم يعد يحكم مصر، ولكن ملكة الإنجليز، ورجالها لا يعرفون الرحمة. هم هنا للانتقام. لديهم رصاصات تنفجر فى جسم الإنسان وتخرج العظام من ظهره مثل لب البطيخ .

سقط حاوى فى النهاية نائما، مرهقا جدا لا يقوى على الجدال مع هذا الحديث. بعد ساعة أيقظه وصول خادمه.

والسحاب ما زال يدمدم عن بعد والخادم منهك ويرتجف من الإرهاق. جذبه حاوى تحت مأوى الراكوبا ليكتشف أن ملابسه يغطيها

وسخ لزج غامق اللون. سأله ورأسه لا تزال تدور بسرعة: "هل هذا دم؟ هل بدأ القتال بالفعل؟".

هز حياتو رأسه. "ليس دم بشر" أجاب بضجر: "لقد قتلنا كل بغل، وكل جمل، وكل جواد وكلب يمكن أن يستخدمه العدو".

"هل أصابه الجنون مؤخرا، حتى أنكم، جيشه، تمكثون فى الخارج تذبحون الحمير فى ليلة كهذه؟".

سال لعاب حاوى حيث استغرق فى نوم عميق. تخيل أنه يشم رائحة سمك ميت ويمكنه أن يشعر بالنهر يرتفع، أن العالم بأكمله فى حالة فيضان.

ستون ألف رجل عددهم جميعا، يتنوع بين صبية صغار يستطيعون بالكاد أن يحملوا السيف فوق رءوسهم بكلتا يديهم وعجائز مثل حاوى يسيرون بالكاد. ستون ألف رجل يسيرون تحت الشمس: تحت الراية ذات اللون الأخضر الفاتح لعلى واد هيلو تسير خمسة آلاف وخمسمائة روح، شمالا تجاه الصخور السوداء لمرتفعات كيريرى التى سيلتفون حولها فى اتجاه السهول. خلفهم تأتى الراية ذات اللون الأخضر الغامق بألف ومائتى فارس ومجموع ثمانية وعشرين ألفا من رجال الجهادية الذين يحملون البنادق والأنصار الذين قضوا الليل رابضين تحت بطن الخيل النائمة.

النهر المتزايد الذى يعلو تتراكم فيه السفن الحربية المدرعة. قعقعة الكباس والبواخر تجعل ديدان الأرض ترتعد. الآلات المصنوعة من

الصلب تدق والأغطية النحاسية تطرق. منذ عامين وهم ينحتون طريقهم ضد التيار. يضربون السماء حتى الصحراء المحترقة ويجرون الرعد من حلفا حتى عطبرة. تدور العربات بلا هوادة جيئة وذهابا بسلاسل عربات القطار التى لا تنتهى تصلصل حاملة المدفعية والرجال. عجلات الصناعة الحديثة، لوحاتها تومض بالأصوات التى ستصبح قريبا مألوفة: لانكشير ومانشستر وشيفلد وليدز، تدور أسرع وأسرع.

إنهم قادمون. الله يحفظنا من الشيطان. هذه المرة لن يوقفهم شئ. المستقبل يأخذ طريقه ضد التيار والنهر ينتفض فى مجراه.

الليل، والعين الوحيدة الشريرة لنور المشعل تلوح. السفن تعس جيئة وذهابا؛ باحثة عن أى شئ وأى شخص يجرؤ على الحركة.

فى الجانب الغربى من جبل سوركاب **Surkab**، الخليفة عبد الله وأخوه يعقوب يجلسان مع عشرين ألف من إخوانهم من البجارة يراقبون شعاع الضوء وهو يلقى نظرة خاطفة على محيط الظلام الذى يغطى السهل. الخليفة يسأل: "ما هذا الشر الذى تحضره الكلاب لنا اليوم؟".

بزغ الفجر مثل وعد داعرة فاضلة لينشغل حاوى بجو السرعة والخوف الذى يعم المعسكر. الأقدام الحافية لآلاف الرجال تضرب الأحجار حيث بدءوا يسيرون. وحتى فى هذه اللحظة قبل أن يستديروا ليواجهوا العدو، كان لايزال هناك أمل فى قلوب الرجال الذين لن يعيشوا ليروا غروبا آخر. فى قلب حاوى، أيضا، كان هناك أمل أنهم يستطيعون ذلك مرة أخرى. هذه المرة سيرسلون الكلاب الإنجليزية إلى وطنهم، ليس

لأنهم أفضل أو أكثر شجاعة منهم، ولا لأن المهدى أعلن ذلك، ولكن ببساطة لأنهم يحتاجون هذه المرة. إذا كانوا سيتعلمون أبدا كيف يستمعون بعضهم إلى بعض، كيف يمكنهم تحقيق العدل، كيف يحكمون أرضا واسعة كهذه، فهم يحتاجون إلى وقت.

السماء منقطة بالسحب التى تتورد مثل براعم القطن على شجرة. صخب أصوات الرجال يملأ أذنيه. يمكنه أن يشم عرقهم، أجسادهم المجهدة، قلوبهم التى تدق، الدم الذى يسرى فى عروقهم.

الأمر أفضل عندما تتحرك. عندما تجرى فأنت مشغول. كل ما حوله هو الغبار الذى تركله الجياد وهى تعدو جيئة وذهابا، وهى تهز أجزاءها الخلفية دون صبر. عندما جاء العدو على بعد معين، ما زال صف من الأشجار والأشواك فى الأفق، بدأت القذائف تسقط بينهم. لا يسمع شيئا فوق صوت الصخب، ورغم أنه كان مرعوبا، استدار لينظر إلى الرجل الذى بجانبه ليجد أن هذا الرجل مختلف عن الذى كان هناك منذ دقيقة. على طول الصف رأى أوجه لرجال شجعان أغبياء يجرون بتهور تجاه البنادق وعرف أنه يفخر بأنه هنا، بأنه رجل منهم. مع كل ضربة يبدو أن قلبه يعيش وحياة أخرى تموت. كان شابا، كان عجوزا، كان شجاعا كالأسد ثم مرعوبا كالفأر، كان لا يقهر ومات، فخور بأنه بين هؤلاء الرجال ويشعر بالخجل من السيف الذى يحمله فى يديه. سمع غناءهم مثل موسيقى الله فى أذنيه ثم أطلقت البنادق وكانوا يجرون فى اتجاهات مختلفة وكان هناك حيرة لا يقطعها سوى لحظات وجيزة من الوضوح. انقشع دخان البنادق وفجأة أصبح وحيدا. أمامه يرقد رجل،

شاب وراية عثمان أزرق Osman Azraq البيضاء بجانبه. مال حاوى ورفعها باحتراس ثم رفعها عاليا وبدأ يجرى بطريقته المرتبكة الخرقاء تجاه الشرارات وألسنة اللهب، إلى الدخان، نحو نهاية العالم.

السهول تتناثر فوقها أجساد المؤمنين: العجائز، والصبية الصغار والأطفال المسلحين بالسيوف الخشبية المنقوشة. تقدم الجنود بحذر، مثبتين حرابهم، وهم يحثون ذرات الحياة من الرايات المتشربة بالدماء. خلف الجنود يأتى جامعو الغنائم، حشد كريه من الكناسين الذين لحقوا بالصف فى نقاط مختلفة على الطريق من القاهرة. هنا حفنة جيدة من الغنيمة. تأوهات الذين يموتون استمرت طوال الليل.

يقولون: إنه فى الخارج حيث أجنحة الصقور ترسم دوائر سوداء هناك آلاف من الجثث التى ترقد مثل الأوراق التى تهتز من شجرة تنتشر عبر سهول كيريرى. استيقظ حاوى بفعل الحشد الذى أخذ طريقه خارجا فى شمس الصباح ليحاول إيجاد أقربائه الذين سقطوا فى المعركة. مر يوم والجثث قد انتفخت بسبب الحرارة. الرائحة فظيعة. هنا وهناك أقارب يبكون بسبب اكتشاف أب أو زوج أو ابن. لسنوات بعد ذلك ستتجول بعض الأرامل فى شيلانها السوداء مثل الغربان تلتقط عظام الرجال وتجمعها كنوع من التذكار للذين لم يجدنهم قط .

سحب حاوى نفسه من تحت كومة من الجثث. سار ببطء عائدا إلى المدينة، أو ما تبقى منها. طوال الطريق يرقد الموتى والذين اقتربوا من الموت. والناس يحفرون فى الأرض لدفنهم. الجنود يندفعون مسرعين يجرون المركبات ومدفع لامع. كانت المدينة لا تزال فى حالة من الهلع

والهرج. شوارع بأكملها اختفت ببساطة. كميات من الطين المخض الذى ينمو من الأرض مثل كثبان الرمال، وهى تدير حفرا عميقة ظهرت على الأرض. الأحشاء الملفوظة ترقد على الأرض وقد تحولت إلى اللون الرمادى؛ بسبب التراب. الكلاب تتبختر، تتغذى بجنون. سيدة تركع فى الشارع صامتة، جسدها ينهكه النشيج الذى ظل غير مسموع. الناس يسيرون عبر الشوارع فى حالة من الذهول، لا يتحدثون إلى شخص محدد، يتغذون على نهر الكلمات التى تمر بهم مثل صوت مألوف.

فكر حاوى وقال : "لم يعد هناك فروق بيننا كلنا ضائعون".

يحتشدون بين الحطام لرغبة مشتركة فى التأكد والفهم. يقول الناس : إن سحب الغبار الأحمر أتت من الحصون التى تم بناؤها على طول ضفة النهر وتمتد شمالا تجاه شامبات Shambat، البنادق التى كانت تنوى إطلاق النار على السفن العابرة اختفت فى سحابة من الغبار والقش. فى مرحلة معينة كان هناك جو من الابتهاج حتى تلاشى صخب المدافع التى تنطلق من السفن الحربية المدرعة التى تطوف خلسة متحولا إلى سكون. عندما بدأت مرة أخرى، قال الناس : إن الساعة حانت لأن الكفرة قاموا من بين الموتى. ظهرت فتحة فى ضريح المهدى والسن البيضاء white tooth الوحيدة التى تتجه نحو السماء انكسرت كالبيضة. أمسك شخص ذراعه وطلب منه أن يأتى بشكل عاجل. اندفعا معا عبر الشوارع إلى المكان الذى كان يقف فيه منزله، الآن لم يعد سوى كومة من الطين . أظلمت السماء. بحث ووجد أخيرا نون، مستلقية على ظهرها، يحيط بها مجموعة من الجيران عيناها مفتوحتان رغم أنها

لم تكن ميتة. ركع بجانبها ورفعها بين ذراعيه بعناية لأول مرة ؛ لأنهما لم يعيشا سوى رفيقين قال: "إنه أنا".

دفست أصابعها في ذراعه. وقالت بنوع من الدهشة : "لقد أظلم العالم".

الدموع التي تتدحرج على وجهه لا تؤلم. لم يعد يسمع صرخات الذين يموتون والمجانين. ربض على الأرض، ذراعه حول الفتاة التي ترتجف. سأل نفسه بينما يمتص الهواء من رئتيه ويحل محله الغبار المحترق: إذا لم يكن هذا هو جحيم جهنم، إذا لم تكن هذه هي النار، إذن ماذا تكون؟

٣٤ - القصر، الخرطوم

سبتمبر ١٨٩٨

انقشع الدخان ومر الليل. ابتلع السحاب فى برك المطر الكئيبة، ودخل السردار المدينة التى سقطت فى أيديهم وهو يسحب علم الخليفة خلفه عبرا لأرض الطينية. كان الناس ينظرون بأعين تلمع بالخوف لسكان اسكتلندا وهم يرتدون تنورتهم الكلتية ويعزفون آلات موسيقية تشبه الماعز الميتة.

هدموا الحوائط المتبقية لضريح المهدى، وهم يمزقون القماش المطرز، والكتابات الدينية والحرير، كلها على الأرض. حفروا القبر وأمسكوا بالعظام إلى أعلى نحو السماء. صاح الجنود: "انظروا هنا، إنه ميت مثل أى إنسان. بقاياه هنا. لم يذهب ليجلس بالقرب من الله ورسوله، إنه يرقد متعفنا هنا". ألقوا بالعظام فى النهر، ما عدا الجمجمة، التى احتفظ بها السردار كيتشنر فى برطمان كيروسين.

عزى إلزورث نفسه بفكرة أنه الآن، سوف يكون فى سلام مع نفسه، أخيرا. استلقى مرتاحا على السفينة المشفى. زملاؤه من الضباط يتجولون، وهم يومئون، للتحية. من السرير الذى يستلقى عليه يمكنه فقط أن يرى، فوق قضبان السكك الحديدية، نخلة تميل برقة. يتذكر قليلا من المعركة نفسها. كان العدو يقترب مثل مد يرتفع من قاع بحر عميق

لا يسبر أغواره. الهواء لا يزال رطبا بسبب المطر وبرك برونزية من الماء تميل إلى لون الصدأ لا تزال تقف على السهل المنبسط. بدأ الرجال يتمايلون، وهم يصرخون لاعنين الدراويش الذين يقتربون.

"لا تبالوا بذلك! يجب أن تنتظروا حتى يصبحوا فى مرمى قذائفنا. انتظروا ذلك!". ولكنه لا يستطيع أن يمشى الهوينى فى مقدمة الصف مثلما فعل ماكدونالد فى وقت سابق، وهو يطلب من الرجال أن ينتظروا صدور الأوامر قبل إطلاق النار. بدلا من ذلك وقف جانبا حيث الوضع أكثر أمانا وأرضى نفسه بالصياح. على بعد رأى قذائف من الجناح الأيمن تسقط بين الحشود الراقصة من القطن الأبيض والمعدن البراق. تسقط القذائف مثل الحصى فى بركة، وهى تصدر موجات من الموتى والجرحى. ذهنه فى حالة عدم تصديق. إنه ليس هنا، وهذا لا يحدث.

فوق الصخب والدخان وطلقات سلاح المدفعية تحت قيادة كولونيل ماكسويل من أعلى جبل سوركاب خلفه، وصراخ الدراويش من المستحيل أن يسمع شيئا. كانوا تقريبا سيهجمون عليهم. وأصدر الأمر فورا. كانت هناك حالة من التشوش الكامل. إطلاق النيران فى كل الاتجاهات، الدخان الصادر عن بنادق مارتينى - هنرى يجعل من المستحيل أن يرى المرء ما يحدث. صوت بنادق ماكسيم يضرب فى مؤخرة الرأس، يسقط الدراويش المتقدمون ولكنهم ما زالوا يتقدمون. جاء الصياح عبر الصف بأن ذخيرتهم قليلة ولوهلة كان إلزورث مرعوبا بينما العدو يتقدم إليهم: خمسين، أربعين، ثلاثين ياردة. حينئذ وكأنها معجزة، ظهرت بنادق لينكولنشير عتيقة الطراز. على الجناح الأيمن للجيش، يتحرك حاملوها

بدقة الآلات، يستديرون، يحشون البنادق، ويطلقون النيران ذات التأثير المدمر. سوف يطلق على ذلك انتصار ساحق عندما تنتهى الحرب، ولكن فى ذلك الوقت كان الأمر يشبه أن تمسك شيئا بلثتك.

مجموعة من خمسمائة فارس جاءوا ليهجموا عليهم. كان انتحارا محضا. استمرت الجياد فى التقدم. صدر الأمر ودارت الحيوانات ذوات الأربع. نبحت المدافع الرشاشة وتلعثمت وفى طرفة عين انقسم صف الفرسان نصفين. يأتون ويأتون ومع كل خطوة يتم محوهم. آخر فارس - جرح وأعماه الدم الذى يتدفق من جرح فى رأسه - هجم عليه ثم ترنح. صمتت البنادق عندما حدث هذا المشهد. استدار الفارس فى دائرة، ربما فوجئ بسكون قبل العاصفة. أمال رأسه جانبا ليسمع. ثم حدد موضع عدوه وأطلق صرخة وارتد على عقبيه. سلسلة من الطلقات النارية مزقته، انهار الجواد والرجل على الأرض.

كان جسد إلزورث يرتجف. لا يستطيع أن يفكر. لا يستطيع أن يتكلم. صرخ بما جاء فى رأسه. فى مرحلة معينة دعا إلى العودة إلى الجنوب فى اتجاه المدينة التى جاءوا لغزوها. رأى مجموعة بسيطة من الحوائط الطينية وهيكل ضريح متصدع ومنهار. بدا الأمر بأكمله بشكل ميئوس منه غير ملائم ليبرر كل هذا الوقت والجهد، ثمن ضئيل جدا ليدفعه المرء فى مقابل هذه الأرواح التى ترقد الآن، متناثرة فوق السهل.

الجيش يدور ويفحص آلاته. نظر فى ساعته. ولم يحن الظهر بعد. أخذت المعركة حوالى أربع ساعات. أربع ساعات، وأحد عشر ألف قتيل من العدو وثمانية وأربعين إنجليزيا. شعر بخليط غريب من الرهبة

والاشمئزاز مثل رجفة: لا يمكن أن يشعر المرء بالفخر؛ لأنه أحدث مثل هذا الدمار. عصر الحرب كان ذكرى غريبة هذا عصر المجازر الدقيقة.

مرت ثلاثة أيام وهدأت الفرق الموسيقية. الطبالون كانوا يأكلون بلوبيفا وبسكويتا. الراية البريطانية ترفرف بجانب علم الخديوى ذى الهلال الذهبى والنجمة بين حطام القصر الذى يسكنه الآن الماعز المتوحش والسحالى ذات اللون الأخضر الفاتح ويكسوه التمر هندى اللولبى الأحمر. كان الضباط قد انتهوا من الغناء ويصطفون ليسمحوا لمراسل كان يدير ذراع كاميرا صور متحركة ؛ ليلتقط لهم صورة أخيرة وهم مجتمعين فى المكان الذى فقد فيه جوردون حياته منذ حوالى أربعة عشر عاما.

وقف الضباط، وهم يحملون كتب التراتيل فى أيديهم وأدوا "ابق معى". ورغم وقار الطقس كانت الروح المعنوية للسردار عالية. تجول وهو يربت على ظهور الرجال. لم ير إلزورث كيتشينر هكذا من قبل. "عمل ممتاز أحسنتم جميعا. الآن يمكن للرجل العجوز أن يرقد مستريحا فى قبره". مسد السردار شاربه وهمهم شخص قريب من إلزورث تحت أنفاسه، "لو يستطيع امرئ أن يحدد أين وضعوا الملعون المسكين".

فى محيط الحشد لمح إلزورث وجها فجأه أنه مألوف. رجل عجوز يقف بجانب جذع نخلة سميك. كان نحيفا وأشيب يمشى جارا قدميه كالمعتوه. يتدلى الجلد فى ثنيات متجعدة من وجهه. يلعق شفتيه من وقت لآخر، يبدو أنه ليس لديه أسنان متبقية. استدعى إلزورث الضابط المساعد له وطلب منه أن يستميل الرجل. "اسأله من هو" أعطى تعليماته

للمصرى. استدار العريف للرجل وتحدث. ضحك وأوضح لإلزورث "إنه رجل مجنون". أومأ إلى الحطام الزائد خلفهم. "يقول: إن هذا هو مطبخه ويريد أن يستعيده".

وقف الرجل العجوز يتمايل من جانب إلى آخر وكأنه فى حالة نشوة. لم يستطع إلزورث أن يفكر لماذا يبدو الرجل مألوفا. "اسأله... إذا كان يعرف أين رفات جنرال جوردون". نظر العريف إلى الرائد نظرة طويلة ثم استدار ليسأله. صمت الرجل، وأمال رأسه إلى أحد الجوانب، ثم طقطق شفتيه وهز رأسه، صر بأسنانه كالمجنون "نجومى، نجومى سيعود". أعاد الجملة مرارا وتكرارا. نظر العريف إلى إلزورث وكأنه يقول : "قلت لك ذلك". لم يستطع إلزورث أن يفكر فى شىء يقوله أكثر من ذلك، ولذلك صرف الرجل، الذى انصرف نحو جذع نخلة وظل هناك، يلعق شفتيه ويراقب الإجراءات، يهز رأسه من وقت لآخر، ويبتسم ويطرقع بلسانه.

خاتمة

أقصى الشمال

مرة أخرى جاء مسافرا ومرة أخرى كان غريبا فى أرضه. مر بقرى ومدن، أماكن هجرت ولم تعد مأهولة إلا بالماعز الضالة والكلاب. قابل حشودا من الناس الذين ذكروه بالمهاجرين منذ سنوات. لاحظ أن الناس فى هذه الحالة من اليأس قد نسوا فعلا دروس الماضى. لقد كانوا مستسلمين لعجزهم. شعر بسنوات عمره تميل بثقلها عليه، وفوجىء أنها ضاعت هباء.

فيما بعد لم يستطع أن يتذكر أين أو متى بدأ، ولكن فى مرحلة معينة قرر أن يتصرف. كرر لنفسه: "من الاختلاط والتشوش، يجد المرء دائما أملا، شخص ما يجب أن يأخذ الخطوة الأولى". وبينما الطريق يمتد تحت قدميه أصبح واضحا بالنسبة له أنه لا أحد آخر تبقى، إنه هو الذى يجب أن يتكلم.

وجد نفسه بين حطام قرية ألقى بأبنائها تحت عجلات الحرب الحديدية. لا أحد فى السوق سوى قليل من الرجال العجائز. يجلسون فى الظل وبعض الأطفال. ناول رسن البغل إلى الفتاة العمياء، نون التى تسافر معه الآن، أينما ذهب، خطا إلى قمة كومة من القذارة والعظام وبدأ يتحدث. بدأ بعض الأطفال فى الضحك ومطوا وجوههم، آخرون

بدءوا يلقون بالحجارة. واصل حديثه رغم ذلك؛ لأنه مع كل ضربة تسقط عليه، يزداد إيمانه قوة، وتتراجع شكوكه. عن ماذا يتكلم؟ كثيرون سألوا هذا السؤال بعد ذلك وقليلون يتذكرون بوضوح. تحدث إليهم عن الدين وعن العالم. عن الطريقة التى يمكن أن يستغل بها الناس الدين سعيا وراء السلطة فقط، وأن هذا هو أسوأ أنواع الخيانة على الإطلاق وأن ما حدث مرة قد يحدث مرة أخرى. قال لهم: إن الدفاع الوحيد الذى يجب أن يكون لدى المرء ضد خيانة دينه هو أن يفهم دينه ويسلح نفسه بالمعرفة. لاحظ أن الأطفال بدءوا ينتبهون أكثر. أولا الأكبر منهم ثم الأصغر حرصا على التقليد. مع نهاية الأسبوع كان لديه مجموعة منتظمة تجتمع كل صباح عند قدميه، لا أحد منهم يزيد عمره عن ثلاثة عشر عاما. الآباء ينظرون بشك عندما ينقل دروسه إلى مكان مريح أكثر تحت شجرة نيم ضخمة حيث يأتى النسيم من النهر ويرفع معنوياتهم. أخبرهم أن ينظروا بعضهم إلى بعض ليروا كم هم مختلفون، كيف تحمل أسماؤهم أسماء آباء آبائهم، ووالده قبله وهكذا العودة إلى الخلف فى الزمن، وأن كلا من هذه الأسماء لها قصة وغالبا رحلة مرتبطة بهذه القصة. إن هناك مكانا تلتقى فيه كل قصصهم وتتقاطع وإن هذا مكان يشترك فيه الجميع.

فى المساء يجلس هو ونون صامتين ووحيدين فى الخلاء بين الأشجار، يعيشان على فتات الطعام التى قد يلقيها إليهم الناس بدافع الشفقة. أحيانا تتألم رأسه بالأفكار اليائسة.

تذكر يوما أن هذا هو بداية قرن جديد وفقا لتقويم المسيحيين الذين يجلسون الآن فى العاصمة. سوف نُسحب إلى تقديرهم للوقت الآن، كان الله في عوننا.

عندما تتشوش أفكاره يعود إلى حججه الأولى: إعادة تفسيره لكلمات الرسول. يجلس كل ليلة يحث حبره؛ لكى يبدأ مرة أخرى في الصباح التالى تدوين ملاحظاته. فى فترة قصيرة جمع رزمة مفككة ضخمة من لفائف الورق المصفرة. أفكاره تندفع متقدمة فى موجة كبيرة، ويتوقف فقط عن الكتابة عندما يبدأ معصمه يؤلمه أو تصبح رؤيته ضبابية لدرجة ألا يظل يرى الصفحة. في هذه الفترة كانت صحته تعتل. ينتقل كثيرا لدرجة أن ساقيه منهكة تماما. ينام قليلا وأثر الغذاء القليل المتقطع بدأ يظهر. يسير هو ونون أياما كثيرة دون طعام. والحق يقال فهو يفضل أن يكتفى بالبلح غير الناضج أكثر من أن يجلس بجانب سلطانية التسول فى قرية. كان يأمل أن يجد أسرة تأخذ نون وترعاها، ولكن الناس لديهم ما يكفيهم من مشاكل. أيضا، الناس الذين لا يشكون عادة فى المسافرين يبدءون فى التساؤل عندما يرون تأثيره على الأطفال. أكثر من مرة يطرده خارج المدينة سيدات غاضبات أو رجال عجائز وهم يلوحون بالعصى. يظنون أنه يريد أن يسرق الشئ الوحيد الذى تبقى لهم.

وصلوا إلى مكان مترب لم يكن سوى ممرين متقاطعين عبر السكك الحديدية التى أقامها الإنجليز، إبصار حاوى الآن سيئ جدا لدرجة أنه يدرك أين هو فقط عندما يتوقف البغل عند بئر. ينامان فى حطام مسجد صغير. كانت المدينة مكانا أكثر بؤسا، كما قيل له، لقد ضربت بشدة أثناء المعارك فى هذه المنطقة.

صعد حاوى على الأحجار الساقطة للمسجد وبدأ يتحدث. الناس، كالمعتاد، بطيئون فى الذهاب إليه. وقف على كومة من الحجارة المكسورة وهو يرفع يديه أمامه وكأنه يقرأ من راحتى يديه وقال:

"بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء"(*). لقد رأينا شيئا يمكن وصفه بالساعة الأخيرة. فقد كتب أنه «عندما تلد الأمة ربتها، وعندما ترى الرعاة الحفاة العراة يعيشون حياة الترف، حينئذ تكون العلامات معنا والساعة قد حانت"(**). احتكم إليهم: "أليس هذا ما شهدناه فى السنوات الأخيرة لحكم الخليفة عبد الله؟ ألم يصر من حوله أكثر بدانة وغنى؟ ومن يكونوا سوى رعاة بسطاء للماشية والماعز؟ لقد كنت هناك ورأيت بنفسى» .

هناك نغمة سخط على ذلك. صاح شخص فى الخلف بشىء فاحش. يبدو أن كثيرين مخلصين للخليفة فى هذه المناطق. مجموعة صغيرة كانت تتجمع فى الجانب البعيد للميدان المفتوح. السوق مزدحم

(*) بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء". الحديث رقم (١٤٥) فى صحيح مسلم. الجزء الأول. تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى. (المراجع)

(**) سئل الرسول عليه الصلاة والسلام متى الساعة؟ فقال : "ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان".

الحديث رقم (٥٠) فى صحيح البخارى. الجزء الأول . تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر.

ونلاحظ أن رواية البخارى تقول : " إذا ولدت الأمة ربها" لا "ربتها" التى وردت فى رواية أخرى . (المراجع).

اليوم، والهواء النقى ملىء بالتفاؤل الذى شجع حاوى فرفع يديه طالبا الصبر.

"التاريخ يعيد نفسه، ولكن ليس بالأسلوب نفسه. المكان ليس كرويا ولا الزمان. كلاهما تكوينان لولبيان مثل ثمار شجرة التمر هندى". حرك يده بشكل لولبى فى الهواء. مناشدته سحرت الأطفال. "نهاية الدورة تشبه بدايتها... ولكنها مختلفة بشكل واضح".

العنصر القبيح فى الحشد شق طريقه، بصعوبة إلى الأمام.

صاح أحدهم: "أنت لست مؤمنا".

جاء صوت آخر: "إننا نضحى بأبنائنا وآبائنا فى سبيل الإيمان. ما الذى ضحيت به؟".

ابتسم حاوى وأومأ ورفع ساعديه اللذين يشبهان جذوع النخيل قائلا: "إنى أناشدكم يا إخوانى أن نتذكر من نحن. لقد مررنا بالكثير جدا من المعاناة والألم معا. ولهذا فما كان يحدث من قبل خطأ. يجب أن تكون لدينا القوة لنتعلم ونغير "بدأ الحشد يتخلص منه. كان عليه أن يرفع صوته حتى آلمته رئتيه. "كل يوم يجد جانبا جديدا ليهتم به" يقول الناس: إن الشئ الناقص فقط هو الذى ينمو ويتطور والأمر ليس كذلك. فالشخص الكامل هو الذى يتطلع إلى ما هو أكثر. إن الكمال حالة مرنة من التجديد والتطور وليس الركود".

كان الحشد يضغط عليه من كل زاوية. شعر حاوى بأيديهم تحاول الوصول إليه. اندفع إلى الخلف ورفع يديه. جاءت كلماته وهو يلهث: "إن

البراعم الصغيرة للعشب الناضر على سفح الجبل أكثر كمالا من الجبل نفسه".

غضب الناس الشديد صريح وواضح. انسحب وكأن كلبا يكشر له عن أنيابه. "ماذا...؟" سأل متحيرا بسبب كبر سنه، بسبب العالم، بسبب نقص الطعام والمأوى، بسبب الجهل والنكبة. "ماذا" سأل. وصلت إليه الأيدى، تلمس ملابسه، وتسحبه إلى الحشد. سمع صخب أصواتهم. رأى وجوههم تتحول وكأنه بسبب الشر أو السحر. حيث كان هناك ضوء منذ لحظة واحدة هناك الآن ظلام. غطى السماء ظل أسود. جزء صغير جدا فى هذا السهل المنبسط الأصفر من الصخور والعظام المحطمة. سبح وجه امرأة نحوه ورآها تتحول وهى تبصق عليه. قال لنفسه: إنهم مجرد بشر، بشر بسطاء جهلاء، لا يعرفون شيئا أفضل.

حاول أن يستنجد بنون. شعر بنفسه يُرفع من على الأرض ويساق تجاه خطوط السكك الحديدية والبيوت التى بنتها شركة السكك الحديدية لعمالها - مجموعة صغيرة من الأشكال المخروطية مثل رءوس الطين المستقرة على الأرض المنبسطة. توقف الحشد ونادى ناظر المحطة. يحتاجون إلى شخص يحتكمون إليه. وناظر المحطة، الآن هو أقرب شخص لأى شكل من أشكال السلطة هنا.

بعد فترة شوهد رجل يحدق من داخل الكوخ الظليل بدا غير راغب فى الخروج، ولكنه أخيرا تذمر ولعن وخطا خارجا على ضوء بعد الظهيرة الذى كان باهتا مثيرا للاشمئزاز مثل قماش الخيام البالى.

أخفض كابه على رأسه وارتدى زيا كاكى اللون باليا يتدلى مفتوحا على كتفيه. تغير وجهه، كبر فى السن وعنف معين غير الملامح التى كانت يوما تلائم الشباب. لم يلمح كادارو حتى الفتاة العمياء التى تجلس تحت أقدام الحشد. حك عينيه متضايقا، لأنه أوقظ من نومه.

"ما الذى يحدث هنا" سأل مدركا أن الحشد غاضب. نظر إلى الرجل المثير للشفقة الذى يأسرونه، حافى القدمين، رأسه الصلعاء تغطيها القشور وملابسه متسخة وممزقة. أشار كادارو بيده. "أعرف هذا النوع إننا لا نريد المحتالين واللصوص فى مدينتنا. فقط أقصى عقوبة هى التى تصلح تماما معهم". أخذ نفسا وعدل سترته. الأمر يتطلب أكثر من ذلك، قال: لنفسه. جذب سوط رجل كان يقف إلى جانبه ولوح به فى الهواء. تنحنح. وتدفقت الكلمات، كلمات تدق فى رأس طفل صغير منذ سنوات بعيدة، كلمات كان قد نسيها.

قال: مقتبسا: "احذر الأنبياء الزائفين". كان هناك همهمة موافقة. كادارو، بصدر مثقل بالحيرة والغضب، واصل حديثه وهو يشعر بالحشد الذى أمامه دافئا ومسترسلا. "كيف نعرفهم" سأل "ستعرفونهم بأعمالهم!". هب الحشد هبة رجل واحد، موجة مهتاجة من الإهانة. لقد دفعوا كثيرا جدا لدرجة ألا يمكن أن يقال لهم إنهم مخطئون.

راقب حاوى كل ذلك وكأنه يطفو عاليا. أدرك وهو حزين أن الناس لا يريدون أن يقبلوا العالم المتنوع الذى خلقه الله بحكمته. يودون أن يبقى كل شىء كما هو. من ناحية يمتدحون الله على نعمه ومن ناحية أخرى يتعلقون بفكرة أن هناك رجلا عاديا، صورة مثالية يجب أن يكافح

المرء ليصل إليها. لن يقبلوا أن كلا منهم قد خلق مميزا، وأن لكل منهم مواهبه وقدراته. في أعماق قلوبهم يعرفون أن هذه معجزة الحياة، ولكنهم لايودون أن يعترفوا بها. ولهذا ينقلبون على أي شيء يذكرهم بهذه الحقيقة - ضد أي شئ غريب، والدخيل هم ضده.

دارت برأسه كل هذه الأفكار وهم يحضرون الحبل. جعلوه يقف في الشمس بينما كلهم صامتون الآن ينظرون إليه. على مسافة قريبة يشاهد الموقف مجموعة من الأطفال، فزعين ومسحورين لدرجة أنهم لا يقدرون أن يحولوا أبصارهم. سيتذكرون، فكر في ذلك بينما يداه توثق خلف ظهره. الشمس تؤذي عينيه تجعلهما تؤلماه، كما تجعل رأسه توجعه.

عند مرحلة معينة سقط على الأرض بين الأقدام المهتاجة والتراب. امتلأ فمه بالقش والجفاف اللاذع لبراز البغال. حاول أن يقوم، كان يسعل ويختنق، شاعرا بثقلهم على ظهره. اركبوه البغل الأبيض نفسه الذي وصل عليه. لم يشعر بالخزي. "هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر" سمع نفسه يقول : "اللي يعيش ياما يشوف". هذا الوقت يجب أن يأتي لنا جميعا. هذه هي اللحظة التي كان يستعد لها طوال حياته اليقظة. ولكن فجأة أدرك وهو مصدوم أن في داخله خواء، لقد فقد في مكان ما خلال الطريق شيئا جوهريا. فاجأه مثل سكين غرز في الأعضاء الحيوية لجسده: لقد فقد إيمانه. يترنح الآن في يأس، في حالة ذعر تام. كل ذلك كان عديم القيمة، كل الساعات والسنوات، كل الليالي التي استلقى فيها مستيقظا وعاني ليقترب من المصدر - ضاعت هباء. في ماذا إذن قضى حياته؟ باسم الله تحمل الكثير جدا من الآلام والمعاناة في صمت: الله

أكبر، هو الذى يعلم ويرى، ولديه حكمة فى ذلك. ولكن ما الحكمة الآن؟ لماذا لم يصل محمد أحمد المهدى إلى الكوفة أو بغداد؟ لأن هناك حكمة. لم يركب جواده منتصرا عبر المدينة المنورة؟ لأن هناك حكمة. والحكمة؟ أن الله كريم. إنه الرحمن والرحيم.

رفع وجهه من مؤخرة البغل ورأى حشد الحاضرين. كان رأسه يدور سريعا بالطريقة نفسها التى يهز بها درويش ذو لحية رأسه، وشعره ممتلئ بأعشاش العصافير والغبار. سمع عويلهم يعلو مع الريح، تصل إليه الأذرع والأحاديث بالطريقة نفسها التى تهب بها الخماسين من الصحراء. إنهم هم، رغم كل ذلك، البسطاء الذين لا يستطيعون أن يحبوا إخوانهم فى الإنسانية، الذين لا يستطيعون الاستماع، وحصانتهم الوحيدة الكراهية والشك.

"مرتد!" زأروا ولم يجادل، لأنه فى هذه اللحظة كان يعلم أن هذا حقيقى. رفع عينيه تجاه السماء باحثا، متوسلا. ثم أغلقهما وزحفت دمعة وحيدة على وجهه المتجعد. عندما فتح عينيه مرة أخرى كان ليرى طائرا أبيض يدور فى السماء. بومة أم يمامة؟ ومثلما جاء شكه بشكل عرضى سهل، انقشع. بدأ يبتسم وفتح فمه ليتلو الشهادة :لا إله إلا الله.

نزل كادارو بالسوط على مؤخرة البغل المذبوح وبدأ يحركه نحو البيت، تاركا حاوى المرتد يتدلى مشنوقا فى نسيم بعد الظهيرة الرقيق.

تلاشى الحشد ببطء، مختفيا بالطريقة نفسها التى جاء بها، وهم يتحدثون بأصوات ضعيفة بعضهم إلى بعض، تاركا الفتاة العمياء تجلس

على ركبتيها في التراب بجانب الجسد الذي يتدلى برقة من عمود التلغراف عند خط السكك الحديدية. بين نشيجها لفظت لاهثة ببعض الكلمات إلى ظهور الناس التي تختفي. وصاحت: "كان محقا، لقد كان ينطق بالحقيقة".

ناظر المحطة رفض الأمر لاعنا واستدار ليعود إلى داخل مسكنه الظليل. كان متعبا ويحتاج إلى الراحة.

مسرد بالكلمات الغريبة

أمير : تستخدم أيضا لتشير إلى قائد بالمعنى العسكرى .

البركيت : نوع من أنواع الببغاء صغير وهزيل .

عنجريب : سرير تقليدى من الخشب، مربوط بأحبال من سعف النخيل .

أنصار : تابعو المهدى المخلصون، أطلق الاسم فى الأصل على أتباع الرسول من المدينة .

عصيدة : نوع رئيسى من الثريد المصنوع من دقيق السرغوم .

باش - بوزوك: كلمة تركية تعنى "المستقلين"، توضح أهمية وحدات الفرسان غير النظامية للإمبراطورية العثمانية، يخشاهم الناس جدا لوحشيتهم .

فاجو : جذور مثل الفجل تنمو ويمكن أكلها .

جوراسا : طعام رئيسى يشبه الفطيرة المحلاة مصنوع من دقيق القمح .

جلابة : كلمة تشير إلى التجار العرب فى جنوب السودان .

جهادية : عبيد تتم مصادرتهم من جانب التجار ويجندهم المصريون فى الجيش من أجل الخدمة العسكرية .

جوبا : قميص قطنى طويل وفضفاض .

كمنجا : كلمة عامية لنوع محلى من الحشيش .

معهلش : لا تهتم .

مشربية : حاجز خشبى محفور يستخدم عادة فى الشرق الأوسط ليغطى النوافذ .

مريسة : شراب متخمر مصنوع من سرغوم الذرة .

أومبية : بوق كبير مصنوع من سن الفيل .

راكوبا : مأوى بسيط يشبه الفراندة مغطى بسعف النخيل ملحق بجانب المنزل .

سانجاك : رتبة عسكرية تركية – ضابط مساو لنقيب .

شلالى : شخص من منطقة شلال فى النوبة .

شين : قبيح .

سردار : رتبة عسكرية تركية تساوى حاكم .

سورة : اسم يطلق على فصول القرآن .

المؤلف فى سطور:

جمال محجوب

ولد فى لندن عام ١٩٦٠، انتقلت أسرته إلى ليفربول عام ١٩٦١، ثم إلى الخرطوم. عاد محجوب إلى إنجلترا عام ١٩٨١ ليدرس الجيولوجيا بجامعة شيفلد. وفى عام ١٩٨٩، صدرت روايته الأولى "إبحار صانع مطر" عن دار هينمان. وفى عام ١٩٩٣، فاز بمسابقة الجارديان/ هينمان للقصة القصيرة. روايته الثانية "أجنحة التراب" صدرت عام ١٩٩٤ عن دار هينمان. (صدرت عن المركز القومى للترجمة تحت عنوان "أجنحة الغبار").

نشرت روايته "فى ساعة العلامات" للمرة الأولى عام ١٩٩٦، عن دار هينمان.

بزغ محجوب كزعيم لمجموعة من الكتاب الشباب الذين ينقبون فى ثقافات عديدة لإثراء عالمهم الإبداعى.

المترجمة فى سطور:

راشدة رجب

* مواليد الإسكندرية ١٩٧٠ .

* حاصلة على ليسانس الألسن - قسم اللغة الإنجليزية - جامعة عين شمس ١٩٩٢ .

* حاصلة على دبلوم الدراسات العليا للنقد الفنى - أكاديمية الفنون ١٩٩٥ .

* تعمل كصحفية منذ عام ١٩٩٢، ولها عديد من المقالات بالأهرام ويكلى والقاهرة .

* ومجلة الأهرام العربى والإصدار الأول من جريدة الدستور وجريدة الأهالى وموقع إسلام أون لاين.

المراجع فى سطور:

د. يسرى إبراهيم

* ولد فى مدينة قليوب بمحافظة القليوبية فى الثانى عشر من مايو عام ١٩٥٤م.

* حصل على درجة الليسانس فى الفلسفة بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٦م.

* حصل على درجة الماجستير فى "فلسفة الأخلاق عند الفيلسوف الألمانى نيتشه" بتقدير ممتاز من جامعة عين شمس عام ١٩٨٤م.

* حصل على درجة الدكتوراه فى "فلسفة الأخلاق عند الفيلسوف الأمريكى رويس" مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة عين شمس عام ١٩٨٩م.

* حصل على جائزة البحوث الممتازة من جامعة عين شمس عام ١٩٩٢م.

* قام بالتدريس بقسم الترجمة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ عام ٢٠٠٧ حتى عام ٢٠٠٩م.

* يعمل مدرسا بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

من أهم مؤلفاته:

"نيتشة عدو المسيح"، "العقل الأمريكى"، "العقل الإغريقى"، "دراسات فى الفكر المصرى القديم".

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور

الإشراف الفنى: حسن كامل

سودان القرن التاسع عشر؛ الغارق فى الاختلافات الدينية والثقافية والسياسية، يحيا من جديد فى رواية جمال محجوب الرائعة.

مجموعة متنوعة من الجنود والزاهدين والقوميين والساخرين. عرب وأوروبيون، مسلمون ومسيحيون بعضهم حكيم، ومعظمهم مضلل، يؤدون أدوارا صغيرة فى صراع كبير، قليل منهم يدركه. وبينما يعلو صخب الحرب ليصم الآذان، تنطلق الرواية نحو نهاية مرضية وصادمة جدا فى آن واحد.

رواية تاريخية بديعة ومثيرة، تحكى عن تاريخ جزء مهم من وطننا فى فترة حساسة من تاريخه، ولا غنى عن قراءتها بالنسبة إلى القارئ العربي.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح   لوحة الغلاف: المسيح لسلفادور دالي